

رواية

إبراهيم أحمد عيسى



«لو تأملوا الموت لما تهالكوا على الحياة
ولو تذكروا الآخرة لفروا فرارًا إلى جناب ربهم !»

د. مصطفى محمود

إهداءً

لمن يحملون قبسًا من أمل..

ابراهيم احمد عيسى

«النهاية»

غزة

٤٦٤ هجرية - ١٠٧١ ميلادية..

ارتفعت درجة الحرارة، في ذلك الوقت الذي تجاوز الظهيرة بساعة تقريبًا، حينما كانت قافلة عظيمة في طريقها لمغادرة المدينة. خرجت من أبواب مدينة «غزة»، يتبعها أهل المدينة بشغف، مع رؤيتهم لحمولتها الضخمة وأعداد الإبل التي تخطت الثلاثمائة بعير، محاطة بقوات كبيرة من الجند حاملين الرايات الخضراء...... رايات الدولة الفاطمية، التي خسرت منذ أيام حصن الرملة القريب، وصار تحت سيطرة السلاجقة.

لم يكد يمضي على خروج القافلة من المدينة سوى دقائق، تتقدمها فرق الاستكشاف التي راحت تحث الخطى لتسبق القافلة وتؤمن الطريق، حتى خُيِّل لأحد الفرسان أنه رأى جسدًا ملقى على مرمى

البصر. عقد حاجبيه وهو يدقق النظر للتحقق مما رآه؛ فقد كانت الطيور القمّامة تحلق في السماء. حث فرسه على المضي قدمًا لينفصل عن بقية رفاقه، الذين راحت أعينهم تتابعه في استغراب، وسُرعان ما عرفوا وجهته. مع اقتراب الفارس من هدفه، أبطأ فرسه وهو يشاهد ذلك النسر، الذي هبط بجوار الجثة وراح يقفز قفزات قصيرة فاتحًا جناحيه في زهو السباق لفريسته. استل الفارس سيفه، وصاح ملوحًا به في محاولة لإخافة ذلك الطائر، الذي زعق بدوره محاولًا إخافة الفرس وصاحبه دون جدوى، ليضطر للتحليق بعيدًا حاملًا حسرة خسارة وفقدان غذائه، المتمثل في جيفة ملقاة على وجهها.

ترجل الفارس شاهرًا سيفه، وأخذ يخطو باتجاه ذلك الجسد الرافل في أسمال غريبة ملطخة بالغبار. تفقده في صمت، قبل أن تلحق به فرقته، وسيول جارفة من الأسئلة تفيض من أعينهم القلقة. سرعان ما تبدل الحال إلى الدهشة، حين رؤية ذلك الصريع يمسك في يمناه رقعة شاحبة، فيما قبضت يسراه على ريشة إوزة، واضطجعت لجانبه قنينة قد سال ما تبقى من مداد حبرها على مقربة منه. انحنى يتفحصه، وكزه مرتين، قبل أن يشير لأحد رفقائه بأن يأتي لمساعدته، ورفع ذلك الجسد الضئيل ليرى وجه صاحبه. كان شاحبًا خاليًا من الحياة، لكن الشيء الذي لفت انتباهه كان تلك الحقيبة من جلد الماعز المعلقة على صدره. أثارت الرقعة فضوله، فاستخلصها من بين أصابعه المتيبسة، ورفعها أمام عينه يقرؤها، فإذا بها مكتوبة بخط عربي واضح، وإن كان يشوبه بعض التعرج والاهتزاز، يوحي بأنها كتبت بآخر ما تبقى في عروقه من قوة، فقد كانت الكلمات متباعدة إلى حد ما، غير متناسقة السطور، تتناثر قطرات الحبر بينها.

قطع تأمله صوت صارم جاء من خلفه قائلًا:

- ماذا يحدث هنا؟

التفت الفارس في سرعة، وما إن وقعت عيناه على صاحب الصوت، حتى انتفض واقفًا في تبجيل منكسًا رأسه، ومادا بالرقعة إلى ذلك الرجل المهيب صاحب الفرس القوي المتين قائلًا:

- سيدي؛ لقد وجدنا هذا الرجل الصريع حاملًا تلك الرسالة على ما تبدو أنها.....

بتر كلماته، حينما تقدم صاحب الفرس الأحمر باسطًا راحته ليأخذ الرقعة من يد الفارس، الذي أمال نصف جسده للأمام محييًا قائده، فيما بدأ ذلك الأخير في قراءة السطور بعينيه في صمت..

«أرى النجاة على مرمى بصري الضعيف. وهنت قدماي ولم أعد أقوى على السير والحركة... لا أعلم أي عقاب هذا الذي أنزله الله بي... لم آكل منذ خرجت من الفسطاط سوى بضع أوراق جافة، أصابني الصبار بالجفاف وكأنه ينقصني المزيد منه.... حينما يبزغ الفجر، سأحاول الوصول إلى تلك المدينة ذات الأسوار البيضاء؛ لا أعلم أهي حقيقة أم سراب.

قد أتى الصباح، بعد ليل طويل نخرت برودته عظامي الضعيفة. بالكاد أحاول الكتابة بما تبقى في أصابعي من قوة.

ضيق الأنفاس يلاحقني، وتلك الطيور تنتظر موتي لتنال من لحمي الجاف؛ هذا إن وجدت ما تأكله مني، فقد غدوت طبقة من الجلد اليابس.

في الليل، سمعت ضحكات ضبع جائع، أحسست بأنفاسه على

وجهي. يبدو أنه أنف أكلي. تمنيت أن يمتزج الموت بأسنانه ليريح روحي من عذاب الجوع وألم الاحتضار. ابتعد وتركني لأحظى بفرصة للنجاة، ولكن يبدو أنها النهاية، فإن لم تأكلني الضباع حيًا ستأكلني النسور ميتًا.

لن تكون النهاية هكذا.. سأصل للمدينة القريبة زحفًا إن تطلب الأمر.. لن أدع الموت ينال مني، فلم أواجه تلك الأهوال لأموت هكذا....

لن أستسلم للموت الآن....

فإن الاستسلام كُفر بمشيئة الله....

من وهبني الحياة وهبني النجاة....

بالتأكيد ليست هذه النهاية......

كانت هذه آخر الكلمات بتلك الرقعة، والتي ما إن انتهى ذاك الرجل الصارم من قراءتها حتى أخذ ينظر إلى صاحب الرسالة الصريع، وقد حمل أحدهم حقيبته وبدأ يرى ما فيها، أمام نظرات قائده المترقبة، وقد ازدادت دهشته مع صياح الجندي:

- سيدي، إنه يحمل كتابين معه.

قالها مفرغًا الحقيبة الجلدية بجوار حاملها، في حين انحنى الجندي يفحص وجه ذلك المسجى المأسوف عليه و......

فتح الرجل المتهالك عينيه على نحو مفاجئ، غارزا أصابعه في ذراع الجندي، لينتفض وينتزع يده من براثنه مرتدًا للخلف، فقد بدا له ذلك الشخص كالعائد من الموت للذود عن كتبه.

***

عاصفة هوجاء أطلقت سراح رياحها، لتضرب في قوة الرايات الخضراء في ذلك المعسكر الفاطمي القابع وسط الصحراء، بينما توارى الجند وأهل القافلة داخل خيمهم، يصمون آذانهم حتى لا يسمعوا صراخ الريح، تاركين إبلهم وخيولهم في العراء بصحبة حراس جاهدت أعينهم في البقاء يقظة. أما داخل خيمة القيادة، فكانت هناك عاصفة من نوع آخر ...

عاصفة من الفضول اجتاحت عقل قائد القافلة، وهو يقف عاقدًا يديه أمام صدره، وسط الخيمة الكبيرة المزينة أعمدتها بدروع حربية متخمة بالطنافس -الوسائد- الكبيرة ذات الألوان الذهبية التي تحمل شعار الدولة الفاطمية. كان أشبه بتمثال يقف معلقًا عينيه بمجلدين، هما حصيلة ما وجدوه مع ذلك الصريع قرب غزة. كان عليه أن يطلع عليهما بنفسه. أمر بخروج الجميع، ليتقدم واضعًا خوذته، مستندا بكلتا يديه على المنضدة، مراقبًا إحدى الشموع الكبيرة التي أخذت نيرانها تتراقص بفعل تيار هواء متسرب لداخل الخيمة. دقائق راح يتأمل فيها الكتابين، قبل أن يأخذ نفسًا عميقًا، داعب بعده لحيته، ثم تناول الكتاب الأول وبدأ في مطالعته.

***



«المجلد الأول»

« الفسطاط»

١٤ شوال -

٤٦٠هـ - ١٠٦٧ م

اليوم هو الأول لي في هذه المدينة العامرة، فسطاط عمرو بن العاص. ارتقت الشمس لكبد السماء مع دخولنا المدينة. لم أكن يومًا أتخيلها كما أراها الآن.. إنها مزدحمة بالناس، عتيقة العمائر، حسنة البساتين. زرت مسجدها الجامع ذا الصحن الكبير، الذي يشبه المسجد الأموي الكبير في دمشق. يقع شرقًا باتجاه النيل، ذلك النهر الخالد ومورد الحياة لأرض مصر بأكملها، يجري بأمر الله محيلًا جنباته جنة من جنان الله. لا أستطيع أن أصف مدى جمال منازلها.. لا تشبه تلك المنازل بالشام، فلها شكل خاص وعمارة مختلفة، لها طوابق مرتفعة تحمل طابعًا خاصًا من أصالة ورقي حضارتنا الإسلامية، فهي ذات عقود وزخرفات كأوراق الأشجار تختلط بكلمات التعظيم لله.. أتعلم يا أبي أن الفسطاط نزل بها الكثير من صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم؟

إنها مدينة العامة، ولكنها عظيمة المقام. سوف أسكن «زقاق القناديل»، الذي هو عبارة عن أربعة منازل كبيرة متقابلة، تفصل بينها حارة ضيقة، وتكاد النوافذ في الأعلى تلاصق بعضها البعض. يسكنه طلبة العلم من مختلف البلدان، لأنه بالقرب من المسجد الذي سأبدأ فيه ارتياد دروس العلوم المختلفة بعد أيام.

أسأل الله أن يوفقني فيما أنا مقبل عليه من طلب للعلم، حتى أصير الابن الذي تفخر به..

ابنك البار

حسن.

***

استيقظت باكرًا اليوم، أو لعلي لم أنم جيدًا في الليل. هذا هو حالي عندما يكون هناك ما يشغل عقلي ويؤرقه، ففي الصباح سيكون أول الدروس التي سأحضرها.. سيصاحبني رفيق الغرفة «محمود بن عز الدين»؛ إنه شخص مرح، لا أراه إلا مبتسمًا، حتى لتضيق عيناه -مع فرط السمنة- أكثر كلما ضحك أو أكل. يسخر منه الناس لأنه سمين، أما هو فلا ينشغل بما يقال عنه، ولا يلقى بالًا لنكاتهم وسخريتهم منه.. نقي القلب، بيد أنه حين يحضر الطعام لا يبالي بالجالسين، وكأن عينيه لا ترصدان سوى الأطباق، ولا تسمع أذناه سوى صوت معدته التي لا تكل ولا تمل من كثرة ما يخزن بها من زاد.

في الساعات الأولى من الصباح، بدأت حلقات العلم تجتمع، فكان كل عالم يجلس تحت أحد الأعمدة، ويلتف حوله التلامذة من مختلف الأعمار. تأخرت هذا اليوم بسبب محمود. كان على أن أجاريه في بطء حركته وتوقفه الدائم أمام البائعين، ولهاثه المفرط كلما رأى الفاكهة والخضروات الطازجة. لم يفز سوى بخبز تناثرت عليه قطرات عسل، بعد عراك مع البائع حول زيادة قطراته. عرجنا في الطريق على وكالة الخليفة، حيث كانت هناك إحدى القوافل القادمة من الحجاز. شرع محمود يلتقط ما يسقط في الأرض من تمر المدينة، حتى امتلأت جعبته، وأخيرًا دخلنا المسجد لنبحث وسط الحلقات عن شيخنا «عبد الرحيم البازوري».

كان شيخًا كبيرًا، لحيته البيضاء وحاجباه الكثيفان الثلجيان أضافا عليه هيبة ووقارا، تجاعيد وجهه القليلة تشهد له بالزهد. زادته عيناه الثاقبتان ذكاءً وفطنة. طيات جبينه أيضًا تدل على مشوار كادح لم ينته بعد. استقبلنا بترحاب، مبتسمًا مع رؤيته ذلك السمين اللاهث خلفي.... فناداه مداعبًا:

- ما اسمك يا فتى؟!

أجابه محمود وهو ينحني مستندًا على العمود الرخامي:

- محمود يا سيدنا.... محمود بن عز الدين من الإسكندرية.

أومأ الشيخ برأسه وهو يقول:

- كم عمرك؟

قال محمود في تململ:

- سبع عشرة سنة...

داعبه الشيخ قائلًا:

- عليك أن تفقد الكثير من الوزن لكي تأتي في الموعد.

لم يكد ينهى كلماته، حتى تحول ناحيتي سائلًا عن اسمي فأجبت بسرعة:

- حسن بن عبد السلام الدمشقي.....

قاطعني قائلًا وابتسامة هادئة ترتسم على وجهه:

- حسنًا أيها الدمشقي... والآن اجلسا.

ساعات قضيتها في حضرة العلم، تخللتها صلاة الظهر، لنأخذ راحة. كان الجميع يجلسون في الصحن الواسع، ويرطبون وجوههم ورؤوسهم بالمياه العذبة، بينما جلست أتأمل تلك القناديل المعلقة التي يكاد زيتها يضيء مع قبسات الشمس الآتية من الخارج. للمكان روحانية ونسمات تتخلل أنفاسي. المحراب المثقل بالنقوش، والعلماء بجلابيب واسعة وعمائم بيضاء، يتوسطون طلاب العلم بمختلف ألوانهم. كان المسجد هو نبع المنهج السني في قلب مصر «العبيدية».

***

عيد الأضحى هو أول أعيادي بأرض مصر. الفسطاط تزينت بمختلف ألوان البهجة. صلاة العيد حضرها آلاف من الناس، يكبرون ويتبادلون التهاني.. كفوف الدماء الحمراء تطبع على المنازل، وكأن أصحاب المنازل يعلمون أن هذا المنزل به من قام بأضحية من ضأن، فقد كان يمنع ذبح الأبقار في العيد طبقًا لمرسوم كان قد أصدره

الحاكم بأمر الله جد الخليفة. الأطفال يركضون في الحارات بملابس جديدة نظيفة، ينشدون ويغنون. حلوى توزع بالباحات مع القادمين من القاهرة، يفتخرون بعيدية الخليفة؛ دنانير ذهبية تلقى أثناء عودة موكب الخليفة من صلاة العيد في المسجد الأزهر، وأمامه تسير طائفة برقة، مؤلفة من فتيان يرتدون ملابس ملونة يتقافزون كالقردة لتسري البهجة في الجموع.

قضيت العيد مع محمود، بين شاطئ النيل وزقاق القناديل وقاطنيه، ممن كانوا يمنحونا أطباق الفتة من لحم ومرق مخلوط بفتات الخبز والأرز.. كانوا كرماء يبتسمون. بيد أن الحال تبدل بعد العيد بقليل.. صار الجميع مقطبين، قل الحديث، وشحت الابتسامة؛ فقد صدر في خامس أيام العيد أمر من الخليفة الفاطمي يقضي برفع الضرائب للضِعف، مما جعل التجار يزيدون من سعر بضاعتهم. أسمع الناس تتحدث عن القاهرة وما تحويه من نفائس البضائع، وعن قدسيتها ومكانتها عند الحكام. العامة يرهبهم ذكرها، ولكنهم يحبونها، فمواكب الذكر تأتي من القاهرة للفسطاط، ويتجمع حولها الكبار والصغار يتأرجحون مع صوت الدفوف كما يفعل من بالموكب. يرفعون أصواتهم الهادرة بذكر الله وآل البيت.. شيء غير مقبول ولا مفهوم؛ ولكنه كان كافيا لنسيان الناس أمر الغلاء وارتفاع الضرائب.

القاهرة، وإن أتى منها ما يسوؤهم، فأيضًا يأتي منها ما يبهجهم وينسيهم. أمر الناس هنا عجيب، ينسون سريعًا ولا يأبهون إلا بحياتهم، حتى لو على حساب الآخرين، فتجد بعض كبار التجار يدفعون المساكين والدراويش بعيدًا عن طريقهم، ولا يلبون طلباتهم

من صدقات، فقد نسوا أن «المال مال الله» و«ما نقص مال عبد من صدقة»، الأمر يثير حفيظتي كلما رأيت أحد الفقراء، وهم كثيرون بالفسطاط.

***

أيام وليالي الفسطاط متسارعة. أدلف للمسجد للدراسة في الصباح، والأسواق ممتلئة بالبضائع ومزدحمة بالعباد، وعندما أفرغ من الدروس ويحين وقت العودة لغرفتي الصغيرة في الزقاق، أمر على السوق الذي أجده قد خلا تمامًا من البشر ومن الثمرات. أعداد الناس هنا كبيرة، اختلفت أعراقهم وأشكالهم، وحتى لكناتهم، والمرفأ يعج بالسفن، خاصة مع انقضاء العام وبداية عام هجري جديد. يحمل النيل خيرات آتية عبر البحار الشاسعة؛ كنت هناك منذ يومين أشاهد السفن الآتية من القسطنطينية عبر دمياط، بأشرعتها الغريبة، والطاقم الأعجمي يفرغ حمولتها من الزيوت والقماش والرخام والبهارات. وفيما انهمك العمال في نقل الحمولة، جلست أستظل بشجرة صفصاف كبيرة، تناثرت أوراقها فوق سطح المياه الجارية. كان عليَّ أن أستذكر بعضا من دروس اليوم. حالة نشوة اعترتني، بفضل الهواء العليل الآت من الضفة الأخرى. لم أدر كم من الوقت مر، دون أن أشعر بذلك الرجل الذي كان يراقبني في صمت. كلما حاولت أن أعود لما أكتب، تذهب عيناي نحوه في فضول وارتياب....

كنت أتابع حركة العمال في المرفأ، حين انفلتت إحدى الحبال المسكة بالأجولة. حاول أحدهم أن يجعل من جسده مانعا لها ألا تسقط، ولكن الحمولة كانت أثقل من أن يتحملها، فأطاحت به

في الماء، قبل أن تسقط الأجولة تباعًا خلفه. تجمد العمال، وأخذوا يصيحون دون أن يتحرك أحدهم لإنقاذ رفيقهم، الذي لم يبرز من الماء. وجدت نفسي أخلع عباءتي في سرعة قافزًا.. أخذت أسبح تحت عيون الناظرين. لم يكن هناك أثر للرجل. غطست فاتحًا عيني محاولًا رؤيته في تلك المياه الضحلة.. كان شبحه يظهر على مقربة مني، يجاهد في فزع إزاحة أحد الأجولة عن ساقه. سبحت بقوة ناحيته، ورحت أزيح ذلك العائق عن قدمه. كان الموت يدنو منه في سكون عندما رفعت الجوال عن ساقه ساحبًا إياه لأعلى.. شهقات متتالية منه تنفس بها الصعداء، في نشوة عدم التصديق أنه مازال حيًا.

سحبته إلى المرفأ، ليساعدنا بعض رفاقه، وسط صيحات الفرح من المتفرجين. كنت أقف مبللًا، وسط عبارات الثناء، وأياد تربت على كتفي، عندما أخذ ذلك الرجل المهيب يدنو مني في بطء رصين. تظاهرت بالانشغال بملابسي، حتى وجدته يقف إلى جواري. كان في عقده الخامس، أصاب لحيته بعض الشيب المتناثر، ذا وجه دائري وحاجبين متناسقين، طويل القامة عريض الكتفين. كان يرتدي ثوبًا فضفاضا أزرق، متناسقا مع تلك العباءة البيضاء على كتفيه.. يبدو وكأنه أحد رجال الخاصة في البلاط الفاطمي، فشعار الدولة يتوسط حليه على صدره. لم أمنع نفسي من إجابته حينما سأل عن اسمي، فأجبته في بطء وأنا أعتدل لأواجهه:

- حسن.

كان يتابعني وأنا أرتدي ملابسي قائلًا:

- حسن.. بأي الأحياء تسكن؟

كان أمره عجيبا أن يسأل كل هذه الأسئلة، ولكن وجبت الإجابة:

- أنا دمشقي، أدرس بجامع عمرو بن العاص، وأسكن زقاق القناديل بالخان المخصص لطلبة العلم.

- أتدري يا حسن.. ليت طلاب العلم كلهم مثلك.

ذيل كلماته بابتسامة هادئة، بعثت بعض الطمأنينة في قلبي، فبادرته قائلًا:

- هل هناك شيء ما؟

ضحك قائلًا:

- لا يا بني؛ ولكن أثرت فضولي، فأنت هنا منذ ساعات تتصفح أوراقك، وترمق النيل بين الحين والآخر.. حتى إنقاذك للرجل كان غاية في النُبل. منذ متى وأنت بأرض مصر؟

أجبت في سرعة:

- أنا بمصر منذ شوال، مضى على وجودي هنا أربعة أشهر، فقد أرسلني أبي للفسطاط حتى أتتلمذ على أيدي علماء المسجد الجامع.. وقد كنت اكتب يوميات تحت تلك الشجرة، فأسجل كل ما يمر بيومي، حتى يقرأه أبي بعد أن أعود.

استدار الرجل، وولى وجهه شطر النيل وهو يقول:

- نِعم الأب هو يا حسن. أسمعت يومًا عن الجامع الأزهر؟

- سمعت عنه الكثير، لكني لم أزره. هو في القاهرة، وليس لي

أقارب هناك أو سبب يدعوني لزيارته، ولا أستطيع الذهاب بمفردي، كما أن لا وقت لدي و.....

التفت إليَّ بهدوء قائلًا:

- إذا اعتبر هذه دعوة مني لك. سأكون بانتظارك الخميس القادم قبل الظهيرة على باب الفرج. تفضل، هذا هو زاد الرحلة.

وسط ذهولي وعدم فهمي لما يحدث أخرج الرجل جراب نقوده ورمى لي بدينار ذهبي، تلقفته لأتأمل نقوشه الدقيقة وختم الخليفة «المستنصر بالله» الذي يتوسطه... رفعت عيني، لأجده قد ابتعد عني، سالكا طريقه إلى درج المرفأ، فناديته:

- سيدي؛ ما اسمك؟

لم أتلق إجابة، فقد كان يمتطي في تلك اللحظة صهوة جواده المزين، ومن خلفه فرقة من الحرس يتبعونه، بينما أخذ العامة يفسحون الطريق أمامه، والخيل تسرع فتسرع، حتى توارى عن الأنظار.

***

لم يترك لي ذلك الرجل سوى دينار، أصبح رفيقي في تلك الليالي الثلاث التي سبقت الخميس. أنتظر حتى يأتي الليل، ونخمد ضوء القنديل، ليعم الظلام الغرفة الضيقة، لا يزعجني سوى صوت شهيق وزفير محمود، الذي قررت أن أوقظه لأقص عليه ما حدث. أضأت القنديل مرة أخرى، وأخذت أحاول إيقاظ ذلك العملاق دون جدوى، فما كان إلا أن أتيت بقدر صغير من الماء، صببته صبًا على رأسه، لينتفض فزعًا وهو يصرخ. انتابتني نوبة من الضحك،

لأتفاجأ به يجثم فوق صدري ويصيح قائلًا:

- سأقتلك أيها الدمشقي.. سأقتلك يا حسن!

بصعوبة جاهدت أن أتنفس، وأن أتوقف عن الضحك محاولًا أن أقول شيئا، ولكن لم أستطع إلا أن أزيد في الضحك، ليتراجع محمود وهو يقول:

- سأشكوك غدًا إلى شيخنا.

نهضت، وأنا أبرز له الدينار الذهبي، الذي سلب عينيه ببريقه المتأثر بضوء القنديل القريب. كان محمود متجمدا فاغرا فاه محدقًا بذهول، قائلًا وهو في تلك الحالة:

- من أين جئت به؟ أسرقته؟

أخفضت الدينار، لينتفض محمود كأنما أفاق من مس أصابه وهو يعيد عليَّ ما قاله: «أسرقته»؟

استطاع أن يثير غضبي حينما كررها، فاستدرت قائلًا:

- لن أسرق ولو مت جوعًا.. تذكر هذا يا محمود.

جلس محمود على طرف فراشه وهو يجفف شعره ووجهه قائلًا:

- إذن كيف حصلت على ذلك الدينار؟

جلست أمامه وأنا أقول:

- عدني أولًا أنك لن تخبر أحدا.. حتى شيخنا عبد الرحيم.

أومأ محمود برأسه، الذي يكاد يتحرك فوق تلك الرقبة السمينة، قبل أن يقول:

- أعدك.. ما سر ذلك الدينار؟

جلس محمود منصتًا لقصتي، وما حدث بالمرفأ اليوم. ليلة قضاها محمود في الثرثرة عن القاهرة، وتلك القصص التي يسمعها عنها.. حكايات أودت بي إلى نوم عميق.

***

أصوات كثيرة متداخلة بين طرقات الحدادين ونداء الباعة، الزحام في كل مكان، لا أعلم أين أنا.. الحرارة مرتفعة، والوجوه متعرقة.. لا أعلم لماذا ينظرون إليَّ هكذا، أعينهم توحي بشيء غريب! عليَّ الركض والخروج بأقصى سرعة من هذا المكان الغريب. صوت الرنين اخترق أذنيَّ... نعم، إنه الدينار، لقد فقدته. التفت بسرعة، كان بين الجموع يضيء ويتوهج.. سأعود لألتقطه.

مددت يدي محاولًا الإمساك به...

ولكن يدا أخرى أمسكت بي.

لم يكن هذا سوى حلم صباحي انتابني ولم أفهم معناه. استيقظت، لأجد محمود جالسًا على طرف الفراش، ممسكًا بالدينار يقلبه في صمت، فسألته بعينين تجاهدان الضوء:

- ماذا تفعل يا محمود؟

نظر إليَّ مبتسمًا:

- أتعلم كم رغيف خبز وكم قدر عسل نستطيع شراءهم بذلك الدينار؟!

انتفضت بسرعة واختطفته من يده قائلًا:

- لا، سيبقى هذا الدينار معي حتى نحتاجه. نحن غرباء هنا، وسينفعنا بالمستقبل... هيا لنذهب لموعدنا.

ببلاهة سأل محمود:

- أي موعد هذا؟ ألن نذهب للمسجـ.....

قاطعته وأنا أصب على رأسي الماء:

- محمود، ستأتي معي. لن نناقش الأمر مرة أخرى.

في تململ قال محمود:

هل سيكون هناك طعام؟

لم يكن عليَّ أن أجيبه. أكملت ارتداء ملابسي، اخترت النظيفة منها، وضبت الحقيبة التي لا تفارقني، وما إن انتهيت حتى وجدت محمودا مازال يجاهد في ارتداء سرواله، وجاء صوت عقلي يحثني على تركه والذهاب بمفردي، فالتفت إليه قائلًا:

- سأنتظرك خارج المنزل؛ أسرع يا محمود.

صرخ محمود بعد أن أغلقت الباب:

- انتظرني لقد انتهيت.

دقائق قضيتها أمام المنزل أداعب بعض الأحجار بقدمي، عندما مرت عليَّ جارتنا «فاطمة». توقفت، وألقت السلام عليَّ قبل أن تسألني عن أي شخص يدعى محمدا. ولما سألتها لماذا، قالت إنها رزقت بمولود، وعليها أن تأخذ دينارا من خمسة أشخاص يدعون محمدا. لم أفهم ما تقصده، فسألتها عن تفسير، فأجابت أنها كلما ولدت

طفلا يتوفاه الله، وأشار عليها أحد العارفين بالله -هكذا أسمتهم- أن تأخذ دينارا من خمسة أشخاص يسمون محمدا، وتذهب بالدنانير إلى الحداد، ليصنع منهم تميمة تضعها على ظهر المولود لأيام، حتى يبقى على قيد الحياة.

وعدتها أن أساعدها، بينما كنت في قرارة نفسي أشفق عليها، فهي لا تريد من الحياة سوى طفل يؤنس حياتها هي وزوجها. ودعتني بعدما أمطرتني بالدعاء، ووعدتني أن تعد لي طبقا شهيا حينما أعود. لم يمض على ذهابها سوى بضع لحظات، حتى وجدت محمود يقف على الباب قائلًا:

- لو علم الشيخ عبد الرحيم بذهابنا للقاهرة سيغضب.

أشحت بوجهي قائلًا:

- إن تأخرنا، فلن يذوق فمك خبز العسل طوال اليوم.

كان هذا سببا كافيا لأن أجعله يهرول خلفي، لنمضي في طريقنا نحو قاهرة المعز.

***

كان الفضول هو ما يحركني نحو المجهول. لم أزر القاهرة مطلقًا.. سمعت عنها الكثير، ورأيت أسوارها من مئذنة المسجد. كانت على مسافة ليست بالقريبة في الشمال الشرقي من الفسطاط. قال لي شيخي عبد الرحيم:

- القاهرة هي مساكن الخاصة والحاشية الفاطمية... كما أن ذلك المسجد الكبير الأزهر هو لشعائر العبيديين الشيعة.

إنها المدينة المحرمة التي يجب أن أتعرف على خباياها، لا يدخلها الغرباء إلا بتصاريح خاصة من ديوان الخليفة الفاطمي «المستنصر». خرجنا من الفسطاط نحو القاهرة، التي تبعد عدة فراسخ، فقد كانت تلوح في الأفق أسفل الجبل. كان كل شيء جديدا في نظري.. المنازل على تلك الطريق الممهدة، وكثير من النخيل تتناثر على جنباتها.. كانت تمر بجانبنا القوافل الخارجة من العاصمة.. الحر لفح وجوهنا، وكأن الشمس تعاقبنا على الخروج في هذا الوقت. لم يكن محمود بأفضل حال مني، فقد كان يظهر عليه التعب. لم نتوقف سوى عند ماء السبيل، ارتوينا وأكملنا المسير. كلما مرت الدقائق، اقتربت منا القاهرة بأسوارها وأبراجها، لتظهر لنا ضآلة حجمنا بجوارها. وأخيرًا، وصلنا إلى «باب الفرج» ببرجيه العظيمين، وتلك الرايات الخضراء الخفاقة، والأخرى المنسدلة على البوابة المفتوحة على مصراعيها، في حراسة الجند الأشداء الذين راحت أعينهم تتفحص الناس، بينما وقف آخرون يفتشون إحدى الإبل الداخلة إلى المدينة. بحثت بنظري عن ذلك الرجل صاحب الدينار، ولكن لم أفلح في مسعاي.

استدرت لأتحدث مع محمود، الذي جلس بجوار الباب يكاد يغشى عليه من فرط الإجهاد، توجهت نحوه قائلًا بأسى:

- يبدو أننا تأخرنا.

لم أكد أنهي كلماتي، حتى وجدت حالة من الهرج تعم المكان، واندفع الجند يفسحون الطريق لذلك الموكب الصغير، الذي ما إن رأيت صاحبه حتى تقافزت بين الجموع مناديًا:

- سيدي، إنه أنا حسن الدمشقي...

ضاعت محاولاتي دون جدوى. كان عليَّ أن أتملص من بين الحشود، وبالفعل استطعت النفاذ من بين الأجساد المتحجرة، لأجد نفسي في منتصف الطريق أمام الجواد الضخم الذي كان يركبه صاحب الدينار، وقد أمسك لجامه بقوة جعلت الوحش الجامح يتوقف قبل أن يرتطم بي، أمام العيون الذاهلة. لم أنشغل بصيحات الهجاء من الناس، بقدر ما تعجبت من ضحكات صاحب الدينار حين قال بثقة:

- كنت أعلم أنك ستأتي يا حسن.

***

القاهرة...

كثيرًا ما سمعت الناس تتحدث عن روعتها وجمالها، ولكن ما رأيته كان يفوق الوصف. منذ دخولنا من باب الفرج، أحسست بأن الزمان والمكان قد تبدلا؛ فشوارع القاهرة وحواريها ليست كالفسطاط. بدت هذه مُتعرجة مضلعة، عامرة بالقباب والمآذن، تتفرع منها أزقة صغيرة ضَيقة، مُبلطة بالحَجر، يَصعُب في بعضها أن يَمُر رَجُلان بجوار بَعضهما، وكان جَمل بحمُولته كَفيلا بعرقلة الحَركة بالشارع. المَنازل مُتقاربة، حتى تكاد الأسطُح تتلاصق، جَانبا الزُقاق الضَيق يَتكون مِن جُدران هَذه المنازل. تَمتد الحُصر مِن سَطح إلى سَطح، لتغمُر المَارة بظِلالها. صَحيح أن ضِيق الشوارع في مدينة كالقاهرة يُسبب بَعض المَشقة، لكني أحسست فيها ببرُودة مُنعشة،

لتبق مِن تَيار الهَواء البارد الذي يَمر بَين البيوت ذات الخطوط البنية والصفراء، تتسلقها بعض النباتات الخضراء لتضيف رونقًا على تلك النوافذ الخشبية المنمقة. الزينة في كل مكان، وشرائط ملونة تعبر سماء الطريق.

لم أكن أعرف إلى أين نسير، ولم أكن أتبع سوى خطوات ذلك النبيل ذي الجواد الأصيل. كان كل شيء مختلفا: ملابس الناس، والإبل ذات الهودج المزين.. الخانات ونزلائها من التجار العجم والعرب. حتى وصلنا أخيرا لساحة المسجد الأزهر، برز بقبابه ومآذنه العالية التي ترتفع لتهيمن على مشهد الجبل الكبير في الخلفية. وكأن قبضات متتالية هوت على قلبي، الذي كان مبهورًا بتلك العمارة.....

- أأعجبتك القاهرة؟!

لم أكد ألتفت لأجيب، حتى وجدت محمود يقول في سرعة:

- إنها رائعة و....

لم يكمل كلماته، فقاطعه الرجل موجهًا حديثه لي:

- يا حسن، أرى أن القاهرة سلبت عقلك.

لم أنطق، فقد استحوذت القاهرة على عقلي بالفعل. لم أبال بالجو الحار الخانق، وتلك الرياح الخفيفة ذات الغبار الآتي من ناحية الجبل. أكملنا طريقنا عبر ممر يخترق بساتين شاسعة، يحتل منتصفها «القصر الشرقي».. قصر الحكم الفاطمي.

لم نكد نقترب من الأسوار ذات الرايات الخضراء، حتى سارعت الخطى لأسير بجوار الجواد المتهادي قائلًا:

- سيدي، لم أعرف اسمك إلى الآن.

ضحك دون أن يلتفت إليَّ قائلًا:

- أنا الوزير جعفر بن رجب الماوردي..

كنت أتوقع أنه ذو شأن؛ لكن لم يخطر بعقلي أنه الوزير الأكبر.. تجاوزت المفاجأة، وسألته مرة أخرى:

- لماذا دعوتني للقاهرة؟

أوقف فرسه، وأمال رأسه نحوى قائلًا:

- ولماذا قبلت أنت دعوتي للقاهرة؟

لم أجب... فأكمل هو بصوت هادئ:

- سيكون لك شأن يا حسن... منذ رأيتك تستذكر دروسك تحت تلك الشجرة وأنا أعلم أنك ستكون ذا شأن. كان على أن آتي بك إلى القاهرة..

صمت لحظات، وكز بعدها الحصان، ليكمل السير ويقول دون أن يلتفت إليّ:

- عليك أن تختار بين الفسطاط والقاهرة....

فهمت ما يقصد.. إذا اخترت الفسطاط فسأظل هناك حتى أرحل الشام، وأكون قد تتلمذت ودرست المذهب السني.. وإن اخترت القاهرة، فسأكون أحد رجال الخاصة في المذهب الشيعي، وأملك من الدنيا ما شئت. قد أتتني الدنيا، فهل أقبل عليها أم..

قطع شرودي صوت محمود، الذي سألني: لماذا توقفت؟

تبادلنا النظرات، ولم أجبه، فقد كان عقلي يسبح في عالم آخر.. عالم قد أكون فيه عالمًا فقيهًا مقربًا من البلاط العبيدي.. أو أكون وزيرًا في يوم من الأيام!

الحيرة تقتلني..

و عليَّ أن أختار..

***

قضيت اليوم برفقة الوزير «جعفر بن رجب الماوردي». عرفني أكثر على القاهرة وما تحويه من خبايا. ذهبنا سويًا إلى حلقة من حلقات الذكر. كان الجو صاخبا، أناس تلبس ملابس بيضاء ذات أوشحة خضراء، يحملون الدفوف ويتمايلون وسط سحابة من البخور ذي الرائحة النفاذة. آخرون يضربون صدورهم بكلتا يديهم في قسوة. المشهد لم يكن إيمانيًا، بقدر ما هو جنوني. أصابني الدوار، فجلست تحت أحد الأعمدة، بينما كان «محمود» يندس بين الصفوف محاولًا تقليدهم في التأرجح يمينًا ويسارًا. لم أكن أفهم تلك الطريقة في العبادة، لذا قررت ترك ذلك المكان. كان عليَّ أن أعرف كل شيء عن تلك المدينة، ورؤية القاهرة من الأعلى. لم تمض دقائق، حتى كنت أصعد الدرج الخشبي المؤدي لسطح المبني في سرعة. لفحات هواء باردة نسبيًا عن ذلك الجو المختنق بالأسفل...

إنهما عالمان مختلفان: «الفسطاط» بعراقتها وأصالة أهلها وبساطة العيش، والقاهرة بقصورها وبساتينها النضرة التي تسر الناظرين. اختطفني مشهد الشمس عندما بدأت تتواري خلف الحجاب، ناثرة

غبارها الأحمر السحري على المآذن الشاهقة وتلك الحدائق الصغيرة فوق أسطح المنازل. رأيت أبراج الحراسة وبعض الجنود يقفون على السور الضخم الذي يحفظ المدينة، ويجعل منها قاهرة منيعة على القاصي والداني. تستحق اسمها، فهي قاهرة في عيون أهل الفسطاط، تقهرهم بسلطتها ونفوذها ورغد أهلها من الخاصة. انتشلني الأذان الآتي من الجامع الأزهر. كان مختلفًا عن بقية الأصوات الآتية عبر الأفق..

أذان مختلف...

أذان شيعي!

عدت أدراجي، وكأن هناك شيئا يثقل صدري. أشعر بالاختناق والرغبة في البكاء، لا أعلم لماذا. أخذت أبحث عن محمود، حتى وجدته جالسًا بين حشد من الناس يأكلون قرب المسجد. ألقيت نظرة خاطفة على الوليمة التي تفيض بالإسراف، بينما كان الناس يأكلون كأنها المرة الأخيرة التي ستملأ فيها بطونهم. أشرت لمحمود، الذي وما إن رآني حتى صاح قائلًا والطعام يهرب من فمه:

- تعال يا حسن.... تعال لتأكل...

قالها، وأتبع كلماته بلقيمات متتابعة من مختلف الأصناف التي تجود بها الوليمة. كان الأمر أشبه بالافتراس. لوهلة، أحسست أني بعالم آخر.. رأيت هؤلاء الآدميين كسباع مفترسة تقتات! نفضت تلك الخيالات عن رأسي وأنا أسحب محمود من يده، لنرحل قبل أن تغلق بوابات المدينة علينا بعد أذان العشاء. كان عليَّ الرحيل عن هذه

المدينة. هناك شيء ما لا يرتاح له قلبي في هذه الأنحاء. ولكن عليَّ أولًا أن أشكر ضيفنا على حسن ضيافته. توجهنا إليَّ ناحية القصور، مررنا بشارع كبير بدت أرضيته بعناية، وعلقت المشاعل في جنباته، بينما كانت تحيط بنا قصور صغيرة رأيتها في جولة الصباح مع سيدي الوزير « الماوردي ». كانت بضع قصور، تعددت أشكالها وأسماؤها، فعلى أقصى اليمين بهو الذهب، الذي هو جزء خلفي من قصر الحريم، يجاوره قصر النسيم وقصر البحر، أما مقصدنا كان قصر الشوك حيث سكن الوزير.

بمجرد أن وصلنا قرب أبواب القصر، أوقفنا الحراس سائلين عن سبب مجيئنا، فأخبرته أني أريد مقابلة الوزير. تهكم أحدهم، بينما دخل الثاني ليخبر الوزير. دقائق مرت ونحن تحت أنظار الحارس المتهكم، الذي كان بين الحين والآخر يلقي النكات السيئة عن الأشخاص السمان، مما أثار غضب محمود، وحاول أن يرد عليَّ الحارس، لولا قدوم الآخر ليسمح لنا بالدخول. عبرنا البوابة ومحمود يزمجر، في محاولة منه لإخافة الحارس، الذي انفجر ضاحكًا، فما كان لي إلا أن سحبته لنسرع في الدخول لمقابلة سيدي «جعفر بن رجب الماوردي».

مررنا بحديقة القصر، ليستقبلنا الخادم ويقودنا عبر ردهة، مزينة جدرانها بكتابات ونقوش مختلفة. بينما نحن نمر إلى بهو الضيافة، رمقت فتاة تُنافس الزبرجد في جمالها.. ياقوتة تقف تداعب طاووسا زاهي الألوان، يقف على حوض يفيض بالمياه. أسرني ذلك المشهد، فلم أفق إلا ويد الحارس توكزني لأستمر بالمشي. التفتت هي ورأت ما يحدث، ليرتسم على وجهها فضول ممزوج بدهشة بادية. استمرينا

بالسير حتى وصلنا للبهو، وجدناه جالسًا متكئًا على فراش وثير زاهي الألوان، وأمامه مائدة عامرة بأصناف الفاكهة التي سلبت عقل محمود. رحب بنا الوزير قائلًا:

- هل أنهيتما جولتكما في القاهرة؟

أجبته في هدوء:

- نعم وعلينا أن نعود إلى الفسطاط...

اعتدل في جلسته وهو يلتقط حبات من العنب، التي تابعها محمود فاغرًا فاه وهي تدلف إلى فم الوزير الماوردي، الذي قال:

- أرى أن القاهرة لم تعجبك؟!

اضطُررت لإظهار ابتسامة مجاملة لأتبعها قائلًا:

- إنها جميلة بلا شك... ولكن علينا العودة، فغدًا الجمعة وعلينا أن نصلي بمسجد عمرو بن العاص، فبعد الصلاة لدينا الكثير من الدروس التي يجب أن نحضُرها....

توقفت عن الحديث عندما قاطعني وهو ينهض عن أريكته:

- ولماذا لا تبقون هنا، وتحضرون الصلاة بالجامع الأزهر، وننقل دروسكما إلى هنا؟

حاول محمود أن ينطق بشيء ما، ولكني وكزته خلسة ليصمت، بينما أجبت متعللًا بأن علينا أن نخبر شيخنا «عبد الرحيم» أولًا، كما أنه يتوجب علينا إذا أتينا أن نجمع أمتعتنا وكل أوراقنا من المنزل...

كانت ملامح وجهه توحي بأنه لم يصدق ما أقول:

- أنت صبي ذكي يا حسن، ولك حرية الاختيار. فمنذ رأيتك تستذكر دروسك تحت تلك الشجرة عند المرفأ، ثم إنقاذك للرجل في حين لم يتحرك أحد من العامة لإنقاذه، أعلم أنك نجيب العقل واسع الفهم صاحب شهامة ولا تترك ضعيفا في مأزق.

وضع يده على كتفي وهو يقودنا للخارج ويكمل حديثه:

- سأنتظركما، ولكن لا تتأخرا عن نهاية ربيع الثاني؛ فسوف أغادر القاهرة إلى القدس. إن قررت القدوم، فعليك أن تأتي قبل غرة جمادى الأولى.

وبينما نحن نسير عبر الأروقة، لمحتها مرة أخرى، ولكن عن قرب هذه المرة. صبية يافعة، عيناها سودوان، ووجهها حسن، يكاد الخمار الرقيق يظهر ملامحها جيدًا. كنت قد تركت عقلي لخيالات كثيرة، حينما توقف الوزير وهو يشير في غضب لها بأن تدخل إلى إحدى زوايا الرواق حتى نَمُر. اختفت هي ومن معها، توجهنا للباب، وبعض التساؤلات قد بدأت تراود عقلي...

***

كان الزهو يملؤني، حينما فُتحت لنا أبواب القاهرة خصيصًا لنخرج، ومعنا ست من الحراس. امتطينا بغلة قوية كانت للوزير، بينما سار حولنا الحرس، ومحمود يضحك ويقول:

- لو علم أبي أن ابنه فُتحت له أبواب القاهرة ويحميه حراس الوزير.. لسقط ميتًا من الفرح.

تَبسمتُ له، وتركت جسدي يستريح من مشقة اليوم الطويل، بينما

راحت أحداث اليوم تتوالى في السماء المرصعة بالنجوم، حتى رحت في نوم عميق.

تسلل ضوء الشمس عبر فتحات النافذة، ليلفح وجهي، وتداعب الأشعة عينيَّ. فتحتهما في تهالك، لأجد نفسي على فراشي داخل الغرفة الصغيرة. لوهلة حسبت أنني كنت أحلم بالقاهرة وشوارعها وما حدث في الليلة الفائتة.. وقبل أن أستوعب الأمر، وجدت محمود يأتي عبر الباب باسمًا قائلًا:

- استيقظت أخيرًا!.. لقد ظننتك مِت، فقد حملك الحراس إلى الفراش ولم تستيقظ...

نهضت عن الفراش وأنا أقول له:

- كم من الوقت بقي على صلاة الجمعة؟

أجاب محمود وهو يوليني ظهره:

- لم يبق سوى الأذان الثاني هيـ.....

لم يكد ينهى جملته، حتى هرولت إلى خارج الغرفة.. اغتسلت في وقت قياسي، ورحت أرتدي ملابسي النظيفة، عندما لاحظت أن محمود ليس بالمكان. سرعان ما أتى صوته من أسفل المنزل صائحًا:

- سنتأخر يا حسن عن الصلاة... سأذهب ولتلحق بي.

تبًا لذلك السمين، دومًا أنتظره، والآن لا يريد الانتظار. ركضت خارج المنزل، كان زقاق القناديل خاليًا من المارة، ولا يوجد أي أثر لمحمود. قابلت في طريقي الست «فاطمة» تحمل رضيعها، وفى طريقها إلى سبيل الماء. حاولت أن أمر دون أن تراني، ولكني لم أفلح. لم أدع لها

فرصة للتطرق في حديث يؤخرني عن صلاة الجمعة، أخفضت رأسي وأنا أحث الخطا قائلًا:

- السلام عليكم ورحمه الله.

تجاوزتها لتقول هي:

- وعليكم السلام يا حسن أريد منك معروفًا....

أجبتها دون أن ألتفت:

- بعد الصلاة يا خالة، فقد تأخرت عن موعد الصلاة.

كنت أعلم أنها تريد الحديث عن كل البدع التي انتشرت بين الناس، وصاروا يفعلون كما يفعل أهل القاهرة العبيديين، فكلما استوقفتني كانت تتحدث عن أضرحة الأولياء، وكرامات آل البيت.. تتحدث عن تمائم الحفظ من الشياطين، وعن جلسات الذكر العامرة بالصخب، وعن وعن وعن.. أجواء غريبة، ليس بالشام مثلها، وليس للإسلام بمثلها. أخيرًا، وجدت نفسي أمر بين صفوف المصلين، حيث ترك أغلبهم صحن الصلاة إلى ظلال الأسقف المحيطة بساحة مسجد بن العاص. استطعت أن أجد مكاني بين الصفوف، ولم تمر سوى دقائق، صَدَع بعدها المنبر وبدأت الخطبة، عندما لمحت محمود يجلس تحت أحد الأعمدة مستندًا إليه، وقد راح يغط في النوم.

***

قُضيت الصلاة، وانفض الناس للأسواق وأعمالهم، بينما بقيت في المسجد بضع حلقات من الناس يتبادلون الحديث، وعلى مسافة منهم بالجانب الشرقي من المسجد، كان طلاب العلم يتوافدون إلى حيث

يجلس مشايخهم. ولكن شيخي عبد الرحيم لم يكن من بينهم.. بحثت بعينيي في أرجاء المسجد عنه، فوجدته يعبر صحن المسجد المكسو بشمس الظهيرة. كان معه شخص تبدو عليه مظاهر الثراء، يرفل في عباءته القرمزية ذات المخمل الهندي، تتعدى الثلاثة دنانير ذهبية. كان كث اللحية، يبدو عليه الصلاح، ذا عمامة متينة البنيان. اقتربت منهما، وما إن رآني شيخي، حتى أومأ برأسه وقد عقد حاجبيه. كنت أعلم أنه سيسألني عن سبب غيابي بالأمس؛ هل عليَّ أن أقول الحقيقة، أم أكذب؟!!

وما إن أصبحت على قرب خطوات منهم، قال الشيخ «عبد الرحيم»:

- كيف كان يومك أمس يا حسن؟

وكأن صيبًا من السماء هبط فوق رأسي، تلعثمت وأنا أقف أمامهما مخفضًا عيني في تبجيل قائلًا:

- السلام عليكم....

ردا السلام، ليقول شيخي محدثًا صاحب البهاء:

- حسن من أنجب تلاميذي... إنه دمشقي.

أومأ الرجل رأسه، واكتسى وجهه بابتسامة، ليقول بعدها:

- من أي مكان بدمشق؟

أجبت على الفور:

- بالقصاع قرب باب توما.

زادت ابتسامة الرجل وهو يقول:

- إذا عدت يومًا لدمشق، فستجدني بسوق الحميدية. فقط اسأل عن «محيي الدين الحمصي».

ما إن أنهى كلماته الأخيرة، حتى رمقني شيخي بنظرة صارمة، فهمت مقصدها، فاستأذنت وذهبت لأجلس بين بقية الطلاب، ومحمود يبادلني النظرات، وكأنه يقول ماذا سنقول وستتحجج بالغياب أمس؟

وعاد السؤال يطرق رأسي....

الكذب؟

أم الصدق؟

***

الكذب وإن طال أمده فسينكشف يوما ما، وإن لم ينكشف في الحياة فهناك يوم مقداره خمسين ألف سنة، سأقف فيه أمام الله، وسيكون كل شيء علانية أمام الخلائق. لم يكن أمامي سوى اختيار طريق وعر، فهو أقصر الطرق للنجاة..

الصدق، ولا شيء سوى الصدق.

بعد أن أنهينا الدرس، طلب شيخي الجليل أن أبقى أنا ومحمود. وقفنا قرب الساحة، وما هي إلا دقائق حتى انتهى فيها الشيخ من تفسير بعض الأمور لأحد الطلاب، وانصرف الجميع، ولم يبق سواي أنا ومحمود، الذي كان بين الحين والآخر ينظر إليَّ ويهمس:

- ستتحمل وحدك العقاب.. أنت من أخذتني معك.

جلس الشيخ مسندًا ظهره إلى العمود الرخامي. أخذ يتفحص وجهينا بصمت، قبل أن يقول:

- ماذا كنتم تفعلون في القاهرة؟

امتقع وجهي، وراح قلبي يصرخ من سرعة ضرباته المتلاحقة، بينما كانت أنهار العرق تنساب من جبيني، فهو يعلم أني كنت بالقاهرة. لقد اختصر كل الطرق نحو الطريق الوعر. لا أعلم لماذا حاصرني الخوف هكذا، فقبل قليل اخترت الصدق؛ أم أنني كنت سأكذب؟! ولكن كيف علم بأننا كنا هناك؟!

وجاءت الإجابة حينما قال شيخنا:

- لقد قص عليَّ «محمود» كل شيء يا حسن، فلا داعي للكذب.

أجبت في تلقائية:

- لم أكن لأكذب يا سيدي.

قلتها وبداخلي بركان من الغضب يكبت حممه عن ذلك الواشي السمين. جاء صوت الشيخ عبد الرحيم لينتشلني من الحميم المستعر بداخلي:

- حسن، سأقول لك شيئا، وعليك أن تعيه جيدًا. إن الصحبة والرفقة الطيبة تجلب لك الخير وتقربك من الله، ليفتح عليك ويمن بفضله ونعمه عليك. وصحبة السوء تجلب الوباء والخراب، وعذاب الله واقع عليهم لا محالة. كذلك ينطبق الأمر على المجتمع والحي الذي تعيش فيه، فإن كان الوسط المحيط بك طيبًا، يتحلى بمكارم الأخلاق

والفضائل، فستكون كذلك.. وإن كان عكس ذلك، فالنهاية محتومة. عليك أن تختار يا ولدي، فالإنسان قد يتأثر بما يحيط به، ويضعف الإيمان ويقوى بسبب ما حوله من فتن، فنحن في هذه الدنيا نُخير.

كانت كلماته قوية وهو يكمل:

- إن العبيديين يفتنون الناس بمظاهر البذخ التي يعيشون بها. يستدرجون الناس رويدًا نحو مذهبهم الإسماعيلي الشيعي، وترك المذهب السني، يبدلون ما أنزل على محمد صلي الله عليه وسلم، ويقدسون عليَّ رضى الله عنه، وهو منهم براء. نشروا البدع والضلالات والخرافات بين الناس، وأصبح الناس بعيدين عن أمر الله. سأخبركما سرًا، ولا تقولا لأحد.....

صمت لحظات، انتظر فيها مرور أحد الأئمة، والذي ألقى السلام ورده سيدنا. ما إن تأكد من خلو المكان حتى قال:

- قريبًا سينتهي حكم العبيديين عن دمشق والشام كلها...

لم يستوعب محمود الأمر، فأخذ ينظر لشيخنا في بلادة واضحة على وجهه. أما أنا، فقد فهمت في تلك اللحظة سبب اجتماعه مع ذلك الرجل «الحمصي». كان كل شيء يدور في عقلي بحثًا عن إجابة لسؤال واحد.. ماذا سيكون رد فعل المستنصر؟

يبدو أن سؤالي بطريقة ما تجاوز عقلي إلى شيخي «عبد الرحيم» الذي قال بهدوء ورصانة:

- إن المستنصر ضعيف للغاية، تتحكم فيه مجموعة من الأوغاد والرعاع والأراذل. كلما سقط، ساعدته أمه وقومته. أصبح الأمر في

يدها منذ فترة من الزمن، وما إن رحلت، حتى أخذ يولي من الوزراء من لا يهتمون سوى بأنفسهم، ينهبون الخيرات ويدبرون المكائد لبعضهم البعض. أتعلمون أنه كل شهر تقريبًا يأتي وزير جديد؟..

هنا تبادر إلى ذهني الوزير الأكبر «جعفر الماوردي»، احتلت صورته وهو يتكئ على الفراش الوثير، ومائدته العامرة بما لذ وطاب من الفاكهة. بينما أنا على هذا الحال، قال محمود مقاطعًا شيخنا:

- نحن نعرف الوزير الأكبر، وذهبنا إلى قصره المنيف يا شيخي؛ كما ذكرت لك قبل قليل.

أومأ الشيخ «عبد الرحيم»، وقال وهو يرمقني بنظرات ثاقبة:

- ليس عليكما الذهاب لهناك مرة أخرى، فهو -والله تعالى أعلم بما في النفوس- لو يضمر شيئًا لكما.....

قاطعه محمود بعفوية:

- أقسم أني لن أخطو تلك المدينة المسماة القاهرة مرة أخرى.

ضحك شيخي، وكذلك فعلت. قضينا بعض الوقت معه، حتى جاء أذان المغرب. أنهينا صلاتنا، وعدنا إلى المنزل، وطوال الطريق «محمود» يثرثر ويبرر وشايته....

***

شهر مر في رتابة، قضيته بين زقاق القناديل والجامع الكبير، أستذكر دروسي وأحضر حلقات العلم، حتى تناسيت القاهرة وبهاءها. لكن جعبة تلك الأيام حوت العديد من المواقف التي حدثت، جعلتني أصدق أكثر وأكثر كلام شيخي عن الوزراء وقادة العسكر، الذين

راحوا يفرضون المزيد من الضرائب على كل من الفسطاط والقطائع بصفة خاصة.

يتحدث الناس عن فتنة بين عسكر الخليفة المستنصر. ففي يوم الأربعاء الماضي، قُتل نفر من البربر على يد الجنود الأتراك، قرب سوق النحاسين. انهالت عليه السيوف دون شفقة أو رحمة، والأعجب من ذلك أن الناس كانوا يشاهدون دون أن ينطق أحدهم لينكر الأمر، بل قام بعضهم بإبداء الإعجاب بما فعله الجند التركي بذلك البربري، بينما سار البقية في لامبالاة. لم يستوعب عقلي ما يفعله الناس وكيف أصبحوا! لم يمض يوم آخر، حتى قُتل أحد الجند الأتراك، وعلق رأسه قرب سبيل الربض. بالطبع، كانت أصابع الاتهام تتجه إلى الجند البربر. وكأن حوادث القتل أصبحت عادية بحياة الناس!..

اليوم، مررت لأعطي الست «فاطمة» بعضًا من زيت الزيتون الذي أهداني إياه التاجر الحمصي، فأنا كما يقول «جاره الشامي».

طرقت الباب ثلاثًا، فجاء صوتها:

- من بالباب.

أجبت على الفور:

- إنه أنا يا خالة.. حسن. لقد جئت لك بهدية.

انتظرت قليلًا، قبل أن تفتح الباب وهي تحمل ذلك الرضيع الذي لا ينفصل عنها، حتى لتحس أنه ملتصق بها. رحبت بي قائلة في شغف:

- ما تلك الهدية يا حسن؟

أخرجت من جعبتي قنينة صغيرة أغلقت بإحكام، اختطفتها من يدي ورفعتها أمام عينيها، لتتوهج القنينة الزجاجية تحت ضوء الشمس. رفعت نقابها قليلًا بعد ذلك، لتشتم الغطاء من الخارج:

- زيت الزيتون النقي... نعم الجار أنت يا حسن.

ضحكت من مظهرها وعيناها تدققان النظر في القنينة، قبل أن تقربها من أنفها لتشمها، فقلت لها:

- أعطني الصغير حتى يتسنى لك فتحها...

تحولت نظراتها إليَّ للعدائية وهي تقول:

- لا، لا داعي لذلك..

يبدو أنني أزعجتها بطلبي حمل الصغير. نعم، إنه طفلها الرابع والناجي الوحيد بعد ثلاثة ماتوا في المهد، وتخاف أن تفقده هو الآخر. ودعتها، ومضيت في طريقي لملاقاة محمود، الذي كان ينتظرني قرب باب المدينة. علينا الذهاب للسؤال عن شيخنا في حي القطائع، فقد تغيب ليومين عن الحضور للدرس.

***

خرجنا من بوابة المدينة، المزدحمة بأناس كل في عالمه. وجوه تحمل كثيرا من الأسرار، لكن القاسم المشترك بين الجميع هو الشحوب، الذي سرعان ما عرفت سببه.. ففي الخارج، كانت هناك معركة صغيرة بين فصيلي الجنود -الأتراك والبربر- اخترق مسامعي صوت أحد الرجال، الذي تبدو هيئته كأحد كبار التجار وهو يقول:

- إن ظل هذا الوضع كما هو فسيكون القادم أسوأ.....

توقفت، في محاولة لسماع المزيد من الحديث، وقد أكمل ذلك الرجل لمحدثه:

- إن صوامع الغلال أصابها السوس....

لم أفهم بقية حديثهما، وعن أي صوامع يتحدثون. أكملت طريقي وأنا أناوش محمود بين الحين والآخر، حينها رأيتها تطل من بعيد، بأسوارها الصفراء العالية، ومآذنها التي تعانق السماء.. «القاهرة».. شيء ما وكز قلبي لأكمل السير، ولكنها ظلت ترمقني؛ أو هكذا خُيل إلي. لا أعلم لماذا تحتل القاهرة الجزء الأكبر من أفكاري! انتشلني صوت محمود وهو يقول:

- حسن.. وبعد أن ندخل القطائع، ماذا سنفعل؟.. نحن لا نعرف منزل سيدنا «عبد الرحيم»، و.....

أجبته في رتابة:

- سنسأل أي أحد قرب مسجد بن طولون، فشيخنا من أهل العلم، ولن يخفى على أهل المدينة.

مضينا في طريقنا، والشمس تلفح وجوهنا. ما بال هذه البلاد لا يوجد بها نسمات طيبة؛ أبتلاها الله بالحرارة دون غيرها؟!! بعد دقائق من المسير، أطلت علينا القطائع بمئذنة مؤسسها. مئذنة مسجد بن طولون فريدة هي ومختلفة. حتى أسوار القطائع، لا تشبه تلك التي تحيط بالفسطاط ومثيلتها في المدينة المحرمة «القاهرة». عبرنا بوابات القطائع المهملة، فقد كانت القطائع أقرب إلى ثكنة عسكرية قديمة، لم يتم تطويرها، أزقتها ضيقة، وبنيت أغلب منازلها من الطين، حتى

أهلها ترى أثر البساطة في ملابسهم، وكأنهم من طبقة أدنى من تلك التي تسكن الفسطاط.

جلس «محمود» ليستريح قرب حوض ماء تجمع حوله السقاة وإبل المياه القادمة من النهر. إنه مركز تجمع للسقاة، يحملون القِرب ويتسامرون. قررت أن أسأل أحدهم، فهم أعلم الناس بالمدينة وأهلها، وبالفعل تقدمت لأحدث أكبرهم سنًا. كان وقورًا برغم ملابسه الرثة وبشرته التي تبدو أنها اكتست سمرة من شمس البلاد التي لا تغيب. ما إن رآني أتقدم نحوه، حتى ابتسم وتنحى جانبًا يظن أني أقصد البئر. بادلته الابتسامة وأنا أقول:

- السلام عليكم....

رد السلام، وعلى وجهه برزت كثير من الأسئلة، فكان دوري في الحديث:

- أريد أن أسأل عن منزل الشيخ الإمام «عبد الرحيم البـ......

قاطعني:

- ومن لا يعرف الشيخ الجليل «عبد الرحيم البازوري»؟ أأنت أحد تلامذته؟

أومأت برأسي قائلًا:

- نعم... وكنت أريد أن أصل لمنزله، فقد تغيب ليومين عن الحضور للمسجد وللدروس.

بدت ملامح الأسى على وجه السقَّا وهو يقول:

- نعم يا بني، إنه مريض؛ فقد زودته أمس بالماء وكان يزوره بعض

الأعيان.... اتبعني، سأدلك على المنزل.

ناديت على «محمود»، الذي نهض في تملل والسقَّا يقول:

- أذلك السمين معك؟

ابتسمت وقلت:

- إنه صديقي؛ ولكن يكره كلمة «سمين».

نطقتها في خفوت، فتجلى أثرها على وجه الرجل الذي كان محمود يرمقه قائلًا:

- إلى أين نحن ذاهبون؟

قال الرجل، وهو يحاول كسر ذلك الحاجز بينه وبين محمود:

- سأدلكم على منزل شيخكم.

قادنا الرجل عبر الحارات المتشابكة، التي اكتست طرقاتها بظلال المنازل وبعض أشجار تنبت بجوار كل باب، والأطفال فيها يركضون خلف إحدى العنزات، بينما وقفت بعض النساء يتوارين بحجابهن عنا وهن يتأملن هيئتنا، في حين يسير أمامنا السقَّا حاملا قربته، ملقيًا السلام على كل من يقابله. كان اسمه «عبد القادر السقَّا». وأخيرًا توقف ليلتفت قائلًا:

- لقد وصلنا.....

أتم كلمته وهو يشير إلى باب المنزل المجاور له..

***

طرقات متتالية من «عبد القادر» على الباب العتيق، استجاب لها صوت أنثوي من الداخل قائلًا:

- من بالخارج؟

قال «عبد القادر» وهو ينظر لنا:

- إنه أنا عبد القادر السقَّا.... ومعي تلامذة سيدي «عبدالرحيم»..

قالت صاحبة الصوت:

- انتظروا لحظات...

وما هي إلا بضع دقائق، حتى كان الباب يفتح، ويظهر بالباب شيخنا يستند على عصا غليظة. بدا وجهه شاحبا، رغم ابتسامته لرؤيتنا.. دعانا للدخول، وهو ينهال علينا بعبارات الترحاب. اعتذر «عبد القادر» متعللًا بعمله، لندخل بعد ذلك أنا ومحمود إلى منزل شيخنا. كان بسيطا للغاية، غرفتين وساحة تتوسطها شجرة توت، تنتشر حولها بضع دجاجات. تبعنا شيخنا إلى غرفة كبيرة تحوي أثاثا خشبيا بسيطا، بينما تفترش الأرض حصيرة كبيرة من الخوص، وعلق على جدارها الأوسط رقعة من الجلد كتب عليها:

«وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ اللهَ بَالِغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا»

ما إن دخلنا الغرفة، حتى استأذن شيخنا قائلًا:

- سأعود

تركنا بالغرفة، ليخرج في تهالك. سمعناه ينادي قائلًا:

- يا مريمة.... جهزي الغداء.

ليتمتم محمود في خفوت:

- أي طعام لن يكون بجودة ما تلذذت به في القاهرة....

رمقته بغضب وأنا أقول:

- محمود، ألا تكف عن الهُراء؟

صمت محمود، وأخذ ينظر لي بتوجس، لنسمع صوت الباب يفتح، ويدلف شيخنا «عبد الرحيم»، والذي لم تفارق وجهه ابتسامته المرهقة قائلًا:

- كيف حالكما يا ولداي؟

قلنا في صوت واحد:

- بخير نحمد الله..

ضحك وهو ينظر إلى «محمود»:

- لا تقلق يا محمود، فعندنا من الطعام ما لذ وطاب، سيعجبك ما تطبخه زوجتي مريمة.

ضحك محمود خجلًا، بينما جلس شيخنا قائلًا:

- اجلسوا يا أولادي، لما تقفون.... الدار داركم؛ يعلم الله كم أنا فرح برؤيتكما.

قلت:

- يا شيخنا، ووحده الله يعلم كم قلقنا عليك.. فكما تعلم أن الأجواء متوترة هذه الأيام بين الجند.

أطرق الشيخ «عبد الرحيم» رأسه وهو يقول:

- أسأل الله أن ينجينا مما سيحدث، فهذه مجرد البداية.

«بداية!!»

قلتها بصوت مرتفع، فلم أفهم ما يقصد، وما تلك الكلمات المبهمة التي ألقاها على مسامعنا. رفع رأسه مع سماعه لصوتي، وعيناه تحملان شيئا من الحزم وبصوت قوي قال:

– نعم إنها مجرد البداية.

***

«إنها البداية»

ترددت كثيرًا داخل رأسي. رغم أن قضاء الوقت مع الشيخ عبد الرحيم في منزله له طابع مميز، إلا أن كلماته كان لها التأثير الأكبر. لم أهتم لتلك الإوزة، والتي كان ذنبها الوحيد أن محمود من سيفترسها، مع ضحكات شيخي عبد الرحيم، وشراهة محمود، تجلس بالقرب منا «أمنا مريمة»، التي كانت ترتدي نقابها، قبل أن يقول لها شيخي عبد الرحيم أن لا حرج من كشف وجهها، فنحن بعمر أحفادها. تبتسم ابتسامة مشرقة على وجه أبيض تسربت إليه التجاعيد.. عجوز تجاوزت الستين بسنوات، ولكنها مازالت تحتفظ بقوتها، برغم مسحة الحزن التي ترتسم على وجهها دومًا. لعل السبب أنها لم ترزق بالذرية. أحسست بأنها أمي، حينما قدمت الطعام وأخذت تتحدث معنا عن أكلها، وكيف سوته خصيصًا لوجودنا. كانت نعم الزوجة، فبعد الأكل، أتت للشيخ بمزيج من الأعشاب وصفها له العطار؛ كما قالت. وبعد ذلك تركتنا، لتذهب إلى تحفيظ فتيات الحارة آيات من القرآن.

بعد العصر، تأهبنا للعودة إلى الفسطاط؛ ولكن شيخنا «عبد الرحيم» أصر على بقائنا، ومع إلحاحه خضعنا لما يراه، وقد رأى أن نبقى معه طوال أيام إجازته -كما وصفها- نستذكر دروسنا معه، ونؤنس الدار الخاوية إلا من زوجين أثقلهما الكبر وشجرة توت تتوسط منزلهما.

كان الأرق هو ما يتحكم بخلجات نفسي، أتقلب بين الفينة والأخرى على الفراش، أبحث عن إجابات لأسئلة كثيرة راحت ترهق عقلي. أتأمل وجه محمود، على حثيث من ضوء القمر يعبر النافذة الخشبية.... ساعات قضيتها على هذا الحال، أتمنى قدوم الصباح، لأسأل شيخي تلك التساؤلات العديدة، وأحظى بالفهم والقدرة على استيعاب القادم، الذي تبدو مؤشراته سيئة كما يقول. راحت الأحداث تترتب في ذهني، بداية من موائد القاهرة العامرة بشتى أصناف الطعام، وتلك الحلي والزينة بالشوارع، حياة الرفاهية والمجون.. تلك المنازل ذات الأدوار المرتفعة، وألوانها الصفراء ذات الشرائط البنية، وحدائقها البهية. عرجت بأفكاري للخلاف القائم بين العسكر التركي والجند البربري... الست فاطمة وطفلها... الصوامع والغلال.... السوس والدماء... وأخيرًا، سلب النوم جفنيَّ.

***

فتحت عينيَّ، لأجد نفسي في مكان غريب، لا أعلم أين أنا، فالرؤية مشوشة. كان يغلب على المكان صوت صفير الرياح يجوب المكان، حاملًا معه أتربة صفراء، قد تكون هي ما تسبب عدم وضوح الرؤية.

أشعر بعطش شديد.. عليَّ أن أبحث عن شيء يروى حلقي الجاف.

حين قررت المضي قدمًا بحثًا لمعرفة أين أنا، وجدت نفسي حافي القدمين، أطأ تربة ساخنة، فأسرعت الخطا باتجاه طاقة النور في نهاية ذاك الممر السرمدي.. لأتبين المكان! كان حارة ضيقة، تشبه حارات الفسطاط، ولكن لا أبواب فيها. مضيت في طريقي حتى نهايته، ليغشى الضوء الأبيض عينيَّ فجأة. كانت أرضا شاسعة، يحتضنها الجبل، أحاطت جزءا منها الكثير من الأعمدة الخشبية.. الجنود في كل مكان يولون ظهورهم لي، يتابعون شيئا ما قرب الأعمدة الخشبية..... اخترقت الصفوف غير المبالية بوجودي، لتتحجر عيناي على ما يقبع في تلك الساحة الكبيرة..... أناس علقوا على الصواري الخشبية!... لا، ليسوا أناسا، إنها جثث متعفنة، فقدت بعض أجزائها!.. وتحت وطأة الحرارة ووهج الشمس القوية، جاء الظل.....

ظل يحوم فوق المكان، ليفزع الجميع ويركضون في شتى الاتجاهات... يصرخون يحاولون الاختباء... أما أنا، فتحولت قدماي إلى وتدين، راحا ينغرسان في تلك الأرض القاحلة. حاولت أن أحرك ساقيَّ ولكن دون جدوى.. راح قلبي يخفق في سرعة وخوف.. ولكن قررت: إن كان من الموت بد، فيجب مواجهته. رفعت رأسي لأرى سبب الظلال التي تتحرك مسببة الفزع، فهالني ما رأيت...

كان طائرا عملاقا.... كان غرابا!

كانت هذه رؤياي في الليلة الأولى بمنزل شيخي «عبد الرحيم»، التي قصصتها عليه بعد أن صلينا الفجر. تركنا محمود نائمًا، وجلسنا

...مت شجرة التوت في باحة المنزل، والعصافير تشدو عليها مرحبة بضوء النهار الخافت. تمعن شيخي في وجهي قائلًا:

- منذ اليوم الأول لك، رأيت الفراسة والنجابة بوجهك يا بني. وكما علمت من محمود أنك تدون وتكتب كل ليلة، وهذا يجعل منك حافظًا ومؤرخًا، على الأقل لأيامك والحوادث التي تمر بها في يومك. ثم إن رؤياك قد تكون غريبة، ولكن سأقص عليك شيئا شبيها لها.

جلست وقد تنبهت حواسي كلها إلى ما سيقصه علي، عسى أن أجد ضالتي في تفسير تلك الرؤيا، أو أجد في قصته هدى لما يؤرق ليلي. أسند الشيخ ظهره إلى شجرة التوت، وبدأ حديثه:

- بعد أن ضعفت الخلافة العباسية، استقل بن طولون بمصر، واستطاع السامانيون الاستقلال ببلاد خراسان وما وراء النهر، وأصبحت دولة الخلافة ممزقة إلى دويلات؛ بيد أنها جميعًا تذكر اسم الخليفة العباسي على منابرها. إلا دولة واحدة نبتتها خبيثة، اسمها «العبيديون». في عام ٢٨٠هـ دخل عبيد الله الشيعي إلى مدينة القيروان، وأخذ ينشر مذهبه الشيعي سرًا، فاستطاع أن يستميل فريقًا من حجاج كتامة، الذين اصطحبوه معهم إلى المغرب، فاستمال فريقا من البربر ليكونوا مقاتليه. وبدأ حربه ضد الأغالبة، وانتصر عليهم ليكون دولته الشيعية في المغرب، وهم ينتسبون زورًا إلى آل البيت، وأنهم أحفاد جعفر الصادق...

قيل إنه كان هناك يهودي يدعى «يعقوب بن كلس»، هو من جعل مصر الهدف الأول للفاطميين الشيعة، بعدما طُرد منها على يد وزير

الأخشيدين «بن الفرات».. فما كان إلا أن أرسل زعيمهم، والذي يسمى «المعز لدين الله»، قائده الأول للاستيلاء على مصر، فدخل الإسكندرية دون حرب، حتى أن أهلها رحبوا به. لم يمكث «جوهر الصقلي» كثيرًا في الإسكندرية، فقد أرسل الوزير الأكبر جعفر بن الفرات رسولًا إلى جوهر يطلب منه الأمان، على أن يسلمه الفسطاط وما تبقى من أرض مصر.

فى شعبان من العام ٣٥٨ هـ، دخل إلى الفسطاط، ليستقبله الأعيان والوجهاء وعلى رأسهم الوزير جعفر بن الفرات. كما أعطى الأمان للناس، ووعد بالعدل وحرية إقامة شعائرهم... وبذلك ينتهي حكم الإخشيدين.

كانت كل كلمة يقولها الشيخ «عبد الرحيم» تطبع برأسي. كان يتكلم بهدوء وصوت رصين، بينما كان ضوء الصباح يغزو ذلك الجزء من سماء حجبت شجرة التوت معظمها.. كان شيخي يكمل:

- كان على «جوهر» إنشاء مدينتهم الخاصة. مدينة تختلف عن تلك العواصم الثلاث. فعليه أن تكون أكبر من فسطاط عمرو بن العاص، وأن تكون أقوى من عسكر العباسيين، وأن تتميز برونق يختلف عن قطائع بن طولون؛ تلك المدن المتجاورة. وقف جوهر كثيرًا أمام ذلك السهل الرملي شمال الفسطاط، والذي كان مقرا لاستراحة القوافل، يحده من الشرق جبل المقطم، ومن الغرب خليج أمير المؤمنين، وهو ذلك الرافد من النيل والذي يتصل بالبحر الأحمر. ولكن جوهر أرادها مختلفة، لذا جمع بعض المنجمين، وأمرهم أن يختاروا طالعًا للبدء في وضع أساس العاصمة الجديدة، فجعلوا خشبًا، بين كل

قائمتين منها حبل متصل بجرس، وأمروا البنائين بالبدء حينما تدق تلك الأجراس، فجاء غراب ووقف على الحبال، لتدق الأجراس ويلقي الرجال ما في أيديهم من طين وحجارة لأساسات المدينة، وتبدأ عملية البناء.

أنهى شيخي كلماته، ليحدق في وجهي ضحاكًا، ليقول بعد ذلك:

- ما بك يا حسن فاغر فاك هكذا؟

حركت رأسي وأنا أقول في دهشة:

- أول مرة أسمع عن قصة الغراب يا سيدنا... أتظن أنه من زارني في تلك الرؤيا؟

التقط حبة توت قد سقطت أمامه، مسحها بصدره ثم ألقاها في فمه وهو يقول:

- يا ولدي، إن الغراب هو سوء الطالع.. هكذا ينظر العرب إليه. فتلك المدينة بعد بنائها أصبح اسمها «المنصورية»، ثم تم تغيير اسمها لتصبح القاهرة، لتقهر العباسيين وأتباع المذهب السني... فلهذا تأسست لتكون شوكة في ظهر أهل السنة. صحيح أنهم لم يجبروا أحدًا على التشيع، ولكنهم سلبوا عقول العامة بتفاريحهم وتباريحهم، واحتفالات دينية ما أنزل الله بها من سلطان، ففرغوا الدين من المضمون ليتحول إلى مجرد احتفالات دنيوية، مليئة بالحلوى والصخب؛ فأنت تسمع أذانهم الذي يقول «حي على خير العمل»، وترى جليًا تتبع الناس لخرافاتهم وضلالتهم، رغم أن الناس مازالوا على المذهب السني، إلا أنهم مع من يطعمهم....

قاطعته قائلًا:

– ولكن كيف يتهاونون في أمر دينهم هكذا؟

رفع بصره إلى السماء التي احتلها النهار.. شرد لحظات وأخذ نفسا عميقا، ثم قال:

– يا حسن... إنهم قُطعان مستأنسة؛ وطالما أن العبيديين يلقون لهم الفتات، فسيبقون تحت طاعتهم، فقليل من زاد يكفي لأن تسيطر على عقولهم.

هممت بقول شيء ما، حين مرت أمنا «مريمة» تحمل جرة بها مقدار من العسل. قمت مسرعًا لحملها عنها، ولكنها لم تقبل إلا بعد إلحاح. حملت الجرة، وتقدمت إلى غرفة الخزين التي أشارت لها. دخلت إلى حيث تحتفظ بكيس من الدقيق، وآخر به تَمر، مع صحن كبير به بعض البيض، وكيس من الغلال. كلمة الغلال هي ما استوقفتني، وذكرتني بما قاله ذلك الرجل على باب الفسطاط...

«الغلال أصابها البلاء، وأصبحت طعاما للسوس دون البشر»

***

أمضيت ساعات النهار الأولى في المنزل، برفقة محمود الذي ما إن استيقظ حتى تغير ما كنت أتحدث فيه مع شيخي، وبقيت حكاية القاهرة هي ما تشغل بالي طول النهار. كنت أتحين الفرصة لأسأل شيخي، ليفيض عليَّ بنهر الوقائع بالقاهرة منذ إنشائها. لا أعلم لماذا تحتل تلك المدينة عقلي؛ لقد استباحت كل تفاصيل يومي.

«آااه يا بنت المعز...... قوة اسمك تكفيك»

انطلقت بها وأنا أجلس أشاهد الغروب من فوق منزل الشيخ «عبد الرحيم»، فالقطائع بنيت على ربوة مرتفعة قليلًا. كان المشهد رائعا، فالقاهرة طُليت بضوء الشمس الأحمر القادم من ضفة النيل البعيدة، وقد تناثرت أشجار النخيل على ضفافه الخضراء، ومع نقاء الجو من الرياح كانت هناك ثلاثة جبال عملاقة، تركها أبناء الفراعنة شاهدة على حضارة تلك البلاد، التي أورثها الله من يشاء من العباد.

«المشهد خلاب؛ أليس كذلك؟»

جاءت تلك الكلمات، لتنتشلني من لحظات صمت عشتها في رحاب تلك الأراضي المنبسطة أمامي كقطعة من عالم آخر. كان الصوت لمحمود، الذي وقف حاملًا طبقا به بعض ثمار التين المجفف. لا أعلم لماذا كلما رأيته يكون بيده أو فمه طعام! تأملته في صمت، قبل أن يجلس لجواري، فأحاول الحصول على نصيبي من ذلك الطبق، ولكنه يشيح به بعيدًا وهو يقول:

– لن أعطيك شيئًا قبل أن تقول لي لماذا أصبحت تشرد كثيرًا، ولا تفارق أوراقك وقلمك؟

كان لون السماء قد تبدل من اللون الأحمر إلى ذلك اللون الفاصل بين الأحمر والأسود، وصوت أذان يأتي عبر الأفق من هناك.. من القاهرة، ولكن عند مقطع معين صدح صوت أذان مسجد بن طولون، الذي كانت على الجانب الشرقي من مجلسي مئذنته الملتوية. نهضت ومحمود يقول:

– ألن تقول؟

أجبته وأنا أنزل الدرج في هدوء:

- في المساء سأخبرك.

كان عليَّ أن أعرف بقية قصة القاهرة..

كان عليَّ أن أعرف مما يخاف الشيخ عبد الرحيم!...

***

اليوم الثاني بمنزل الشيخ «عبد الرحيم المازوري»

استيقظنا هذا الصباح على صوت ديك مريمة وهو يطلق صياحه، حتى بعدما انتهينا من إفطار هو الأشهى. الشعور بأمان العائلة له مذاق خاص، كنت أفتقده منذ قدومي إلى مصر.. بيض وعسل وخبز طازج، ولكل واحد منا قدح من تمر مغموس بلبن الماعز. نسمات الصباح أيضًا كانت مميزة، حينما خرجنا من المنزل مع شيخنا باتجاه سوق القطائع. يختلف كليًا عن تلك الأسواق التي بالفسطاط والقاهرة.. كان صغيرًا نسبيًا، حتى أن المعروض من الثمار واللحوم قليل جدًا.

كان الشيخ «عبد الرحيم» ذا شهرة بين أبناء تلك النواحي، فلا يمر بأحد إلا ويقف ليسلم على الناس، والمارة يسألونه الدعاء ويلتمسون منه أن يجيب بعض فتواهم وأسئلتهم. وتوقف الشيخ عند دكان قديم، علقت فوقه لافتة محا الزمن معالمها، يحوي بداخله بعض الرفوف الفارغة، وبالخارج كانت هناك أجولة بها شعير وقمح، والبقية بها أصناف شتى من البقوليات.

أما صاحب المكان، فكان رجلا مسنا ذا لحية بيضاء خفيفة النمو،

محني الظهر يتكئ على عصا غليظة، عليه بردة بنية اللون وعمامة من نفس اللون. ما إن رأى شيخي «عبد الرحيم»، حتى قال بصوت ذي ...ونة:

- لقد أضأت السوق بقدومك يا «عبدالرحيم».

تقدم شيخي «عبد الرحيم» وهو يبتسم قائلًا:

- عماه، إن السوق منذ سبعين عامًا مضاء بوجودك...

وانحنى ليقبل رأس العجوز، الذي قال ضاحكًا:

- هكذا أنت دومًا يا عبد الرحيم... برغم تقدم سنك ومقامك بين الناس إلا أن طيبك يبقى هو السمة الرئيسية لصفاتك..

نطقها وكان يتفحصنا، ولم يمهل أن يجيب الشيخ «عبد الرحيم»، سبقه وأتم كلماته وهو يقول:

- هل أنجبت مؤخرًا دون أن نعلم؟

أجاب وهو يشير إلينا:

- هذان حسن ومحمود تلميذاي...

وأشار إلينا، فتقدمنا في تبجيل وسلمنا على العجوز الذي قال:

- لو سمعت كلامي منذ زمن، لصار عندك الآن أحفاد يا عبد الرحيم.

وكأن الشيخ «عبد الرحيم» تضايق من تلك الكلمات، فظهر ذلك جليًا على وجهه وهو يقول:

- يا عماه، إن هذا قدر الله وأنا راض بما قسمه الله...

قاطعه العجوز قائلًا:

- أتخاف على العجوز العقيم؟

في حدة قال الشيخ «عبدالرحيم»:

- عماه، قلت لك إن كسر الخواطر ظلم لا يرضاه الله، كما أن مريمة صابرة ومحتسبة، وأنا كذلك، فالحمد لله على ذلك...

أشاح العجوز بيده، وهو يسير نحو مصطبته بجوار الدكان، متمتما ببعض الكلمات غير المفهومة. جلس، بينما ظل الشيخ «عبد الرحيم» واقفًا، وراح يقول وهو يشير إلى أرجاء السوق:

- ما بال السوق خاوية على عروشها اليوم؟

أجاب العجوز وهو يمط شفتيه:

- لم تصل إلى القطائع حصتها من البضائع اليوم. يقال إن الجند البربر سلبوها؛ فكما تعلم، الجند هم من يتحكمون في البلاد الآن...

أومأ الشيخ « عبد الرحيم برأسه والعجوز يكمل:

- ذلك من يدعونه الخليفة المستنصر لا يعلم شيئًا عمن في القبور أمثالنا. يعيش حياة الرغد، ويترك رجاله يلهون ويعبثون بمقدراتنا كيفما يشاؤون. أسمعت عن صوامع الغلال التي احتلتها الفئران والحشرات؟ تلك التي بالجنوب.....

«الغلال» تعود مرة أخرى إلى مجريات الحديث اليومي بين الناس. يبدو أن الحدث كبير للغاية، فما من شخص إلا ويذكر حادثة الغلال. لم أنتبه لبقية حديثهما، فبينما كان عقلي مشغولا بقضية الغلال، كان محمود يقول لي:

- ألن نعود للمنزل؟ إني جائع....

قاطعته معنفًا إياه بنظراتي، وقلت له هامسًا:

- محمود، إننا ضيفان عند الشيخ عبد الرحيم... تأدب، وإلا سنعود للفسطاط.

رمقني محمود بنظره قاسية، قبل أن يقول بعفوية:

- الفسطاط.... القطائع... القاهرة؛ المهم أن يكون الأكل حاضرًا.

تركته، وتقدمت نحو شيخي «عبد الرحيم»، الذي كان قد أنهى حديثه مع عمه العجوز، الذي سلم علينا في لا مبالاة، ورحنا نكمل جولتنا. وفي طريق عودتنا سألته:

- ماذا يحدث في صوامع الغلال؟

أجابني، وتفاصيل وجهه تحمل الكثير والكثير من الغموض:

- «ألم أقل لك إنها مجرد البداية».

- بداية ماذا؟

سألته وكلي شوق لمعرفة ما سيجود عليَّ به من تفاصيل وأجوبة لصراعات متداخلة في رأسي، لا أفهمها ولا أستوعبها.

***

دائمًا ما تثير الكلمات المبهمة فضولنا، وكثيرًا ما تسلب الأحاديث حول موضوع غامض أفكارنا، نبحر بخيالنا لنبحث عن إجابة لأسئلة عقلنا المتلاحقة.. ما رأيته في القطائع والطريق إليها يكفي لأن يشير إلى بوادر أزمة تلوح في الأفق.. هناك شيء يخيف الناس، وعلى

رأسهم «الشيخ عبد الرحيم»، الذي كان الوجع يشتد على جانبه الأيمن طوال طريقنا إلى منزله. عدنا، ليستلقي على فراشه، حيث دثرته مريمة، وراحت ترقيه وتعطي له تلك الأعشاب المنقوعة بالماء الساخن. نام الشيخ «عبد الرحيم»، بينما ظلت مريمة إلى جواره.

وفي مكان نومنا، جلست أنا ومحمود نتحدث عما حدث للشيخ من مرض. ظن محمود أننا أرهقناه بتجولنا في السوق. وبينما كنا نتحدث، سألني محمود:

- حسن، لماذا تكتب؟

اعتدلت في الفراش، وأنا أضع محبرتي وأوراقي جانبًا، وقلت له:

- أكتب لأبقى حيًا.

لم يفهم محمود ما قلته. صمت، وكأن الإجابة أقنعته. أما أنا، فاستلقيت على ظهري أنظر لذلك السقف الخشبي، وعقلي يحدثني قائلًا:

«ليس عليك أن تكتب لتبقى حيًا، ولكن ابق حيًا لتكتب»

***

«الغراب زارني مرة أخرى هذه الليلة»

قلتها بتوجس للشيخ «عبد الرحيم»، حينما سألني عن حالي. كان مستلقيا بالفراش، منهكًا من أثر مرضه، الذي تحير فيه الأطباء. رمقني بنظره حانية وهو يقول:

- أتعلم يا حسن، كم تمنيت من الله أن يرزقني بولد... فمنَّ الله عليَّ به الآن، بعدما صار بيني وبين القبر بضع خطوات.

اعتصر الأسى قلبي وأنا أقول له:

- لماذا تقول هذا يا أبي....

خرجت مني بعفوية، فقد أحسست وقتها إني أجلس أمام أبي. انحدرت دمعة على خده، تشق طريقها نحو شاربه، فمد يده لمسحها وهو يقول:

- أتدري يا حسن أني أيضًا أرى ذلك الغراب كل يوم؟!

تعجبت مما يقول، وجحظت عيناي وهو يكمل:

- يبدو أنه غراب جوهر الصقلي... هو سوء الطالع لهذه البلاد. منذ قدوم هؤلاء العبيديين إلى مصر وقد تبدل الحال، وأصبح الظلم هو الحكم.. فما بين الحاكم بأمر الله، ذلك المجنون الظالم سفاك الدماء، ثم حفيده المستنصر، الذي تحكمت فيه أمه الحبشية صغيرًا والآن لا يفلح في التدبير أنهكت البلاد تحت وطأة تشيعهم وتحالفهم مع الصليبيين على حساب إخوانهم من أهل السنة السلاجقة. ثم إن ابتعاد الناس عن دين الله، ومجاراة العبيديين في الاحتفالات والخرافات سيجعل منا عبرة كغيرنا من الأقوام.

أشار إلى رقعة الجلد المعلقة بالباحة الخارجية، التي تحوي الآية الكريمة، وأخذ يتمتم:

- قد جعل الله لكل شيء قدرًا.. أتعلم يا بني أن قدر الله محتوم، وأن عقابه على من تجبر وانحرف، وأن هداه ورحمته على من استمسك بالحق وكان من أهله؟..

تأوه في ألم وهو يحاول تعديل وضعه في الفراش، فمددت يدي

لأساعده. أمسكت به، لأشعر بنبضات العروق في يده الدافئة.. شكرني على مساعدتي، وأخذ يكمل:

- يا حسن، كلما نظرت بوجوه الناس اللاهثة وراء الدنيا، تذكرت أنه مهما قضينا من وقت على هذه الأرض، سيأتي يوم ونعود فيه إلى التراب، فنحن من تراب وإلى التراب نعود. ومهما كانت كنوزنا، فلن نحصل على شيء منها معنا في الحياة الآخرة. سأقص عليك نبأ أناس كنت أعرفهم، ذهبوا يومًا إلى البر الغربي من النيل... إلى تلك الأهرام العالية؛ أتعرفها؟

أومأت برأسي وقلت له في سرعة:

- تلك الجبال البعيدة في الأفق؟

ضحك بتهالك وهو يقول:

- نعم... ولكنها ليست جبالا، إنها مقابر صنعت خصيصًا لملوك الفراعنة أهل تلك البلاد. كانوا يضعون مع المتوفى كل ذهبه وتماثيله وأدواته الثمينة، يعتقدون أنها تنفعه في الدار الآخرة. والآن أصبحت عرضة للتنقيب والسرقة على أيدي من يبغون الثراء.

يبدو أن أثر دهشتي كان واضحا على وجهي وهو يتابع:

- لا تتعجب يا حسن، إنها مقابر بالفعل. ذهب بعض أصدقائي منذ سنين إلى تلك الأنحاء بحثًا عن كنوز طمست.... أتعلم لما طُمست؟ لقد طغوا في البلاد، فأكثروا فيها الفساد، بعد أن كانوا في رخاء، بعد سبع عجاف نجاهم الله منها، وتولى يوسف زمام الأرض

وخزائنها. وعادوا مرة أخرى إلى الفساد والطغيان، فدعا نبي الله موسى أن يطمس الله على أموالهم وزينتهم. لقد ابتليت هذه الأرض بكثير من اللعنات. لقد أرسل الله الجراد والقمل والضفادع عليهم.. أرقتهم وأمرضتهم، وتحول ذلك النهر العظيم إلى دماء... كل ذلك لأنهم رفضوا داعي الله. وبعد أن رأوا الآيات لم يؤمنوا، بل أتبعوا أمر فرعون وسحرته. غرتهم الدنيا بزينتها، فهلكوا.

ظل طوال الوقت يحدثني عن سنن الكون، من اندثار حضارات وسطوع شمس حضارات أخرى. أبحرت معه عبر التاريخ، حتى وصلنا إلى ما أسمو إليه...

«القاهرة... تلك المدينة المحرمة ودار حكمتها»

يحكمها عالم سري من كبار المتدينين أصحاب الطائفة الإسماعيلية.. تلك الطائفة التي قال عنها الشيخ «عبد الرحيم» تحكم في الخفاء، وتتحكم في ذلك الخليفة المستنصر، فقد كانت العقيدة الشيعية تنص أن يكون الولد الأكبر للخليفة هو الذي يخلفه في الإمامة، أما ذلك الأخير فقد بدأت مشاكل جنده تنعكس على الواقع المزري للبلاد... فالقاهرة، صاحبة البنيان المرتفع، والتي ليس لها بالأرض شبيه سوى ببلاد الأندلس مدينة تدعى بلنسية لها من المنازل المرتفعة نصيب- قد تواجه سنينا عجافًا كسنين يوسف، وقد تبينت ذلك الأمر حينما ذكر الشيخ عبد الرحيم قصة الغلال والصوامع، فقد هلك محصول كامل من خزين الحبوب، وعلى الخليفة المستنصر أن يسد العجز القائم. ومع تأخر فيضان النهر، قد تبور بعض الأراضي

في الشمال، حيث المزارع الغنية بتلك المنطقة التي تدعى الدلتا، حيث روافد ومصب النهر الكبير.

***

بعد عدة أيام قضيتها في منزل الشيخ «عبد الرحيم»، عُدنا إلى الفسطاط. كان خبر غيابنا انتشر، فما إن عدنا إلى زقاق القناديل، حتى وجدنا الأسئلة تنهال علينا عن سبب غيابنا، فأجبنا، كما طمأننا السائلين على حال شيخنا «عبدالرحيم». ومن بين السائلين، كانت «الست فاطمة»، التي كانت تبدو عليها النحافة. كان حالها متغيرا، ووجهها ممتقعا، فلما سألتها عن حالها وحال ذلك الصغير الذي يلاصق صدرها دومًا، أجابت بأنه مريض، وقد ذهبت به إلى أحد الأولياء الصالحين في القاهرة، وقد صنع لها حجابًا يحفظه من العين والشيطان.

لم أحاورها كثيرًا، فدخولي معها إلى معترك الحديث بين الحلال والحرام لن يفيد، ولن تصدقني ولن تصدق أي شخص مهما كانت مكانته، فقد استولت على عقلها أحاديث الدجالين وبركات الأولياء المجهولين.

أشهر قضيتها بين مسجد عمرو بن العاص وزقاق القناديل. كل شيء كان هادئا، باستثناء أحاديث الناس عن الغلاء، الذي بدأت بوادره تلوح في الأسواق. كل شيء أصابه الجنون، الناس لم تعد كما كانوا، أصبحوا أكثر عدائية، يكفي أن ترتطم بأحدهم دون قصد حتى ينهال عليك بوابل من السُباب.... أو ما أسوء من ذلك.

صدر اليوم قرار بتخفيض حصة الجراية التي تصرف لطلاب العلم، في جميع المساجد التي تحوي كتاتيب ومدارس. كان الخبر عاديًا، حتى جاء وقت استلام الجراية، والتي كانت تتكون في العادة من سبعة أرغفة من الخبز الجاف وقدر صغير من الزيت وآخر من العسل وبعض الزيتون مع قطعتين من اللحم المسوى... ولكننا لم نحصل سوى على الخبز وبعض الزيتون فقط، مما أثار استياء الطلاب وعلى رأسهم محمود، الذي أخذ يتأمل قليل القليل مما كان بين يديه، ثم صاح بعدها قائلًا:

- إن هذا ظلم..

أخذته واتجهنا نحو السوق، فقد كان علينا أن نتبضع ما ينقصنا. مضينا في طريقنا إلى السوق، وما إن اقتربنا، حتى كان هناك صوت ضجيج وصراخ. ركضنا مع الراكضين باتجاه الأصوات. حاولنا اختراق الحشود دون جدوى، ثم خطرت عليَّ فكرة، وأشرت لمحمود أن يتبعني. رحت أشق طريقي لحارة جانبية بها موقف للإبل والخيول، ذو سقيفة من قش وخشب. ناولت حقيبتي بما تحوي من خبز وأوراق لمحمود، وتسلقت الأخشاب في خفة، بينما ظل محمود يرمقني قائلًا:

- ماذا تفعل يا حسن؟ لو رآك أحدهم سيقول لصًا..

لم أبال بحديثه، الذي ضاع وسط الصيحات والضجيج، فقد كنت أقف أعلى السقيفة لأرى ما يحدث بالساحة.. كان هناك شخص وسط أربعة من الرجال، ينهالون عليه ضربا ليقع، وما إن يلمس

الأرض حتى يأتوا به مجددًا، ويكيلون له كمًا من الضربات الموجعة. تمزقت ملابسه وسرت الدماء من جروح متفرقة بوجهه النحيف.. كان شابًا هزيلا، بينما كان الآخرون أقوياء البنية. ولكن ماذا فعل لكل هذا، حتى أن الناس يراقبون دون أن يدافع أحدهم عنه؟! لا أعلم ما فعله، ولكن حتى وإن كان مخطئًا، لا يجب عليهم أن يذيقوه الموت ضربًا. كان يصرخ ويستنجد بالجموع، فيركله أحد الواقفين، وآخرون يضحكون، حتى أصبح كالدمية بين أيديهم ،والناس تقف وقد أظهروا من دناءة النفس والبلادة ما ضاق صدري منه، فقررت التدخل مهما كانت العواقب.

قفزت إلى الساحة، لأجد نفسي قد أصبحت حاجزًا بين الرجال الأربع وذلك الضئيل، الذي كانت أنفاسه تعانق الثرى المختلط بدمائه المتفجرة من أنفه، وقد تورمت عيناه. نقلت بصري بينه وبين وجوه كشرت عن أنيابها، وكأنها ظفرت بفريسة أخرى ستدفع ثمن شجاعتها للوقوف أمام قوتهم الغاشمة. بادرني أحدهم بالهجوم، فانحنيت أتفادى ضربته، بينما وجدت قبضتي ضالتها إلى معدته. سقط أرضًا وهو يصرخ من فرط الألم، بينما توقف الآخرون جامدون، ينظرون إليَّ في تحفز، بينما كان رابعهم يتلوى. تقدم اثنان منهم إلى رفيقهم، يحاولون أن يحملوه، بينما جاء الثالث نحوي ببطء قائلًا بصوت صارم:

- لماذا تدافع عن لص؟ أأنت شريك له؟

قالها وقبضته تتجه لوجهي، غير أنه تفاجأ بإمساكي ليده في قوة،

وتلاقت نظراتنا في تحد واضح أمام الجموع، التي وقفت تشاهد في صمت وترتقب الخطوة القادمة. اقتربت بوجهي منه وخاطبته في قوة:

- إن كان لصا، فهناك شرع لمحاسبته... وما تفعلونه هو إرضاء لنفوسكم المريضة...

وأمام الجميع ارتفع صوتي وأنا أكمل:

- إن كان لصًا، فاسألوه لما سرق، ثم عاقبوه؛ لا أن تقتلوه ضربًا. في أي شريعة هذا؟... أصرتم تحتكمون لشريعة الغاب؟

أفلت يده وأنا أتراجع لأواجه الناس بنظراتي وأتابع حديثي:

- تقفون في بلادة تشاهدون تعذيب أحدكم! أليس لكم قلوب تشفقون بها؟ أوليس لكم عقول تفقهون بها؟ أليس منكم رجل رشيد يتدخل ليوقف ما كان يحدث؟!....

وبينما كنت أتحدث، بدأ الناس في الانصراف. لم يبالوا بما أقوله، وكأني لا أحدثهم. انفض الجمع من حولي، إلا من هؤلاء الأربع الذي أخذوا يرمقونني بغضب، فقال لي ذلك الذي كان قد تلقى ضربتي:

- قسمًا ستدفع ثمن ذلك غاليًا.

تجاهلته وأنا أتجه إلى ذلك الجسد المسجى، وما إن اقتربت منه حتى انكمش في خوف، فربت على جسده بلطف، وهو يقول بخوف توجسته في عروقه وصوته:

- لا لا تضـ.....

قاطعته قائلًا:

- لا تخف فلن أؤذيك.

في تلك اللحظة، كان محمود يقف بجانبي ويشير إلى الرجال الأربعة المبتعدين عن الساحة ويقول:

- حسن، سيضربونك يومًا... لما فعلت هذا؟

- ساعدني يا محمود على حمله.

قلتها لأجعله يصمت. ومع تأوهات ذلك الشاب، حمله محمود في ضجر، واتجهنا نحو سبيل المياه. أجلسناه، وخلعت عنه قميصه الملطخ بالدماء، وصرت أغسل وجهه بالماء، وسط سيل من عبارات الشكر يلقيها على مسامعي ذلك الشاب.. فسألته:

- ما اسمك؟

أجاب -بعد أن أزاح خصلات شعره الناعمة الملتصقة بوجهه-:

- اسمي... عثمان.

انتظرته أن يكمل وأنا أمسح جرحا فوق أنفه، ولكنه لم يكمل، بل من نطق كان محمود:

- عثمان ماذا؟ ولماذا كانوا يضربونك؟

حاول النهوض ففشل، فساعدته على ذلك، فحرك رأسه مبتسمًا، بوجه تلون بشتى الألوان من أثر الضرب. لم يجب على سؤال محمود، بل أمسك قميصه المبلل وارتداه في صمت، ثم استدار قائلًا:

- شكرًا على ما قدمتموه لي من مساعدة.

وأولى ظهره لنا، وراح يسير في بطء، وأثر عرج بسيط في مشيته. تعجبت من فعله، فناديت عليه:

- يا عثمان....

ولكنه لم يجب، وأكمل سيره حتى اختفى عن ناظرنا. وقفت أنا ومحمود لا نعرف ما نقول. أمضيت اليوم في حجرتي بزقاق القناديل، أستذكر دروسي، وأحاول فهم تصرف ذلك الفتى عثمان، ولكن سرعان ما نفضت حكايته وألقيتها خارج عقلي، ولم يتبق منها سوى بلادة مشاعر الناس، وكيف وصلوا لتلك الحالة من قسوة القلب والجمود.

***

«قد يكون ابتلاء الله بسيطًا وهينا، لكن نحن من نضخم الأمور. اعلم أن الله يبتلينا لنعود إليه ونستغفره على ما اقترفت أيدينا، فليس هناك أحد أرحم بنا من ربنا، فما تراه شرًا في أقداره يحمل في طياته خيرًا، ربما ندركه الآن أو بعد حين، وربما لا ندركه إلا يوم القيامة.... يا ولدي إن أمر الله كله خير»

تلك كانت كلمات الشيخ «عبد الرحيم»، حينما زرته آخر مرة، وقصصت عليه ما يحدث في الأسواق من غلاء، وشح في الأرزاق، وما يحدث من اضطرابات بين الجند، انتهت بطرد البربر إلى شمال مصر، وجاءت الأخبار بتخريبهم لقنوات الري والمزارع، في طريقهم إلى قلاع وحصون الإسكندرية، بينما راحت فرق الجند التركي

والسوداني تعيث فسادًا، وتفرض سطوتها على القاهرة وما يحيط بها. تساءلت عن دور الخليفة الفاطمي في كل هذا؛ كيف يترك عسكره ينتهكون الحرمات ويصادرون ما في الأسواق من غلال!

في طريق عودتي من القطائع إلى زقاق القناديل، مررت بجمهور من الناس، وما إن اقتربت منهم، حتى وجدت الكثير من جثث النساء والرجال، فسألت أحد المتواجدين، قال لي:

- إن جند الخليفة قاموا بقتل بعض أُسر منافسيهم من البربر، وسلبوا أموالهم ومتاعهم!

كان اللون الأحمر هو الغالب على المكان، فالدماء لطخت الأرض واتخذت فيها سبيلًا كنهر جار. ضاقت عليَّ الأرض بما رحبت.. كلما تقدمت خطوة، أحسست بألم يغزو صدري. كان الأمر بشعًا، فمشهد الوجوه الملطخة بالدماء يطاردني. توقفت قدماي، واستندت يداي على جدار أحد المنازل، وأخذت أجهش بالبكاء. انسابت الدموع لتحرق خديَّ وأنا أقول في خفوت:

- إنهم أبرياء؛ لماذا قتلوا؟ إنهم مجرد نساء وشيوخ طاعنين في السن!.. ماذا يحدث بهذه البلاد؟ ألا يعلمون حرمة الدماء؟ ألا يعرفون أن الدماء لعنة، ما إن تدفقت ظلمًا بغير حق، فسيعم الأرض البلاء، ويذوق الجميع طعمها؟!

مسحت دموعي بطرف كُم قميصي، وأكملت الطريق إلى زقاق القناديل. كان الجو هادئا جدًا في الفسطاط، فقد بسط الليل رداءه على المدينة ذات الطرقات الخالية من المارة تمامًا، إلا من بعض الكلاب

الضالة التي كانت تنبح وتطارد أشباحًا خلقتها في مخيلتها. شعرت ببرودة تجتاح جسدي حينما اقتربت من زقاق القناديل. الجو ساكن، وضوء أحد المشاعل راح يجاهد الرياح الباردة التي كانت تجوب الحارات الخالية. دخلت إلى الزقاق وأنا ألتمس طريقي إلى باب المنزل، حينما انتفض جسدي في فزع مع ذلك الصوت الذي فاجأني:

«حسن، أين كنت؟!»

كان صوتا أنثويا، لم أميزه في بداية الأمر، فألتفت في سرعة، لأجدها «الست فاطمة». كانت تقف قرب باب دارها متشحة بسوادها. أخذت نفسًا عميقًا قبل أن أقول لها:

- ست فاطمة؛ هل هناك شيء؟

قالت وهي تلوح بيدها:

- هل أفزعتك؟

ضحكت برتابة، محاولًا إخفاء توتري الذي يواريه الظلام، ولكن يبدو أنها أحست به في نبراتي وأنا أقول:

- لا... لم أخف...

وجاء صوت الصغير الباكي من داخل الدار، ففزعت هي وقالت في سرعة:

- كان هناك شاب ينتظرك، وحينما تأخرت... دخل إلى المنزل!

ألقت كلماتها ودلفت لدارها، وأغلقت الباب خلفها. غريبة تلك المرأة؛ ولكن من هو ذلك الشاب؟!

***

صعدت الدرج في توجس. كلما وضعت قدمي على أحد الدرجات، انتفض قلبي في عنف.. لا أعلم ما سبب الخوف، دائمًا ما يُرعبنا جهلنا بما نحن مقدمون عليه. الباب المتآكل هو ما يفصل بيني وبين توتري الذي لا داعي له.. تقدمت، وفتحت الباب، لأجد محمود جالس على طرف فراشه بينما نظراته تحمل الكثير.. فقد كنت له بمثابة المُخلص من....

– عثمان!

نطقتها مع رؤيتي له، وابتسامة جامدة تزين وجهه الأسمر، الذي يحمل عينين غائرتين، تحمل أحداهما أثر لكمة حصل عليها في عراكه الأخير بالسوق. حرك رأسه ليحيني، بينما قلت ذاهلًا:

– كيف عرفت منزلنا؟

نهض وهو يتقدم نحوي، وقد مد يده لمصافحتي، وبتلقائية بادلته السلام وهو يقول:

– يا حسن، أنت تقف الآن أمام شخص يعرف تفاصيل الفسطاط وحاراتها.

وقفت أنظر إليه في دهشة لمعرفته اسمي، بينما أكمل وهو يرمق «محمود» قائلًا:

– لا تندهش هكذا يا حسن، فأنا أعرف اسمك، كما أعرف اسم ذلك البدين....

قاطعه محمود بصوت قوي، وهو ينهض ليقفا في مشهد أقرب للديوك المتناحرة:

– إن قلتها مرة أخرى أقسم أني سأقتلك..

ضحك عثمان وهو يقول في استفزاز:

– حسنًا لن أقول يا بديـ......

ابتلع بقية الكلمة، بفضل لكمه قوية من محمود، تراجع بسببها عثمان بضع خطوات، قبل أن ينقض على محمود.. ولكن كان جسدي حائل بينهما، ومحمود ينحني خوفًا من قبضة عثمان، التي لم تبرح مكانها بفضل وجودي في وجهه. رمقني عثمان وهو يقول:

– حسنًا.. من أجلك فقط يا حسن، سأتركه ولن أردها له...

أجبته في صرامة:

– عثمان، لماذا أنت هنا؟

***

«ليس من السهل أن تكون وحيدًا في هذه البلاد... فقدت والديَّ منذ زمن، ولا أعرف أي أقارب. كل ما أعرفه هو منزلنا، الذي استولى عليه أحد رجال الحارة، وطردني لأتجول بالطرقات بحثًا عن مأوى. تذوقت البرد القارس، وقطع الجوع أحشائي، حتى وجدت عملًا في إحدى حظائر الماشية، كان صاحبها رجلًا طاعنًا في السن، عطف عليَّ وعاملني كأحد أبنائه. إلا أن دوام الحال من المحال، فمنذ شهرين قدمت إحدى فرق الجند التركي إلينا، وطلبت بعض الماشية كضرائب للخليفة المستنصر، ولكن صاحب المزرعة رفض إعطاءهم ما يريدون. قتلوه، وأحرقوا الحظيرة وما يجاورها من مبان.. نهبوا الماشية، وحملوا معهم ما يستطيعون حمله، أما ما تبقى فقد أكلته

النيران، بما فيها جسد العجوز، الذي حاولت جاهدًا إسعافه دون جدوى.

وعدت من حيث بدأت.. عدت مرة أخرى للتسكع في الأسواق، بحثت عن عمل دون جدوى، فمع حالة الغلاء وشح الأرزاق ليس هناك مكان لمثلي. فقد الناس مروءتهم، وصار الجشع ما يتحكم بهم. أما عن ذلك اليوم في السوق، فقد سرقت.. نعم سرقت، لأن الجوع كان يستنزف روحي.

توقف « عثمان « عن حديثه وهو يضحك. لوهلة أحسسته قد جُن. تبادلت النظرات مع محمود، الذي أشار بيده إلى رأسه هامسًا:

- إنه مضطرب.

استدار له عثمان وهو يقول:

- سمعتك أيها البـ

ولكن محمود قاطعه بزمجرة أضحكتني أنا أيضًا، وسرعان ما كانت ضحكات ثلاثتنا تدوي داخل الغرفة. لم أضحك هكذا منذ زمن.. ولكن ما السبب الذي جعل «عثمان» يتوقف عن سرد قصته؟ وجاءت الإجابة من ذلك الأخير، وكأنه يقرأ أفكاري:

- أتعلم يا حسن، بينما كانوا يضربونني، لم أتخل عن تلك التفاحة التي سرقتها.

صمت لحظات، والأسى على وجهه، ليقول بعد ذلك:

- كنت جائعا... وكان عليَّ أن آكل.

برغم أن عثمان أخذ يسرد قصته طوال الليل وكيف تتبعنا؛ إلا أن

هناك شيئا غامضا فيه. نعم أصدقه في كل ما قال، ولكن هناك شيئا ما يخفيه. غلب النعاس محمود، وسرعان ما لحق به عثمان، وبقيت مستيقظًا لأكتب ما حدث...

وبقي السؤال عمَّا هو قادم!....

***

استيقظت بيد محمود، الذي أخذ يهز جسدي بقوة جعلتني أنتفض في فزع، كمن دق في أذنيه صور إسرافيل، وبعيون تجاهد ضوء النهار، القادم من خلف جسد محمود الضخم، أخذت أتفحص وجه محمود وفمه الكبير الذي كان يبدو أنه يقول شيئا ما.. لحظات مرت من عدم صفاء الذهن، تبينت بعدها ما يقول محمود:

- لقد رحل ذلك اللص، ويبدو أنه سرقنا.... قلت لك إني لا أحبه ولا أثق فيه.

بتلقائية وضعت يدي على صدري، أتحسس مخبأ الدينار الذهبي. وجدته، لمسته، وقبل أن أفتح فمي لأنطق، كان صوت عثمان يأتي من خلف محمود قائلًا:

- لقد جئت لكم بفطور شهي.

ابتسمت في وجه محمود، الذي كان قد اتخذ اللون الأحمر كمدًا أو إحراجًا. نهضت من الفراش في تثاقل، وأنا أتفحص عثمان، الذي كان قد دخل إلى الغرفة، وأخذ يضع ما بيده: خبز طازج، وطبق من الفول، وحزمة من خضار الجرجير. ما إن وضعهم، حتى مد يده الى جيبه ليخرج ثلاث بيضات، وهنا قررت الحديث:

- عثمان، من أين أتيت بكل هذا؟

استدار باسمًا، وسرعان ما تلاشت ابتسامته مع رؤيته لوجهي المتجهم، فقال وهو يحرك رأسه:

- أقسم لك يا حسن إني لم أسرقه....

قاطعه محمود في حدة:

- إذن من أين أتيت بكل هذا؟

قال بهدوء:

- لقد استيقظت قبلكم، وذهبت إلى سوق النحاسين للبحث عن شخص له رسالة معي، وما إن سلمتها له أعطاني ربع دينار، فقلت لماذا آكل لوحدي، فقررت أن أشاركم فطوري.. هذا كل ما في الأمر.

تبادلت معه النظرات في فتور، فمظهره الهادئ يوحي بصدقه، كما أن هناك شيئا ما بداخلي جعلني أصدقه. أومأت له برأسي، وذهبت لغسل وجهي. أمسكت الإبريق الفخاري، وأخذت اصب الماء على رأسي، كان شعورا منعشا جعلني أستعيد كامل تركيزي، لأسأله:

- عثمان، لم تقل لنا عن رسالتك هذه من قبل!

جاءني صوت عثمان من الغرفة:

- سأقص عليكم كل شيء.. ولكن تعال لتأكل قبل أن يفترس البـ... أقصد قبل أن ينهي محمود الطعام.

بينما كان صوت محمود وهو يلوك الطعام يطغى على جلسة

فطورنا، كان عثمان يقول:

- هناك شيء لم أقصه عليكم.. حينما كنت أعمل بالبر الغربي من النيل، في تلك المزرعة التي ذكرتها سابقًا، وجدت شيئا ما من كنوز الأرض.

قالها، وخيم صمت مهيب على الغرفة، فقد توقف محمود عن المضغ، وأخذ يحدق في وجه عثمان، بينما توقفت يدي بقطعة الخبز قبل أن تبلغ فمي، وأنا أنتظر ما سينطق به ذلك الغامض، عثمان.

- نُثر لون وردي في الأفق، مزيحًا ستار الليل في الجانب الشرقي من النيل. كان يظهر جليًا عمائر ومآذن الفسطاط والقطائع. حملت الفأس، وأخرجت الحمار من الحظيرة.. كان على أن أصل إلى حوض الشعير في المنخفض القريب من تلك الأهرامات. امتطيت ظهر الحمار، الذي أخذ طريقه دون أن أوجهه.. كان يعرف وجهته. مررت بحقول الخضروات، التي تناثرت فوقها طيور بيضاء.. كان الشروق يهزم الظلام ويبدد عتمته، حينما وصلت إلى ذلك الرافد الصغير. كان عليَّ أن أعبره.. ترجلت، وأمسكت بزمام اللجام، وأخذت أسحب الحمار إلى الماء، لنعبر سويًا للضفة الأخرى. وبعد عدة محاولات، نجحت، بعد أن صار نصف جسدي في الماء. دقائق أخرى من المشي في الوحل، حتى صرنا أنا والحمار على الضفة، متشحين بسواد الطمي. لا أعلم لماذا قمت بهذا الأمر. كان عليَّ أن أمشي لميل آخر، ثم أعبر القنطرة الخشبية.. على كلٍ، كنت أحاول اختصار الوقت والطريق إلى حقل الشعير. ولكن قبل هذا خلعت سروالي وقميصي، وأخذت أبللها في بركة من ماء نظيف، لأزيل عنهم الطمي. كان

الحمار ينظر إليَّ، وكأنه يقول افعل بي مثلما تفعل بملابسك. وبينما أنا على هذا الحال، ركض الحمار وأخذ في النهيق.. ارتديت سروالي، وأخذت أركض خلفه. كان يتوغل في أحواض جافة التربة لم تحرث بعد. وأخيرًا، وصلت إلى الحمار، واستطعت أن أمسك بعنقه وأحاول تهدئته. كانت عروقه نافرة، وكأنه خائف من شيء، و........

سقطت، أو بالأحرى ابتلعتني الأرض أنا والحمار. تناثر الغبار، وراحت تنهال على رأسينا حفنات التراب. من فرط ذهولي وألم ظهري، ظننت أن شيئا سقط من السماء فوق رؤسنا.. رفعت وجهي، لأرى السماء من فتحة الحفرة. لوهلة أحسست أنها قبري.

حاول الحمار النهوض بعد صدمته. حاولت تهدئته، حتى لا ينهار علينا الرمل وندفن أحياء؛ ولكنه قام ونفض الرمل عن رأسه، ونفر بقوة، وأخذ يمشي ببطء للأمام...

توقف عثمان عن سرد قصته، وهو ينظر إلى وجوهنا التي يملؤها الشغف. أمسك بقطعة خبز وقضمها، وأخذ يلوكها ونحن ننتظر استكمال حديثه. كان هادئا للغاية، ويبدو أنه كان يثير فضولنا أكثر، فجاءه صوت محمود قائلًا:

- أكمل... بقية قصة الحمار.

رماه عثمان بابتسامة قبل أن يكمل:

- أخذ الحمار يسير ببطء، بينما كنت أحاول النهوض في تهالك، وألم ضلوعي يكاد يمزق لحم صدري. استندت بيدي على جدار الغرفة، الذي لم يكن رمليا بالمرة.. كان حجرًا باردًا، ما إن لامسته، حتى

سرت تلك البرودة الى أوصالي. لم يكن الضوء كافيا لرؤية المحيط المتواجد به. استدرت ناحية الحمار، ولكنه اختفى.. اختفى وسط الظلام الدامس.

- اختفى!

قلتها مقاطعًا إياه، ولكنه أكمل:

- تقدمت بحذر، أتحسس موضع قدمي في توجس، ألامس بأناملي الجدار، وأحس بالنقوش المحفورة به. كان الظلام حالكا، وكلما توغلت أكثر، كلما تأقلمت عيناي على الوضع. وسمعت صوت وقع أقدام الحمار. كان قريبًا مني، سمعت أنفاسه. وما إن اقتربت منه، حتى قفز، وأخذ يركل بقائمتيه الخلفيتين. شعرت بهواء أحداهما تمر بجانب وجهي. لم أكد أفيق، حتى شعرت بالثانية ترتطم بصدري، الذي لم يكن ينقصه ذلك الألم. ارتطمت بالجدار، ومازال الحمار في حالته الجنونية، حتى ضرب الجدار بقوة، جعلت السقف الترابي يتهاوى. كنت أغمض عيني حتى لا يصيبها الغبار والضوء الذي عم المكان!

فتحت عيناي في صعوبة، لأتبين المكان ومعالمه. كنت فيما يشبه سردابا حجريا، مزينة جدرانه بنقوش ورسوم غريبة، بعضها كبير والآخر صغير. أشباه بشر برؤوس حيوانات، وطيور مختلفة.. أخذت أعد أنفاسي، وأحاول تهدئة دقات قلبي التي تسارعت أكثر، حينما وجدت الحمار وقد انزلق إلى ما يشبة فتحة بالجدار المتحطم. كان ينظر إليَّ بحزن ويأس، وكأنه يقول: «انقذني..». نهضت والألم يلتهم ما

تبقى من قوتي. أمسكت باللجام، ورحت أحاول جاهدًا أن أسحبه؛ ولكن دون جدوى. جلست أمامه وقد تملك اليأس من فؤادي، وأنا أراقبه يحاول الخروج، يضرب الأرض بقدميه الأماميتين، فينزلق أكثر وأكثر، إلى أن سقط....

- تركته يموت أمام عينيك هكذا! يا لك من جبان!

قالها محمود في حنق شديد، ولكن عثمان لم يعره أي اهتمام وهو يتابع:

- لم أكن أستطيع إنقاذه. كنت منهكًا، والألم يمزق عضلات صدري وذراعي. كان عليَّ أن أتركه ليلقى مصيره. سمعت صوت ارتطامه.. كان قويًا. رفعت رأسي للسماء، لألقي عليها نظرة أخيرة، قبل أن أستسلم للألم وتغمض عيناي.

لا أعلم كم الوقت بقيت في ذلك المكان، فقط استيقظت وكل جزء بجسمي يئن ويصرخ من الألم. أشعة الشمس تغرق المكان.. حاولت أن أنظر للسماء فوقي، فغشى عينيَّ ضوؤها القوي. كانت ترمقني، وترسل أشعتها الدافئة لتطمئن قلبي أنه مازال أمل بأن أحيا. نهضت متحاملًا على آلامي، وأخذت أفكر في طريقة للخروج من ذلك القبر. رحت أبحث عن شيء أستخدمه للصعود، حينما خطف نظري بريق آتٍ من تلك الهوة التي سقط بها الحمار.. بريق لامع ينعكس بفضل أشعة الشمس المتسربة إلى الحفرة. جلست على ركبتيَّ في توجس، وترددت في الدخول لرؤية ما بالأسفل؛ ولكن سرعان ما أزحت المخاوف عن عقلي، فليس هناك أسوأ مما أنا فيه.

انحنيت، وأدخلت رأسي لأتبين المكان المظلم. العدم هو ما يحيط بي في ذلك الظلام الدامس. اعتدلت في جلستي، ليصبح جسدي ممدًا على الأرض، سامحًا بتسلل خيط رفيع من ضوء الشمس. كان المكان سحيقًا، ولكن ما يبرق كان على بعد ذراع مني. تمثال صغير ذهبي، جسد رجل له رأس ما يشبه الكلب، له حلقة فوق رأسه كأنه مقبض أحد الأبواب.. إنه من ذهب خالص، مطعم بألوان خلابة مختلفة. جاهدت للحصول عليه، وبعد عدة محاولات، للإمساك به دون الوقوع داخل الهوة، أمسكت به أخيرًا.

أنهى حديثه وهو يخرج من ملابسه التمثال الصغير، ليرفعه أمام أعيننا. سلب أرواحنا.. كانت المرة الأولى التي أشاهد فيها أحد تلك الكنوز، التي تحدث عنها شيخي «عبدالرحيم». تفاصيله دقيقة، ونقوشه رائعة، امتزجت الألوان بالذهب لتعطيه رونقًا رائعًا. وأمام نظراتنا الذاهلة، حرك « عثمان » التمثال الصغير، لينتشلنا من حاله الجمود وهو يقول:

- ألا يستحق هذا المخاطرة؟

ومع انتهاء كلماته، دوى صوت ارتطام قوي وصرخات قادمة من الدور السفلي بالمنزل. لم أكن أستوعب ما يحدث، ولكن عثمان نهض في سرعة وفتح الباب، وما إن ألقى نظرة خارجه، عاد وأغلقه قائلًا:

- علينا أن نهرب!

***

لم يكن هنالك مجال للتردد والتفكير، ففي وقت اضطرابنا وعدم معرفتنا بالقادم تتحول أفكارنا إلى أفعال نؤديها بلا وعي. إنها غريزة البقاء، التي تتحرك داخلنا بفعل مخاوفنا من المجهول. لملمت أوراقي المبعثرة في سرعة، وألقيت بها على عجل بجعبتي، ومع اقتراب صوت الأقدام التي تنتهك الدرج، كان محمود يقف ذاهلًا محملقًا بشيء خلفي. استدرت، لأجد عثمان جالسًا على النافذة، وما إن تلاقت أعيننا حتى قال:

- اتبعوني...

ألقى نفسه للعدم! تبادلنا النظرات ومحمود يتراجع خطوات قائلًا:

- لن أفعل... لن أنتحر؛ إنه مجنون!

كان صوت الخطوات المسرعة يقترب ويقترب، ومحمود مازال يتراجع في بطء للخلف. كدت أن أقول شيئًا، ولكن فات الأوان. تحطم الباب في قوة، لترتطم أجزاءه بجسد محمود الفزع، بينما رأيتهم... رجال متشحون بالسواد عيونهم تطلق الشر... وخناجرهم الفضية البراقة تقطر موتًا.

توقف الزمن عند هذه اللحظة، فقد تناثرت في الهواء شظايا الباب المحطم، أما محمود الذي اجتاحه الرعب والهلع، فكان مانعًا جيدًا بيني وبين هؤلاء العُصبة السوداء، ولم يكن أمامي سوى شيء واحد... الهرب. توجهت في سرعة البرق إلى النافذة، حاول عقلي أن يبث سموم التردد، ولكن تلاشى السُم بفعل الترياق، الذي كان في هيئة خنجر احتك بكتفي الأيسر، ليتجاوزه إلى الإطار الخشبي

النافذة. أطلقت ساقيَّ للنجاة عندها.. قفزت من النافذة محلقًا في الهواء كطائر عملاق.. الهواء الساخن يلفح وجهي.. أغمضت عينيَّ، وتركت جسدي يهبط في قوة، ليرتطم بالوجع الأخير.

لم أفكر في الموت قبل تلك اللحظة، فحينما قفزت عبر النافذة، ظننت أنه الهروب. ولكن مع الثواني اللاحقة، وأثناء سقوطي من ارتفاع يتجاوز الأمتار الثلاثة، مر أمام عيني كل شيء من البداية.. إلى أن سقطت بين أجولة التبن والشعير. تحسست جسدي، غير مصدق لما حدث، وذرات الغبار تتنافس للوصول إلى أنفي، الذي راح يجاهد في الحصول على نفحات من الهواء. فجأة، امتدت يد لتنتشلني من بين الغبار، مع صوت عثمان:

- أسرع...

خرجت من بين أكوام الشعير وأنا مازلت لا أصدق أن الحياة تدب في أوصالي.. ويبدو أني أحتاج دائمًا لمحفز، فقد كان هناك ألم حاد يغزو كتفي من أثر احتكاك الخنجر به. ركضت خلف عثمان، محاولًا اللحاق به رغم الدماء المنسابة على ساعدي الأيسر. وقبل أن أختفي داخل الزُقاق الذي ابتلع عثمان، استدرت لألقي نظره أخيرة على نافذة هروبي، حيث كان يقف أحد الملثمين محركًا رأسه؛ أو هكذا بدا لي.

***

العجز عن استيعاب الأمور ينهك العقل، ويسبب اضطراب الذهن. تجلس محاولًا الإجابة عن أسئلتك الكثيرة.. اختبار صعب،

فكل أسئلتك لا إجابة لها، فبعضها يحتاج أن تخترق حاجز الزمن لتعرف إجابته، والتي تكون صادمة في أغلب الأوقات. أؤمن أن الله جعل لكل شيء قدرًا، فهو مسبب الأسباب.. لم أقترف خطأ ليحدث ما يحدث لي الآن، من هروب ومطاردة، ولكن أعلم أني باختبار، وأن لقائي بعثمان لسبب ما يعلمه الله، فما من شخص نقابله أو نعرفه إلا وقد جُعل سببًا لشيء ما، ندركه في وقت ما.

داخل أحد المنازل المهجورة، بالقرب من سور الفسطاط، اختبأنا مستترين بالظلال الكئيبة. كنت أحاول وقف نزيف ذراعي، بخرق قطعتها من ملابسي، وما إن انتهيت، سألت عثمان:

- ترى هل نجي محمود؟

ألقيت السؤال على مسامع عثمان، الذي انهمك في مراقبة الطريق. لم أتلق منه إجابة، مما أثار غضبي، فصحت به:

- عثمان، إن هيئة هؤلاء الرجال لا توحي بأنهم من الجند البربري.

التفت ليواجهني بوجه يشوبه القلق، وبصوت خافت حدثني:

- نعم يا حسن، ليسوا من جند البربر... إنهم قتلة مأجورون، يعملون لصالح الخليفة على ما أظن أو....

قاطعته في حدة:

- على ما تظن! ألا تعرف من هم مطاردوك؟

قال بصوته الهادئ:

- مطاردونا.. حسن، كل ما أعرفه أنهم قتلة يتبعون الخليفة أو أحد معاونيه في القصر، هناك بالقاهرة. يبحثون عن ذهب آل فرعون

ومقابرهم، وهم من أحرقوا المزرعة وقتلوا رَب عملي. يا صديقي، لا أعلم ما فعلوه بمحمود أو ما سيفعلونه؛ فقط علينا الاختباء في مكان آمن، وقبل هذا علينا مداواة جرحك النازف.

أنهى كلماته وهو يشير إلى ذراعي المضمدة، والتي مازالت الدماء تنساب منها ملطخة ذراعي وملابسي. مرة أخرى تبادر إلى ذهني السؤال: إليَّ أين نهرب؟

وكانت إجابة هذا السؤال حاضرة بذهني.

***

القطائع المظلمة إلا من بعض المشاعل، التي تضيء على استحياء الطرقات الحالكة... ليلة غاب قمرها، أعطى لنا الأفضلية في التحرك تحت ستار العتمة. نزفت الكثير من الدماء، وراحت قواي تخور ونحن بطريقنا إلى منزل شيخي عبد الرحيم. هو المكان الآمن الوحيد الذي حضر بخاطري. كنا نتلافى المرور بتجمع من الناس، أو أن يصادفنا أحد بالطريق، الحذر والحيطة وعدم الأمان يحركان أقدامنا، الخوف من الوقوع بقبضة هؤلاء الملثمين يحفز قدرتنا على إكمال الطريق، الأمل في النجاة يكمن في قدرتنا على إكمال الطريق. للحظات، ظننت أنني ضللت الطريق، وعثمان يسألني إلى أين نحن ذاهبون.. كنت أجيبه في خفوت: «ستعرف».. الشوارع والحارات تتشابه تحت جنح الظلام، ولكن هناك شيئا بداخلي يحركني نحو منزل الشيخ. توقفت أمام الباب، بينما ظل عثمان يقف بالقرب من قارعة الزقاق الضيق. طرقت الباب ثلاثًا.

لم يجبني أحد!....

طرقت مرة أخرى، ولكن بقوة بعض الشيء. كنت أحاول البقاء واعيًا، فقد زاغ بصري، وصار الظلام يداهم عقلي و....

استيقظت، لأجد نفسي راقدًا مدثرًا بالفراش، فغمغمت بصوت خافت:

- ياله من كابوس!...

حاولت النهوض، لأفاجأ بعثمان الجالس على طرف الفراش، وإلى جواري كان يجلس الشيخ عبد الرحيم. لم يكن كابوسا إذًا!!.. إنه حقيقة، فالألم مازال بكتفي الذي غاب تحت الملابس النظيفة. دقائق، استوعبت الأمور، وارتاح قلبي مع الابتسامة الدافئة للشيخ عبد الرحيم، الذي قال:

- أأنت بخير يا ولدي؟

لم أجبه، وأنا أنقل بصري بينه وبين عثمان المبتسم، فيما أكمل هو:

- لقد قص عليَّ عثمان كل شيء... الحمد لله أنكما بخير... وأسأل الله أن ينجي محمود ويحفظه.

محمود! ترى أين أنت يا رفيقي؟

كنت أتمتم بسؤالي، عندما دخلت إلى الغرفة أمنا مريمة بابتسامتها المشرقة ووجهها الهادئ وهي تقول:

- حمدًا لله على سلامتك يا ولدي.

أنهت كلماتها، ليلتقط الشيخ عبد الرحيم طرف الحديث قائلًا:

- لقد سهرت إلى جوارك طوال ليلتين لم تفارقك، حتى أني صرت أغير منك يا حسن.

صكت وجهها وضحكت قائلة:

- أتغار من ابنك يا عبد الرحيم؟!... إن الله مَن عليَّ بخير ولد.

بينما كانا يتبادلان الحديث، كنت أرمق عثمان الساكن، والذي كان بدوره يبادلني النظرات، وكأني أسأله ما القادم!

***

- مازال ذلك الغراب يطاردني، ولكن هذه المرة اختفيت منه داخل حارات القاهرة الضيقة. لم يستطع اللحاق بي، فقط اكتفى بوقوفه فوق قصر الخليفة، محركًا رأسه في كل الاتجاهات، بينما عيناه الواسعتان تحاولان سبر أغوار المدينة، التي تضربها ظلال الموت.

- أظن يا ولدي أن القاهرة ستكون أمانا لك أكثر من هنا، فعلى الأقل ستبحث عن محمود. أسأل عنه صاحبك الوزير، لعله يعرف شيئا، أو يساعدك في العثور عليه؛ ولكن يا حسن...

سكتت أمي «مريمة» لحظات، وهي تتلفت لتتأكد من خلو المكان لتكمل حديثها:

- لا تثق بذلك الفتى عثمان!

انتابتني قشعريرة باردة، امتزجت بعدم الفهم، بينما كان عقلي يبحث عن سبب لقولها، فهممت أن أقول شيئا، حينما قالت هي:

- لا، لم أر عليه شيئا؛ ولكن ابق حذرًا يا بُني.

في تلك الأثناء، ومع نهاية كلماتها المبهمة، خرج عثمان من الغرفة متثائبًا. ألقى السلام وهو يتجه إلى الخلاء، وما إن توارى داخله، حتى قالت هي في خفوت:

- حسن، لا تتأخر في نجدة أخيك. وعندما تذهب للقاهرة، لا تجعل الدنيا همك، ولا تُفتن بما ستراه هناك.. فقط اقض حاجتك، وأنجز أمورك، وعد سالمًا يا ولدي.

أنهت كلماتها، وقامت تطارد إحدى الإوزات، بينما كنت أراقبها ونفسي تحدثني عن حكمتها ومخاوفها.. هل استمدت بصيرتها من زوجها الشيخ عبد الرحيم؟

القاهرة، والوزير الماوردي.. مرت شهور على لقائنا، ولكن هما الحل الأمثل الآن للبحث عن «محمود». قد يكون هؤلاء الملثمون قد تبعونا إلى هنا، وهذا يجعل شيخي عبد الرحيم وزوجته البارة في خطر. لن أجعل أحدًا يتأذى بسببي، أو بسبب مطاردة صرت فيها طريدة لمجرد أني أنقذت عثمان في السوق. هل جزاء الإحسان المطاردة والخوف؟!... فقط ما أريده أن أجد محمود، وبعدها أحزم أمتعتي وأغادر هذه البلاد.

انتفضت من أفكاري مع صوت طرقات بالباب، تبعها صوت ميزته بسرعة. إنه «عبد القادر السقا». توجهت إلى الباب، بينما أكملت أمي مريمة حشو منقار الأوزة بالخبز المبلل. فتحت الباب، لأجد «عبد القادر» متفاجئًا بوجودي قائلًا:

- أرى أنك أصبحت واحدًا من أهل الدار يا فتى.

كدت أجيبه، حين أتى صوت الشيخ عبد الرحيم من خلفي:

- إنه صاحب البيت يا عبد القادر.

أزاحني عبد القادر ليدخل، وكأن صوت الشيخ عبد الرحيم هو الإذن له بالدخول. أخذ عبد القادر يفرغ ما في قربته من ماء في الآنية الفخارية، تبادل الحديث مع الشيخ عبد الرحيم، بينما اختفت «مريمة» من ساحة الدار، وحل محلها عثمان، الذي كان يجلس صامتًا مراقبًا ما يحدث وعبد القادر يقول:

- سأتغيب غدًا عن تزويدكم بالماء، كما سيفعل بقية الرجال، فماء النهر بدأ ينحسر إلى دون مستواه، فقد كثُر الطمي وقل الماء، وآبار المياه في القطائع قد جف معظمها، وغدًا سيكون علينا الذهاب لصهاريج تنيس لحمل الماء، وكما تعلم يا شيخي، فإن تلك الصهاريج هي خاصة بالقاهرة، كما أن غدًا احتفالات المولد النبوي وسنذهب للاحتفالات قرب الجامع الأزهر...

أومأ الشيخ عبد الرحيم برأسه في أسى؛ بينما انتقل عبد القادر ليصب ما بقي في قربته في أحد الأواني الأخرى قائلًا:

- وبما أن الصهاريج هي المخزون الاحتياطي من الماء، فستكون الإبل ذات الجرار النحاسية هناك، ولها الحق في السقاية أولًا... فكيف ستنعم حاشية العبيدين بجنات القاهرة إن اختفى الماء أو تأخر.

نطق جملته الأخيرة بتهكم واضح؛ فالقاهرة يجب أن تُسقى أولًا، فحدائقها وبساتينها تحتاج لذلك الماء، الذي لولاه ما بقيت خضراء يانعة جنة للناظرين.. فليُسقى أهل الحكم أولًا، ولتذهب الرعية

للجحيم.. هذا كان مقصد تهكمه. انتهى من عمله، وحصل على أجره الذي سرعان ما أخفاه داخل طيات ملابسه المهترئة المبللة. أوصلته للباب وأنا أسأله في تطفل:

– عم عبد القادر، أهناك سبيل لدخول القاهرة دون أن يرانا أحد؟

***

اتفقت مع عبد القادر على أن ألاقيه، في اليوم التالي بعد الفجر، قُرب سوق القصبة القديمة. تجادلت مع عثمان حول الذهاب إلى القاهرة.. رفض ببداية الأمر، ولكنه وافق على الذهاب معي لملاقاة الوزير «جعفر الماوردي»، لعله يجد سبيلا للتوقف عن الهرب الدائم. اجتمعت بعد العشاء مع الشيخ عبد الرحيم، الذي بدأ الألم في نخر عظامه، بدائه الذي عجز العطارون والأطباء عن علاجه. كان يتحدث عن الإيمان بالقضاء والقدر، وكيف علينا أن نخضع لإرادة الله، وكيف تعرض الفتن على القلوب، فمن يثبت نجا ومن ضل فقد هوى. قصصت عليه ما قررته مع عبد القادر، وضرورة ذهابي للقاهرة، فمنحني الموافقة، وإن كانت رمزية إلا إنها تحمل بركة دعائه. راودني ذلك الإحساس بدفء الأبوة والحنان، حينما احتضنني ليودعني قائلًا:

– يا ولدي، ستساق إلى قدرك وتصطدم بقضائك، فأنت يا حسن قد سَلمت من حكامة القلب والهوى. استمع لروحك، وأعنها على نفسك بالهدى، وليكن عقلك ذا بصيرة، واصبر فالقاصمة آتية، واعلم أن مع الصبر يأتى الفرج، وأن المنال لا يأتى إلا باليقين. كن

صادقًا تنجو.. كن ثابتًا على الحق تُنصر... وإن رأيت من الأهوال شيئًا، فاستعن بالله، وامض في طريقك.

كانت كلماته بمثابة قواعد أمضي عليها. لا أعلم لماذا انتابني ذلك الشعور الغامض بأني لن أراه مرة أخرى. نفضت عن رأسى تلك الأفكار، وأنا أحمل أوراقي ومحبرتي، لأضعها في جعبتي القماشية المهترئة، حينما وجدت مريمة وقد أتت قائلة:

– أعددت لك شيئا مميزا يا ولدي...

قالتها وهي تمد يدها إليَّ بجعبة جديدة من جلد الماعز، لها اللون الأبيض والأسود، خِيطت في تناسق، وطرزت عليها بخيوط من الصوف اسم...

«حسن بن عبد السلام»

أودعت روحي عند أبويَّ «عبد الرحيم»، «ومريمة». خرجت بصحبة عثمان الخائف.. نعم كان خائفًا مما هو آت؛ أما أنا فلم أكن خائفًا. تحليت بالأمل.. أمل يشوبه قلق، ولكن ليس خوفا... فالقلق يكون غالبًا محاولات للتنبوء بما هو قادم، أما الخوف فهو حالة يضع فيها عقلنا أسوأ النتائج.

مضينا عبر حارات القطائع المتشابكة، ذات البيوت الطينية والأبواب الخشبية العتيقة. برغم ما نحن مقدمون عليه، إلا أننا كنا نضحك قليلًا، مع ركضنا خلف إحدى الدجاجات الهائمة بين جدران المنازل. لم يمكث بنا الحال طويلًا، حتى كنا نركض في الاتجاه المعاكس، وخلفنا كلب ضخم يطوي الثرى تحت قدمية للحاق بنا،

ويبدو أن ذلك الكلب كان سببًا في وصولنا إلى سوق القصبة في الوقت المحدد. كانت السوق خالية، إلا من بضع جمال تحمل أوانٍ نحاسية كبيرة. المكان هادئ مظلم بعض الشيء، فمازال الليل يسحب رداءه في بطء فوق المكان. اقتربنا في حذر، وسرعان ما وجدنا «عبد القادر السقَّا» حاملًا قربته الخاوية، مبتسمًا بأسنان ضاع نصفها مع الزمن. تلفت حوله، ثم أشار إلى راعي الإبل، فحرك الأخير رأسه في صمت. يبدو أنه ذلك الرجل الذي سيصطحبنا إلى القاهرة. وقد صدق ظني، فقد قال عبد القادر:

- لولا أنك قريب الشيخ عبد الرحيم، لما قَدمت على فعل هذا. فكما تعلم، القاهرة تحتاج تصاريح لدخولها... ولكن قل لي.. لماذا تريد دخول القاهرة دون أن يشعر بكما أحدًا؟

اقتربت منه وهمست في أذنه:

- هناك رسالة سرية أحملها للوزير جعفر الماوردي، ذات أهميه كبيرة.

جحظت عينا عبد القادر، وأظن أنه أحس بشيء من الفخر لذلك العمل وهو يقول:

- وفقكم الله في مسعاكم.

لم نلبث إلا لحظات، حتى أناخ راعي الإبل أحد الجمال العظيمة، ليأمرنا بالدخول إلى الجرار النحاسية. ساعدنى عبد القادر في دخول الجرة الخاصة بي وهو يقول سيأخذكم سعيد إلى تنيس، ليقف بين بقية السقاة، ثم يذهب معهم إلى القاهرة، وهناك سيخرجكما حالما يطمئن

من خلو المكان من الحرس والناس في ذلك الوقت، كان سعيد يساعد عليان، الذي قال له سائلًا:

- كم من الوقت سنلبث؟

أجابه سعيد وهو يغلق الجرة:

- بضع سويعات فقط؛ لا تقلق.

مع انتهاء كلماته، أغلق عبد القادر بدوره الجرة، لأقبع في الظلام وحيدًا.. ظلام أثار رهبة في قلبي، ازدادت مع حركة الجمل، الذي اتجه طريقه إلى صهاريج تنيس....

***

طريقة مؤلمة لدخول القاهرة. أرهقتني الرحلة، وأوجعت أضلعي وفقرات ظهري. طال الوقت داخل الجرة النحاسية، واشتد الحر، فكنت كأني داخل قبر متحرك.. قبر يَحمل حيا على ظهر حي. كان همي الشاغل أن أخرج من تلك الجرة الخانقة. الخوف من انكشاف أمري جعلني أبقى هادئًا قدر المستطاع، أعد الأنفاس وأحصي اهتزازات الجرة. راودتنى أفكار كثيرة عما أقدم عليه، أما ما ظل مستقرًا بعقلي طوال الطريق وجه محمود الفزع. تركته خلفي لا يستطيع الهرب.. ليس عليَّ الآن سوى أن أجده، فأنا من تركته، وأنا من سيعيده.

طرق أذني صوت دقات متتالية على مخبئي النحاسي. كانت إذن إشارة للتفطن والاستعداد للخروج. فُتحت الكوة، ليغمر ضوء النهار وجهي، فأغمضت عينيَّ متحاشيًا النظر للخارج لحظات. استعادت عيناي قدرتهما على الرؤية، فأخرجت رأسي بحذر، لأجد

سعيد يقف مبتسمًا، وإلى جواره عثمان يقول في عصبية:

- ألم يكن هناك طريقة أخرى لدخول القاهرة؟

ألقى كلماته، ليحرك رأسه يمينًا ويسارًا، لتصدر صوت طقطقة بفعل فقرات رقبته، بينما قال سعيد:

- أنتم الآن داخل القاهرة...

لم أستمع لبقية حديثه، وأنا أتفحص المكان جيدًا كنا بزقاق خال من المارة والأبواب، نبتت الحشائش على جانبي أرضيته المهملة، وفى نهاية الزقاق تبرز مآذن الأزهر الشاهقة. لم نمض وقتا طويل بالزقاق.. ودعنا سعيد، بعد أن شكرناه على توصيلنا للمدينة المحرمة، التي دخلناها للتو في يوم الزينة.

نعم يوم الزينة. ما إن خرجنا من الزقاق في الاتجاه المعاكس للجمل وآنيته النحاسية، حتى وجدنا أنفسنا بعالم آخر. أول ما وقعت عيناي عليه هي تلك الرايات المنتشرة على الجدران، وأخرى أصغر منها معلقة بين البيوت، تربط ضفتي الطريق ببعضها عبر الهواء، تخفق بفعل تيار الهواء القادم عبر الشارع الواسع، لتخطف العيون بألوانها الخضراء والحمراء.. الناس يرفلون في أفضل الثياب لديهم، وكان هناك شيء مختلف هذه المرة في المدينة، التي لطالما ظلت محفورة بذاكرتي تداعب أحلام اليقظة بين الحين والآخر.. القاهرة في يوم زينتها لا تشبه أقرانها من مدن المسلمين. لقد فاق احتفال الفاطميون بمولد النبي المصطفى عيد الأضحى! كنت أتجول بعيني في المكان، محاولا معرفة أين نحن، عندما وجدت عثمان يوكزني قائلًا:

- حسن، وجودنا في الشارع هكذا يعرضنا للخطر...

لم يتمم كلمته، حتى دوَّى صوت يأتي من بعيد صائحًا:

«العز لمولانا خليفة المسلمين وقاهر الكافرين المستنصر لدين رب العالمين»

كان ذلك الصوت إذنا باصطفاف الناس على جانبي الطريق، بينما تحولت رؤوسهم إلى الجهة الغربية من الطريق، وعيونهم تفيض بالفضول، وفي نهاية الشارع كان يخرج من زقاق مجاور حاملوا البيارق والدفوف، يرتدون ملابس مزركشة بمزيج من الألوان. دقات الدفوف راحت تعلو كلما اقتربوا، ومن خلفهم يسير حاملوا صوانٍ، سرعان ما تبينت محتواها من الحلوى؛ صفان من الرجال يتجاوز عددهم المئة، يرتدون اللون الأبيض وأوشحة خضراء، يحملون مختلف أنواع الحلوى بصوانٍ نحاسية كبيرة، كانوا يمرون على هؤلاء البلهاء الفرحين بالحلوى، يعطونهم الكثير منها، وبين الصفين يسير مجموعات من الدراويش، يتمايلون على دقات الدفوف، مشتعلين بهجة جعلت بعض الواقفين على جانبي الطريق يتمايلون مثلهم. وفى الخلف، كان يقترب موكب الخليفة الفاطمي، يمتطي جوادًا أبيض مزينا بالحلي الذهبية، يمشي في تأن واضح، مرتديًا عباءة خضراء وعمامة بيضاء، تحتل وسطها جوهرة من نفس لون العباءة، يبدو على وجهه الهدوء، وضعف أخفاه بابتسامه باهتة، وهو يلوح بكفه لمن هم على جانبي الطريق من الرعايا. وعلى جانبيه، كان هناك رجلان، أحدهما هو الوزير «جعفر الماوردي» في أبهى حالاته، والثاني شخص يتشح بسواد قاتم، حتى فرسه كان أدهم، عيناه قد يكون لا

لون لهما -أو هكذا ظننت- يوحي مظهره بشرٍ يفيض من خلجاته ولحيته، التى كان شيبها يعلن انتصاره على ما تبقى فيها من سواد، لا تزيده إلا وقارًا وهيبة، توحي بأن ذلك الشخص ليس ودودًا بالمرة، أو بالأحرى متمرسا بالشر.

كان خلف الثلاثة الكبار بموكب خليفة الفاطميين مجموعة كبيرة من إبل الخاصة، التي تحمل كل منها هودجا يختلف لونه عن قرينه، تتأرجح يمينًا ويسارًا. استدرت لأقول شيئا لعثمان، الذي كان في قمة شغفه وقد تناسى خوفه. وحينما عدت بنظري إلى الموكب، خطفني الهودج القرمزي الذي من بين طياته لمحت عينين عرفتهما جيدًا.. عينان كحيلتان، رأيتهما سابقًا في قصر الشوك، حيث يسكن الوزير... عينان هما فقط نافذة وجه ملثم بنقاب مخملي أبيض اللون.

لم أشعر إلا ويد عثمان تدفعني جانبًا، وبصوت يحمل ارتجافا قال هامسًا:

- أظن أنه علينا الرحيل الآن...

حاولت أن أفهم مغزى كلماته، التي استوعبتها وفُسرت أمام ناظري وهو يشير إلى هؤلاء الملثمين المنتشرين على أسطح البنايات، مستترين ببعض الظلال. أدرت رأسي، وصرت أتأمل الجموع، ثم عدت بنظري إلى الموضع الذي رأيت فيه أحدهم، ولكنه اختفى.

فى ومضة سريعة، ظننت أنه يُخيل إليَّ وجودهم. ودون تردد، أخذت أشق الصفوف مطأطئا، ومن خلفي عثمان نحاول التواري عن الأنظار وسط الجموع الغفيرة، التي أخذت بالصياح حينما قام

قاضي القضاة بإلقاء بعض الدنانير إليهم. حالة من الهياج جعلت انغماسنا واختفاءنا أمرًا يسيرًا.. ولكن بقي السؤال، هل يعلمون بوجودنا، أم أنهم يؤَمِّنون موكب خليفتهم؟

***

اتجه الموكب إلى الجامع الأزهر، حيث سيلقى الخطاب على مسامع الخليفة المستنصر، ويتم الدعاء له. سارت الجموع خلف الركب، كأنهم مجموعات من الحملان تسير خلف الراعي. فقط مظاهر البهجة والفرح أنستهم أنهم جوعى، فقبلوا بفتات الحلوى وبعض الدنانير التي تلقى لهم، يتصارعون عليها ككلاب ضالة تريد الاقتيات، لا يعبؤون إن فرغت الصوامع من الغلال، لا يهتمون إن أصاب الغلاء الأسواق، كما أنهم لا يبالون بالدم الذي يراق!... فقط كل ما يشغلهم هو أن يعيشوا يومهم وحياتهم، لا يشتكون ولا يثورون، حتى وإن أصابهم ما أصابهم.. فقط يشتكون فيما بينهم، على أمل أن يأتي فيض من الوفرة في وقت ما.. وفرة قد لا تأتي، بسبب نسيانهم أمر الله، شيعة كانوا أم على سنة رسول الله.

مضينا عبر الدروب والحارات الموازية للموكب. كان علينا أن نقابل الوزير «جعفر الماوردي» مهما كان الثمن. كانت الجموع قد وصلت إلى أبواب الجامع الأزهر، الذي دخله من دخل، وبقى في الخارج من يلهون ويتأرجحون مع أصحاب الدفوف، وراحت حناجرهم تطلق صيحات:

«حي الله... حي... لبيك يا حسين»

عمت الفوضى المكان.. كان البعض يلتهم الحلوى، وآخرون يقرفصون حول موائد فُرشت على الأرض، تحوي صوانٍ مليئة باللحم والثريد. كانوا يفترسون الطعام فتراسًا... هكذا تم ترويضهم، كما قال الشيخ عبد الرحيم: »ليسوا سوى قطعان مستأنسة«.

كنت بين الحين والآخر أحدث عثمان المرتعش.. وجهه الأسمر كان يمطر عرقًا كلما اقتربنا من هدفنا، يتحسس ذلك التمثال الصغير المخبأ في ملابسه، يتلفت يمينًا ويسارًا؛ أصابني بالتوتر من كثرة تحركه والتفاته. برغم أني طمأنته، إلا أنه كان يشعر بشيء ما. اتجهنا نحو بوابة المسجد المفتوحة على مصراعيها، تجاوزناها بصعوبة ونحن نخترق الصفوف، وسط تأفف وسخط الحضور. ورأيت أحدهم، كان يقف قرب أحد الأعمدة المرمرية يستند إليه، وقد أزال اللثام، ولكن زيه الأسود المميز، وأساوره الفضية، وذلك الحزام الفضي المحلى بالنقوش ميزوه. كانت عيناه الثاقبتان تدوران في محجريهما، يتفحص الوجوه ويتابع تحركات الناس. لا أعلم لماذا جلست في مكاني، وأمسكت بذراع عثمان ليجلس بجواري. فهم الأمر سريعًا، لتزوغ عيناه ويتمتم في خفوت:

– جئنا للموت بأرجلنا يا حسن.

رمقته بنظره صامتة وهو يتابع:

– حسن؛ ألا تظن أن هؤلاء المتشحين بالسواد يتبعون الوزير؟

سؤال قد يكون رده الإيجاب، كما استنتج عثمان، لكن شيئا ما بداخلي تملص من الإجابة، فقلت له:

- لا. أظن أنهم يتبعون الخليفة، أو بالأحرى ذلك الشخص.

انهيت كلامي وأنا أشير لذلك الرجل الذي كان على يسار المستنصر في الموكب.. ذلك الرجل الغامض ذي العينين اللامعتين، الذي كان في تلك الأثناء يميل على أذن الخليفة. يبدو أنه ذو شأن، أو لعله غراب الشر والخراب.

***

« أفتقدك يا محمود.... كما تفتقدك موائد الحلوى اليوم «

رددتها وأنا أتأمل الصواني الفارغة، التي راح يحملها الرجال، في محاولة منهم لترتيب وتنظيف الساحة المقابلة للمسجد الأزهر. انتهت مراسم الاحتفال، وعاد كلٌ إلى داره. استرخى عثمان باسطا جسده فوق سطح ذلك المنزل الذي اختبأنا بسقيفته. كان علينا التحرك إلى قصر الشوك.. أيقظته، وعاد يلقي على مسامعي بعضا من مخاوفه مجددًا، والذي منها أن يكون محمود قد قُتل.

انتظرنا حتى أسدل الليل ستائره، فليس أمامنا سوى التسلل تحت السماء المرصعة بآلاف من النجوم، التي راحت تراقب تسلقنا لأسوار قصر الشوك. كان عثمان يتبعني في صمت، حتى أنه لم يسألني مرة على الطريق الذي قد حفظته عن ظهر قلب. توارينا عن مشاعل دورية الحراسة بين الشجيرات للحظات، انطلقنا بعدها إلى باب القصر، الذي كان يقف على بابه حارسان، يمسك كل منهما حربة يعكس نصلها ضوء المشعل المعلق بجوار الباب المذهب. ما إن وقعت أعينهم علينا، حتى تخلصا من جمودهم وقال أحدهم في حدة:

- توقفا.

بينما أشهر الآخر حربته في وجهينا وهو يتفحصنا جيدًا، قبل أن أقول له:

- أنا حسن بن عبد السلام... سيدي الوزير جعفر...

قاطعنى الحارس ذو الرمح في صرامة:

- كيف دخلتما إلى هنا؟

كان ينظر لعثمان، الذي عقد لسانه، ونظر إليَّ وكأنه ينتظر الجواب الذي خرج من بين شفتيّ:

- نحمل رسالة هامة لسيدي الوزير، ويجب أن نقابله.

هنا تقدم إليَّ الحارس الأول محملقًا في وجهي متفحصًا ملامحي، ليسألني بعد ذلك:

- أأنت ذلك الفتى الذي كنت في ضيافة مولاي الوزير، وكان معك ذلك السمين؟

أومأت برأسي في سرعة، بينما نطق عثمان قائلًا:

- نعم نعم...

باغته الحارس بنظره صارمة وهو يقول:

- ولكنك لست ذلك السمين؟

تداركت الأمر قائلًا:

- سيدي؛ عليَّ مقابلة الوزير لأمر طارئ، ولا يجب أن يتأخر.

هز الحارس رأسه، قبل أن يوجه رأسه قِبل رفيقه، الذي فهم من

نظرات صاحبه ما يجب فعله. أخفض رمحه، وأولى لنا ظهره، وصار يغذ سبيله إلى الباب الكبير. طرقات ثلاث، فُتح بعدها ليختفي بداخله لبعض الوقت، قضيناه برفقه الحارس الأول صاحب السكون الرهيب. خرج الحارس الثاني، ليبلغنا بأن الوزير في انتظارنا. دلفنا إلى الداخل، وسط نظرات الخدم المتسائلة عما يجري في ذلك الوقت.

الوزير جعفر الماوردي ليس سوى رجل سني، يخدم في بلاط الخليفة العبيدي، أغري بالمنصب والجاه والسلطان، كغيره من أهل السنة في البلاد. يبدو أن مخطط العبيدين هو أن يكون هناك نسل قادم شيعي من آباء سنة. أعلم لماذا راودتني فكرة أنه لن يفيدنا في شيء، هكذا كنت أحسبه؛ بل ذهب عقلي لكلمات عثمان عنه، والخوف من أن يسلمنا إلى العِصبة السوداء. مر كل هذا أمام عينيّ وأنا أمر عبر أروقة القصر باتجاه غرفة الوزير، الذي استقبلني بابتسامة عريضة قائلًا:

- كنت أعلم أنك ستأتي يا حسن...

رمقني عثمان بنظرة ذهول وأنا أتقدم إلى مجلس الوزير، وقد سبقني صوت:

- سيدي، الأمر ليس كما تظن، فقد أتيت لأمر آخر.

عقد حاجبيه الكثيفين وهو يقول:

- أمر آخر!

أجبته وانا أشير لعثمان بالتقدم:

- هذا صاحبي عثمان، سيقص كل شيء.

تقدم عثمان متلعثمًا، ألقى التحية على صاحب المقام الرفيع، وبدأ في سرد قصة ما حدث بالمزرعة وصاحبها، ومطاردة هؤلاء الملثمين له في كل مكان، وكيف ظن في بادئ الأمر أنهم من الجند البربري أو الجند التركي. كان الاهتمام يبدو متجليًا على وجه الوزير، الذي كان ينصت في عناية لكل كلمة يقولها عثمان، الذي توقف عن الحديث وهو يتصبب عرقًا، فأشار له الوزير أن يكمل، فقال عثمان:

- سيدي أظن أن هؤلاء الملثمين يتبعون حاشية الخليفة أو أن لهم صلة بكم.

نهض الوزير والغضب يفيض من عينيه. تقدم نحو عثمان، الذي تسمرت قدماه بالأرض.. توقف على بعد خيط رفيع يفصل بينهما، وقال ووجهه يكاد يلامس وجه عثمان:

- أتجرؤ على أن تتهم الوزير الأعظم بتلك الخرافات يا غلام؟!

كان رد عثمان هو أشبه بالصاعقة.. لم أتوقع أن يرد عثمان المرتجف بتلك الكلمات، التي جعلت الوزير يتراجع بضع خطوات مرتاعًا. كلمات اهتزت لها جدران الغرفة:

- أنا لا أتهمك.. بل أعلن أنك المسؤول الأول عما يحدث من تنقيب وبحث عن كنوز الفراعين.. بل وقتل الأبرياء، في سبيل الحصول على ما يملأ خزائنك أنت وخليفتك.

تحول عثمان.. فجأة أصبح مهيمنا على الوضع، بينما أطبق الصمت فكيه على المكان. الوزير جعفر الماوردي كان يرمقه في توجس، أما أنا فكنت أحاول فك طلاسم عثمان القاسي الملامح؛ ولكن كان هناك

اي، في عينيه.. سحب من الدموع تنتظر أن يعطيها الأذن بالهطول! تقدمت بضع خطوات، لأكسر حاجز الصمت قائلًا:

- سيدي، لا يقصد عثمان ذلك بالمعنى...

لوح الوزير بيده، وقد ارتسمت على وجهه علامات الأسى وهو يقول:

- إنه محق يا حسن... فأنا المسؤول.. أنا من عليه أن يحمى الضعفاء، لكن...

صمت لبرهة وهو يشيح بوجهه بعيدًا، ليقول في صوت متهدج:

- لكن الأمر ليس بيدي؛ فأنا أطيع الأوامر فقط، وأقسم لكم أن ليس لي علاقة بقريب أو بعيد بهؤلاء المجموعة من القتله الملثمين، ولا أعرف من هـ....

قاطعة عثمان بحدة:

- بل تعرف من هم... لقد كان حضورهم مميزا اليوم في موكب الخليفة.

استدار الوزير بسرعة إلى عثمان محركًا رأسه قائلًا:

- تقصد من؟

- كانوا ينتشرون فوق المنازل، يستترون بظلال المشربيات وأشجار الأسطح.

تبدلت ملامح الوزير وهو لا يعلم ما يقول أو ما يفعل؛ فأمامه كان يقف شابان، يواجهانه بحقائق يعلمها جيدًا، ولكنه كان يتحاشى

الحديث عنها، وما ظهر على وجهه من ارتياع يثبت ما أظنه... إنه يعلم، ويظهر أنه لا يعلم.

***

«ليس لي من الأمر شيء..»

استهل بها الوزير جعفر حديثه الطويل معنا. فقد تحدث عما دار وما يدور في القاهرة، وبين الحاشية. صدق حدسي، فهو مجرد واجهة يتحكم بها الخليفة، كما ظننت. ولكن الخليفة أيضًا يبدو وكأنه واجهة هو الآخر، فقد خرج من سطوة والدته الحبشية، التي رحلت إلى عالم الأموات، وتركته تحت طائلة بعض المتسلقين، والذين كانت نهايتهم إما القتل أو العزل، فمازال ذلك الرجل المستنصر يحمل شيئا مميزا وهو الإمامة.. إمامة العبيدين ومذهبهم، الذي يحاولون منذ قدومهم استمالة الناس له، عبر الرشاوى والاحتفالات وإغراء بعضهم بالمناصب. كان حديثه مقتضبا، فهو يروي حقيقة لطالما أراد إخفاءها. قضينا وقتًا طويلًا بين قصته ورحلته إلى الوزارة. لم يكن حديثه بجديد عليَّ، فسبق أن روى لي الشيخ عبد الرحيم ما حدث، منذ قدوم العبيديين إلى زمن المستنصر، والأزمة التي على الأبواب، والتي تطرق لها في عجالة. ذكر أن منسوب النيل ضئيل هذا العام، وأن صوامع الغلال تكاد تكون خاوية.. تحدث عن غلاء يزداد كل يوم.. أما الشيء الأبرز، فكان معارك الجند فيما بينهم، فالسودانيون يسيطرون على جنوب البلاد، والبربر يمتلكون جزءا من الدلتا، أما «ناصر الدولة ابن حمدان التغلبي» فقد كان يستغل نفوذه وكثرة الجند التركي في فرض جبايات، والسيطرة على محيط القاهرة وما حولها من

حصون، وهو ما ينذر بوضع سيئ، قد تنهار بسببه دولة العبيديين.

سألته عن ذلك الرجل المدعو «ناصر الدولة»، فكانت إجابته أن له تطلعات خاصة، فهو يطمح أن يكون والي مصر، ويساعده على ذلك السلاجقة وسلطانهم «ألب أرسلان»....

قاطعه عثمان قائلًا:

- أهو سني؟

أجاب الوزير بإيماءة برأسه، بينما عاجلته بسؤال غير متوقع:

- لماذا لا تترك منصبك وتعود لصفوف الرعية، أو تذهب إلى أي مكان آخر؛ بما أنك لست راض عما يحدث؟

دقائق من الصمت مرت، أظن أنه كان يبحث فيها عن إجابة مقنعة، ولكنه لم يفعل. أجاب في خفوت:

- لقد توالى على ذلك المنصب أكثر من أربعين وزيرًا في فترات قصيرة. أعلم ان مهمتي صعبة، ولكن لا أستطيع ترك منصبي، فهناك من سيأتي خلفًا لي ويبقى كما كنت...

كانت إجابته غير مقنعة.. إنه خائف من شيء ما لا يريد البوح به؛ ولكن عثمان كان له بالمرصاد، فنطق بما لم يرق للوزير قائلًا:

- أتخاف الموت؟

بتلعثم ردد الوزير:

- الموووو....ت.

يبدو أن عثمان قد فهم طبيعة ذلك الرجل الضعيف، فهو هيئة

فقط، يفرض هيبته بملابسه البهية ووقاره. أما الآن، فهو على طبيعته معنا، يواجه أسوأ كوابيسه رعبًا.. الخوف من الموت.

لماذا يخشى كل ذي منصب وجاه منه؟

لماذا يتناسون أمره إلى أن يأتي؟

وسط تساؤلاتي المتلاحقة، نهض الوزير بغتة وهو يقول:

- انتهى اللقاء.

بعيون جاحظة تأمله عثمان، بينما قلت له:

- ألن تساعدنا في إيجاد محمود؟

استدار ليواجهنا قائلًا:

- لا أستطيع مساعدتكم.

نهض عثمان هو الآخر وهو يقول بتهكم واضح:

- إذن سنذهب لذلك الرجل الآخر... الذي كان بالموكب.

الغضب اختلط بالفزع على وجه الوزير، الذي قال:

- أي رجل تقصد؟

راح عثمان يخطو نحو الباب، وما إن وضع يده على المقبض قال:

- أظن أنك تعلم من أقصد.

كان يحاول إثارة الوزير -هكذا توقعت- ولكنه كان صادقًا، فقد أنهى كلماته وفتح الباب، لنفاجأ جميعًا بتلك التي تقف على الباب. إنها هي، صاحبة العيون السوداء. كانت لا ترتدي نقابها الخفيف.. كانت بدرًا يشرق على الغرفة.. بدرًا يرسل ضوءه ليحيل المكان إلى نهار.

أما وجنتها الوردية، فكانت أبهى من الورود التي بين يديها. كسرت الصمت بصوت رقيق قائلة:

- لم أكن أعلم أن لديك زوارًا يا أبي.

أجاب الوزير وهو يبتسم، محاولًا أن يخفي توتره وارتيابه:

- لا يا بُنيتي، فقد أنهينا اجتماعنا.

ثم استدار ليوجه كلامه إليَّ:

- حسنًا يا حسن، غدًا سنكمل ما كنا نتحدث فيه....

أنهى كلماته وعيناه تتلاقى بعيني عثمان، اللتين كانتا تحملان تحديا واضحا.

***

داخل إحدى غرف قصر الشوك، ألقيت جسدي على الفراش الوثير، متأملًا سقف الغرفة المزين بزخارف ونقوش من الخط الكوفي، بينما أخذ عثمان يتجول كسبع حبيس، يدور على عقبيه بين الجدار والمشربية المطلة على حديقة القصر، يقلب بين يديه كنزه الثمين الذي لم نعرضه على الوزير، واكتفينا بذكر أننا نخبئه في مكان ما. كان يقطع السكون بسؤال بين الحين والآخر: «أسيقتلنا ذلك الرجل؟.... هل سيساعدنا أم سيلقي بنا في غياهب السجن؟».. كان يحدثني ولا أجيبه، أبحث في مخيلتي عن سبب مواجهه عثمان للوزير وجرأته عليه. أفهم عثمان طبيعة الرجل، فطنها ولم يتخذ عقلي لذلك سبيلًا؟... الحدث الأبرز كانت ابنة الوزير، التي كانت تقف على الباب حينما فُتح... أسمعت شيئا مما دار؟

نهضت، وأحضرت أوراقي ومحبرتي، تحت نظرات عثمان الثاقبة والتي تزامنت مع صوته:

- لماذا لا ترد عليَّ يا حسن؟

أجبته وأنا أغمس القلم في المحبرة:

- يا عثمان، أجيبك على ماذا؟ أنت تسأل وتجيب نفسك.

جلس عثمان وأمال رأسه نحوي قائلًا:

- ستكتب وتتركني في حيرة من أمري! لم أر في حياتي مثلك يا حسن.

أجبته باقتضاب:

- كيف؟

صاح وراح يلوح بيديه:

- أنت لا تهتم لما أقول ولا تستمع لي.. أحس بالضيق، لا أعرف ما سيحدث غدًا.

رفعت عيني نحوه قائلًا:

- حافظ على هدوئك، فلن يصيبنا إلا ما قد كتبه الله لنا.

ابتلع ما كان ينوي قوله. إن كان هو قلقًا، فأنا قد غرس بقلبي قلق مضاعف، فلا أعلم كيف ستكون ردة فعل الوزير غدا على استجوابنا له بالأمس، كما أن أمر محمود لازال عالقًا برأسي. أفتقده، وأفتقد بسمته وصفاء قلبه.

***

صباح اليوم التالي....

«الحور لسن بالجنة فقط»

فقد كانت إحداهن تقف أمامي بحديقة القصر. اللون الأخضر يكسو الفناء، بينما تجلس هي قرب حوض الماء، تتسربل في ثوب وردي مطرز بمنمنمات لورود وغزلان. كانت أناملها تداعب صفحة الماء، بينما تتطاير أطراف وشاحها المنسدل من فوق رأسها، مع نسمات تحمل عبير الزهور المتناثرة حولها. بلقيس هي في مملكتها.... تقف على مقربة منها بعض الخادمات، اللواتي ما إن لمحن طيفي، حتى ركضن وهن يضحكن ناحيتها، ألقين على مسامعها شيئًا، فاستدارت بوجهها إلى حيث أقف. ثوان مضت وأنا أتأمل وجهها المستدير وخدها الممتلئ، أفقت من حلم اليقظة حينما أمسكت بطرف الوشاح وتلثمت به. تلعثمت، وهممت أن أستدير وأمضي في طريقي خجلًا مما فعلت، لأجدها تقترب على مهل. اعتراني ذلك الإحساس بالضياع.. لم أكن أعرف كيف أتصرف، أأذهب أم أنتظر قدومها؟..

لم تمهل عقلي وقتًا كافيًا، فقد كانت تقف على مقربة مني ولثامها يشف عن شفتيها اللتين انفرجتا لتقول:

- أتعرف أن قدومك إلى هنا قد يكلفك الكثير؟

وضعت وجهي بالأرض، متحاشيًا النظر لعينيها السودوتين، القويتين بما يكفي لقتلي:

- أعتذر سيدتي... فقد ظننت أني بجنات الخلد مع الحور الحسان.

بدا أنها لم تتوقع جوابي، فقد ألجمت لسانها، وجحظت عيناها وقد
أحسست بخجلها يتجلى من تحت ذلك الوشاح الخفيف الذي امتص
حمرة وجنتها. أدركت الأمر على الفور لأقول:

- أعتذر مرة أخرى.... ولكن....

تلعثمت وأنا أتلفت حولي وأرى تلك الفتيات يقفن قرب حوض
الماء يتهامسن، وابتسامات امتزجت بخبث وخجل تغزو وجوههن،
التي حجبنها بأطراف أصابعهن. ظللت على هذا الحال لبضع ثوان،
قطعتها هي بصوت مرح:

- أيضًا الغزل قد يكلفك الكثير... يا حسن.

نطقت اسمي... نعم نطقت به.. لم أحس مطلقًا بروعة ذلك
الاسم، فكل حرف خرج من بين شفتيها كان له سحر خاص..
كل حرف حمل روحًا مختلفة، روحًا بعثت الحياة بصدري.. انتفض
القلب مع الحاء، وسرت الدماء في عروقي مع السين، وسُلب عقلي
مع النون..

« حسن....؟ »

انتفضت مع نطقها لها مرة أخرى. كنت بعالم آخر، بينما كانت تقول
بصوتها العذب:

- أين ذهبت يا حسن؟
- لا شيء.... أنا هنا

كانت كلماتي القليلة، التي لم أجد سواها لأنطق بها كافية بإثارة
موجه من الضحك.. صدى ضحكاتها جعل الطيور تحلق من على

أشجار البرتقال... وسرعان ما انتبهت لما تفعله، فتوقفت وقد
اعتراها الخجل، لتتراجع خطوات للخلف قائلًا:

- عذرًا...

رفعت يدي، وحاولت أن أقول شيئا ما، ضاع مع صوت رفيقاتها
اللواتي اقتربن منها في سرعة، فذابت بينهن، واتجهن إلى الحوض مرة
أخرى.

وأنا على هذه الحال، أبحث بعيني عنها وسطهن، أتتبع ما ظهر من
وشاحها القرمزي وسط فوضى الألوان المتداخلة، لمحت في طرف
الممر القريب من باحة القصر أباها... الوزير جعفر يسير، وإلى جانبه
عثمان، ومن خلفه جنده المقربون. تبعتهم عيناي، بينما ساقتني قدماي
نحوهم. تقدمت عبر ممر، محاط بأعمدة تحمل عقودا نصف دائرية.
كنت أقترب منهم، وعيونهم جميعًا ترمقني بشيء من الصرامة..
والمجهول.

***

داخل قاعة الديوان، جلست وعثمان ننتظر حتى ينتهي الوزير من
إملاء بعض الأوامر على قائد حرسه. حاولت أن أستفسر من عثمان
عن سبب تجهم الوزير، لم يجبني بأي إفادة، تركني أصارع هواجسي
عما سيحدث بعد قليل. عثمان الهادئ يثير توتري أكثر.. لا أعلم لما كل
هذا العناء في معرفة الغيب.. نجهد عقولنا في محاولات فاشلة لمعرفة
المستقبل، لا نستطيع صبرًا.. حتى موسى لم يكن ليصبر على الخضر؛
عليهما السلام. مرت اللحظات بطيئة، أحسست بكل نبضة يضربها

قلبي، الذي حاولت إيقافه بكل السبل، حتى يتسنى لي اختراق حاجز المكان، فقط بضع خطوات تفصل بيني وبين الوزير وقائد حرسه. حركات الشفاه هي أوامر غليظة، عقد لها الرجل حاجبيه، بينما توترت يداه على مقبض سيفه. كان هناك شيء ما يوحي بأهمية الأمر.

بعد انتظار، عاد الوزير جعفر إلينا وقد انشرحت ملامحه، وهو يرفع يديه قائلًا:

- الآن فرغت من كل شيء... سأجيب كل أسئلتكم، ولكن تعدانني أن الأمر لن يخرج من هذه الغرفة.

أومأنا برأسينا وهو يكمل:

- لا أعلم لما ارتاح قلبي لكما، وأنت خاصة يا حسن... منذ رأيتك أول مرة، وهناك شيء أنبأني بأنك ستكون ذا شأن. على الأقل سيكون لك دور مؤثر، حينما تتقدم بالعمر أكثر...

وما إن جلس أمامنا، حتى باغته عثمان:

- سيدي، قبل أي شيء ماذا يحدث في البلاد؟

لم أفهم السؤال جيدًا، ولكن يبدو أن الوزير فهمه جيدًا، فانطلق في الحديث قائلًا:

- الفوضى... الفوضى تغزو العقول، وقريبًا سترون العجاب..

أخفض نبرة صوته، ليضفي رهبة زادت من قوة كلماته:

- منذ عامين بدأ الأمر.. كساد وركود في الأسواق، ارتفعت أسعار الغلال مع رفع الخليفة لقيمة إيجارات الخانات والدكاكين.. إنه يملك كل الأسواق، وكل من يَملُك دكانا هو مستأجر، إلا قليلًا

منهم. كما أن الغلال قل منتوجها مع الصوامع الجديدة التي بُنيت. الناس الآن في حالة من الشح والفقر، أعلم ذلك ولا أستطيع فعل شيء، فالأمر يتفاقم.. تُكتنز الأموال عند الأغنياء، ويضيق الخناق على الفقراء. كما إن اضطرابات العسكر سببت حالة من عدم الاستقرار.. الأتراك والأحباش يتنافسون فيما بينهم، ولا أحد يستطيع السيطرة عليهم. ضَعفُ الخليفة، فضعفنا. رُدمت قنوات الري الآتية من الجنوب، ليتزامن ذلك مع شح المياه؛ لم يفض النهر منذ عامين. إنه جف أو أوشك على النفاد، ولا أحد يحاول حل المشكلة. حتى أنا، أمارس دورا صغيرا، لا أستطيع فيه خلق الأفكار، التي ترفض غالبًا من الحاشية السلطانية. إنهم يتحكمون في كل شيء، حتى الخليفة. يحمونه، فقط لأنه إمامهم وقائدهم الروحي، حتى وإن كان ضعيفا.. ولهذا أخذت قراري...

هوى الصمت فوق رأسينا، في انتظار ما سينطق به الوزير، الذي تلفت حوله قبل أن يقف وهو يقول:

- حسن؛ أتذكر عرضي عليك أن تأتي وتعيش بالقاهرة؟... كان عليَّ جلب، من أثق فيهم، ليكونوا عونا لي. ولم أجد أحسن من فتى سُني دمشقي، فإن تطلب الأمر ستكون أنت رسولي للشام للسلاجقة، لمساعدتي على وضع حد لتجاوزات هذه الطائفة الإسماعيلية.

لم أفهم ما يقول ولم أستوعبه؛ فالوزير السني الخانع الخاضع لسلطة شيعية، ليس سوى تابع لكيان آخر، وهذا ما أوضحه في حديثه عن ناصر الدولة الحمداني، الذي استقل ببعض أجزاء الشمال، وأعلن بيعته للخليفة العباسي السني، وسلطان السلاجقة ألب أرسلان.

جرت آخر كلماته كالسم في عروقنا، لم نستطع فهمها وهو يقول:

-عليكما الرحيل إلى الإسكندرية...

- الإسكندرية.؟؟

نطقناها سويًا في دهشة، بينما أكمل هو:

- نعم؛ عليكما حمل رسالة سأرسلها معكما إلى هناك، ومن ثم تُبحران للشام..

قاطعه عثمان:

- سيدي، هل هناك ما تخافه؟

بدا الغضب واضحًا على وجه الوزير، إثر سؤال عثمان، الذي تابع في محاولة منه لمعرفة المزيد من التفاصيل:

- لا أقصد... ولكن ما أقصده هل هناك أمر تخفيه عنا، تخاف علينا منه؟

توجه الوزير ناحية مجلسه بخطوات ثقيلة وهو يقول:

- ماذا تريدان معرفته؟

أسرعت بالإجابة، التي كانت سؤالاً سبق لسان عثمان:

- من ذلك الرجل الذي كان بالموكب؟

هناك إجابات ليست منطقية، ولكنك تتجاوزها.. أما تلك الإجابة، فلم أكن أتوقعها مطلقًا. لم تكن غير منطقية فحسب، بل كانت مستحيلة الحدوث... وهو أن يسقط الوزير وصوت الألم ينفجر من حلقه، الذي اتسع لتضيق عيناه في وجع واضح. خر

الوزير على ركبتيه، وقد نفذ من صدره رأس سهم، لم ألمح إلا طيفه وهو يعبر النافذة، بينما جاء صوت أزيز آخر سرعان ما أن كُتم برقبة الوزير، مخلفًا خلفه شقًا في ستائر حريرية، راحت تتطاير بفعل نسمات تحمل الموت.

***

كل شيء قد تجمد.. الوزير يتهاوى أرضًا في بطء.. عثمان يقفز من فرط الدهشة، التي امتزجت بهلع صبغ وجهه. سهم آخر استقر بإحدى الوسائد القريبة مني، وذلك ما حرك الزمان مرة أخرى. ركضت بسرعة نحو سيدي جعفر، جاهدت في جذبه بعيدًا عن مرمى السهام، سحبته وقد تخضب ثوبه بالدماء، احتضنته وأسندت ظهري للحائط. كان عثمان يقف إلى جانب النافذة قائلًا:

- لم يمت، أليس كذلك؟ لم يمت!!

لم أبال بما يقوله عثمان، وإنما جثوت على ركبتي وأنا أتفحص الرجل الذي يصارع الاحتضار.. كانت عيناه تغرب، أمسكت برأسه وأنا أصيح به:

- اصمد يا سيدي... اصمد.

تزامن مع كلمتي الأخيرة سهم آخر، استقر بالنافذة الخشبية.. حاول الوزير أن يقول شيئًا، ولكن راحت محاولاته هباءً. كانت صوت صيحات يأتي من الخارج، ويبدو أن الحرس قد فطنوا للأمر.. تبادلت النظرات مع عثمان، الذي مازال ملتصقًا بالحائط.... يدي مخضبتان بالدماء، والرجل يلفظ أنفاسه؛ حتمًا سيقولون أننا القتلة.

ولكن السهام في ظهره تثبت براءتنا.. فلتذهب السهام للجحيم، لن يبالوا ولن يصدقوا. كل شيء اصطبغ بالخوف.. قبضت يداه على ملابسي بقوة.. صار يجذبني بكل ما أوتي من حياة، وبصوت خافت همس:

- ابق حيًا!

و سكن صاحب السر. مات دون أن يخبرني بأي شيء، سوى أن أبقى حيًا. لم يكن أمامي سوى تنفيذ وصيته، فأرقدت جسده أرضًا، ومررت أصابعي على وجهه لتكون آخر ما تراه عيناه الخاليتان من الحياة، ويغمض جفن الوزير جعفر الماوردي للأبد. ما كدت أنهض، حتى وجدت شبحا أسود يبرز على حافة النافذة مشهرًا سيفه، ولكن عثمان فاجأه بركلة قوية ردته خارجها. ما إن حدث هذا، حتى أسرعت نحو الباب، أزحت المزلاج، لأفاجأ بجنديين يهمان بالدخول. في سرعة أغلقت الباب وعثمان يقول:

- أيها الغبي تعال من هنا...

كان يشير الى النافذة الأخرى المطلة على حديقة الأميرات. تسلقنا المشربية في خفة إلى السطح، ومن ثم ركضنا بأقصى ما يمكن نحو الدرج، وخلال ركضنا. رأيت الجند وهم يتفحصون جسد ذلك الملثم السابح في بركة من الدماء.. نزلنا الدرج إلى المبنى المقابل في خطوات واسعة. كنت أسبق عثمان، لأرتطم بجسد ليس بالقوي، مع صرخة أنثوية دوت مع سقوط صاحبة الجسد. تجاوزني عثمان في بضع خطوات، ولم يبال بتلك الفتاة التي افترشت الأرض وتناثرت

خصلات شعرها لتغطي وجهها. كدت أمضي قدمًا، حينما أزاحت خصلاتها لأفاجأ بها... إنها آخر شخص أتوقع رؤيته.... ابنة الوزير!

- هيا يا حسن، لا وقت لدينا

استدرت لعثمان، الذي نطق جملته في سرعة.. عدت بنظري، لأجدها قد وقفت ويبدو على وجهها التوتر- بينما أمسكت ثوبها في حفظ قائلة:

- ماذا يحدث؟

أجبتها باقتضاب:

- لقد قتلوا والدك.

ظهر الارتياع على خلجاتها، ورفعت يدها لتضعها على فمها لتمنع صرخة لم تغادر حلقها. استدرت معها لعثمان الذي كان يحثني على الإسراع. تركتها في صمت، ورحت أركض باتجاه عثمان، الذي جحظت عيناه وهو يحدق فيما خلفي. توقف ووليت وجهي للخلف، كانت ابنه الوزير تلاحقني وصوتها يعلو:

- انتظراني.. سآتي معكما.

قالتها ودموعها تنساب ممتزجة بكحل عينها، راسمة طريقا أسود عبر قسمات وجهها. استغربت من كلماتها، فقلت بصوت أقرب للهمس:

- ولما تأتي معنا؟

قالت بصوت يملؤه الأسى:

- أخاف أن يقتلون كما قتلوا والدي... أرجوكما خذاني معكما، لا تتركاني هنا...

كلامها كان مقبولا، ولم يكن هناك وقت للحديث.. لم يكن هناك وقت لشيء، فقط الهروب ولا شيء سوى الهروب. عبرنا الممر المؤدي للحديقة، لنتخطى قوسا وجعبة سهام ملقاة بين الأشجار... سلاح الجريمة؛ كيف وصل إلى هنا؟

يبدو أن القاتل ألقاهم أثناء هروبه.... وها نحن نسلك طريق هروبه.

***

الإسكندرية

٢٤ ذي القعدة ٤٦٢ هـ - ١٠٦٩م

الهواء الساخن يلفح وجهي، وصوت طرقات الحديد صار رفيقي. أجد خلاصي بين الحديد المصهور ونيران الكير.. نيران تمتزج بها أعين قاتلة، بينما اختفت ملامحها بفضل لثامها الأسود. أناس غيروا مجرى حياتي، من طالب علم إلى طريد، ليستقر بي الحال حدادًا، أفرغ غضبي على نفخ الكير. القدر وحده يعلم ما القادم...

مرت الآن أكثر من أربعة أشهر، منذ مقتل الوزير جعفر الماوردي. لم يكن هنالك من طريق سوى الهرب. الهرب من شيء لم تقترفه يداي. بعد هروبنا من قصر الوزير، عرجت على الفسطاط، وبالتحديد إلى زقاق القناديل حيث كنت أسكن، وسط ترقب وحذر دخلت الحارة

عائدًا، بينما ظل عثمان و«زبيدة» ينتظراني عند سبيل الماء. كانت الحارة في رونقها المعتاد، السكون ولا شيء سواه. تثاقلت خطاي كلما اقتربت من باب المنزل، الذي ما إن لامست يدي مقبضه، حتى أتى من خلفي صوت أألفه جيدًا، ولكنه أفزعني:

- حسن... لم أكن أتوقع أن تعود.

كان ذلك صوت الست «فاطمة»، شبح الزقاق ومتطفلته. التفت لها، لأجدها تحمل صغيرها المحروس، كما كانت تطلق عليه. لم أكد أجيبها حتى أكملت:

- أأنت بخير؟

حركت رأسي بإيجاب، بينما تابعت:

- وجهك شاحب يا ولدي، ماذا حدث لك؟ أين كنت طوال تلك الأيام، فمحمود....

مع نطقها اسم محمود انتبهت حواسي، لأستمع بقية حديثها، الذي قاطعه صوت محمود، الذي كان قد فتح الباب من خلفي قائلًا في دهشة اتضحت من نبرته:

- لا أصدق ما أراه أمامي!

استدرت، لأجد نفسي أحتضنه قائلًا:

- الحمد لله أنك بخير يا محمود... الحمد لله أنك مازلت هنا يا صديقي.

جذبني محمود في قوة للداخل، دون أن يبالي بالست فاطمة، التي صك الباب في وجهها، بينما أزاحني عنه وهو يهمس:

- ماذا جاء بك إلى هنا؟

فاجأني حديثه بتلك اللهجة، فحاولت أن أطيب خاطره وأعتذر عما بدر من هروب وتركه خلفي، ولكنه أكمل في سرعة مبددًا ما بعقلي من كلمات كنت أعدها لألقيها على مسامعه:

- حسن، إنهم يبحثون عنك... وسيجدونك، وقد أقسموا على ذلك.

كنت أحاول قول شيء، ولكنه وكزني مبتسمًا وهو يقول:

- لا تخف، أنا بخير.. فلن يضرهم سمين كسول مثلي. اذهب يا حسن عد للشام.. عد لدمشق يا حسن.

ألجم لساني واطمئن فؤادي، فمحمود مازال حيًا، وهو الآخر يطالبني بالرحيل. سأعود للشام، سأذهب للإسكندرية، ومع أول سفينة سأرحل عائدًا للشام. هكذا هو الأمر، سأرحل دون أن أخبر شيخي عبد الرحيم وأمي مريمة، لن أذهب للقطائع حتى لا أعرضهما للخطر... ولا أعلم لماذا لم أخبر عثمان وزبيدة عن لقائي بمحمود... كان عليَّ الرحيل كما نصحني، فقد اكتفيت من مصر، اكتفيت من فسطاطها، وقاهرتها التي قهرتني.

***

الإسكندرية، أو كما يُطلق عليها: «باب المغرب»، فهي أولى المدن التي تصادفك في بر مصر، في طريق الحجاج القادمين من المغرب والأندلس. مدينة لم أر مثلها، تفوقت على القاهرة في رونقها وطابعها.. عمارتها تعكس حضارة أمم سكنتها من قبل، ومنازلها

البيضاء تعكس نقاء أهلها، فتجد المسيحي واليهودي والمسلم في مكان واحد، لا تفرق بينهم، كلهم داخل سور واحد عملاق يحيط بالمدينة، تقع خارجه مروج خضراء، تنتظر مياها لم تعد تجري في مجاريها، التي عوضتها الصهاريج والآبار العذبة. شوارعها نضرة واسعة، وقصورها لها من البساتين ما تسر الناظرين، تملّكها الشمس من شروقها إلى غروبها، أسواقها عامرة بالبضائع الآتية عبر بحرها، الذي تحكمه المنارة، التي لم أر مثلها في البلاد، كبيرة شامخة تطل بأبهتها على المدينة، أعجوبة بطوابقها الكثيرة، ونيرانها التي تحيل ظلمة البحر إلى نهار. لم يدم بحثي عن عمل طويلًا، فسفن الشام تحتاج مالا وفيرا، وديناري الذهبي لا يكفي، لذا التحقت بدكان للحدادة. انصهرت بين الحديد والنحاس، أنهي عملي وأعود في المساء إلى حجرتي، حيث يرافقني عثمان بالسكن ليلًا، فنهاره يقضيه في السوق حمالًا. أما «زبيدة»، فكانت لا تستطيع فعل شيء، فمن عاش بالقصور تصعب عليه حياة الشقاء. استأجرنا لها غرفة مجاورة لنا، لا تفارقها إلا للضرورة... كانت عبئا ثقيلا على كاهلنا، لا أعلم ما سيحدث لها حينما أرحل.

ولكن كيف أرحل وقد انسابت نبضات الحب إلى قلبي؟ نعم أحببتها، وأشفق عليها من الفقر.. مال قليل، وزاد أقل.. ليس لها ملاذ سوانا. ولكنها تقضى وقتًا أطول برفقة عثمان، فهو يعود قبلي من عمله. أظن أنه أيضًا يحبها.. لا أعلم؛ قد يخيب ظني، ولكني أحسهما متناغمين، ولا ينفكان الحديث عن رسالة أعطاها لي الوزير قبيل وفاته. أنكرت في البداية، وهو الصدق. وكذبت في النهاية، حتى

أستريح من وابل الأسئلة؛ ولكنها لم تتوقف.

أسئلة متلاحقة عن ناصر الدولة الحمداني، وما قاله الوزير قبل أن يلفظ أنفاسه الأخيرة. الأمر العجيب أن «زبيدة» تناست والدها بسرعة، أو أنها تحتفظ بحزنها بأعماق قلبها، فلا تفصح عيناها السودوان عما يجيش به صدرها. زبيدة هي ما يبقي ابتسامتي على قيد الحياة.. سبب كافٍ لرسم البسمة على وجه يلفحه لهب الكير يوميًا. الحياة أجمل برفقتها. مرات قليلة خرجنا إلى شاطئ البحر. أذكر ذات يوم، كان البحر هادئًا بلا أمواج، فقط رائحة البحر بملوحته يحملها هواء رطب، وشمس راحت تسبح في الأفق، وقد زينته بلون أحمر يزداد انفتاحًا كلما اقتربت من سطح الماء.. فقط المنارة البيضاء الكبيرة هي من تراقبنا. كان الأمر مذهلًا، حينما قررت الحديث وكسر حاجز التأمل قائلة:

– حسن، المشهد رائع هنا.

«أنت من تضفين الروعة على المشهد يا زبيدة»

حدثها عقلي بما لم ينطق به لساني. عليَّ أن أعترف أني هائم بحبها، ولا أستطيع مصارحتها؛ فكيف يصارح حسن الحداد زبيدة ابنة الوزير السابق في البلاط الفاطمي.. حتى وإن أصبحت واحدة من العامة، فهي تختلف عن طبقتي، كما أنها شيعية المذهب، حتى وإن أخفت ذلك، فكثيرًا ما كنت أسمعها تستغيث بالحسين وعلي رضي الله عنهما. حتى وإن أحببتها، فقد كرهت كثرة سؤالها عما سنفعله؛ والحق أقول إني لا أعلم ما سأفعله، فقط حلم العودة لدمشق

راودني، وأسئلتها عن رسالتي التي أحملها عن أبيها لا تتوقف. مت هذا الحديث اليومي عن تلك الرسالة.. هل عليَّ أن أصرخ ها لأسمع من بهم صمم؟

لا تفوتني فرصة لمعرفة أخبار القاهرة. أسأل بعض القادمين من هناك، بوجوه غبرتها أتربة الطريق. كلمتان فقط تسيطران على كل من يأتي راحلًا عبر الميناء: الوضع سيء.

***

قبل أن آتي إلى مصر لطلب العلم، لم يخطر بخيالي أن أكون طريدًا شريدًا، أهيم بمدنها التي بدأت المجاعة تضربها. صدقت نبوءة شيخي عبد الرحيم، فقد طغى أهل البلاد، وحان وقت العذاب.. عذاب لن يفرق بين غني وفقير، بين قوي وضعيف، ولن يفرق أيضًا بين المخلصين والفاسدين، الكل سيُجبر على الانصياع للقدر. لقد ابتعدنا عن الدرب، وحان الوقت للتقرب والتضرع.. حان الوقت لنعود لرشدنا، ولكن كيف وهم في غفلة معرضون. حتى أهل الأسكندرية أصبحوا حادّي الطباع، يكنزون الغلال والبذور، وكثيرًا ما يصطادون. ذلك البحر هو نعمة- أو قد يكون هلاكا في موجة تقضي على الأخضر واليابس. لا أعلم لما جال كل هذا بخاطري اليوم؛ ربما لأني رأيت استقواء من معه السلاح على الضعفاء، ممن يتوسلون بعض الغلال القادمة عبر البحر. هل الفقراء سينالهم ما سينال الطغاه؟ أين العدل الإلهي في إنزال العذاب بصالحهم وطالحهم على السواء؟!!

أذكر ذات يوم، أخبرني شيخي عبد الرحيم أن الله يمس الناس بالضراء، لعلهم يرجعون إليه.. وحين تمسهم السراء، يبتعدون عنه. إن لله سهاما يصيب بها من يشاء، وإن أردت النجاة عليّ أن ألزم مكاني بجوار الرامي. إذن فالناس جميعهم سواء، ولكنه ينجي برحمته من يشاء. قد يكون شيخي بالغ قليلًا فيما هو آت، لكن أوليس الفقر والشح بلاء؟... نعم قد يكون هو عذاب الرحمن، فالفقر يولد الحقد والطمع، أما الشح يُفعِّل الشهوات ويثير غريزة أصبحت جلية في الوجوه. قد يفعل المرء أي شيء للبقاء على قيد الحياة؛ إنهم يحبون الدنيا، أصابهم الوهن، كثرت السرقة في الأسواق بين العامة؛ ففي الطبقة الدنيّة يسرقون الضئيل، أصبحوا أشبه بفئران تتسارع خفية لقضم جزء من رغيف يابس.

في ذلك اليوم، بينما تم القبض على لص، وتجمهرت الناس حوله، رأيت عجبًا.. لص يسرق جوال دقيق، فينهال الناس عليه ضربًا. يتناثر الدقيق، فتلتقمه جيوب الضاربين!....

أما الطبقة العليا، فهي تجبي الأموال عنوة، عن طريق الجباية وفرض الأتاوى في شكل قوانين صارمة. فبرغم سيطرة الجند التركي على الأمر، وإبداء الولاء للخليفة العباسي، ومن خلفه السلطان السلجوقي، إلا أن نفوس الناس قد تشربت النفاق. فالجباية لا علاقة لها بالجند التركي، الذي ينال بعض أمرائه الهدايا والعطايا، وتقام الاحتفالات لهم على طريقة الخليفة العبيدي في القاهرة.. الحلوى تُقدم من كنافة وقطائف إلى جانب ليالي سمر. إذن من كانوا يريدون الانفصال عن الخليفة المستنصر ليسوا سوى فاسدين

آخرين، يتملقون السلطان المسيطر على الخليفة ورافع لواء السنة «ألب أرسلان».. ترى كيف هو؟!!

***

هناك من يعبث بأوراقي!... قد أكون أهملت كتابة يومياتي، ولم أعد أكتب كثيرًا منذ قدومي للإسكندرية. العمل الشاق نهارًا يمتص روحي امتصاصًا، فأصير جسدا لا روح فيه، لا أحلام، لا إحساس، فقط سِنة من نوم تكفي. وجدت اليوم كل الأوراق مبعثرة. لا أعلم من أطلع على بوحي؛ أظنه عثمان. على كل حال، بماذا ستفيده قصة بائس مثلي.

أفتقد كل شيء له معنى بحياتي. أبي الذي لا أعلم عنه شيئا، أشتاق لرؤياه، ولن يتحقق ذلك إلا بالعودة للشام. كما تلاحقني كلمات شيخي عبد الرحيم ودروس مسجد عمرو بن العاص. اشتقت للحديث معه، والجلوس إلى جوار أمي مريمة. لا يغيب محمود وزقاق القناديل في الفسطاط عن مخيلتي. الشيء الوحيد الذي يصبرني على وجودي هنا هي...

لم تحدثني كثيرًا عن أمها، أو الحياه مع أبيها. كلما حاولت الحديث، تراوغ. أحسبها لا تريد تذكر ما حدث. وحينما أنوي أخبارها بحبي لها، تغتالني سهام الجبن. نعم أنا جبان أمامها، لا أريد خسارتها كأخت وصديقة تحتمي بجدار هو ضعيف بالأصل. وهذه هي الحقيقة الثانية بعد الجبن.. الإحساس بالضعف وقلة الحيلة قد يكونان ثمار الهروب والخوف؛ فمع كل إشراقة لشمس يوم جديد، تجثم الهموم فوق قلبي،

أحس بثقلها، لا أستطيع الهروب منها، تزدحم الأفكار مسببة ألما برأسي، صار يتزامن مع طرقات المطرقة على الحديد الساخن.

***

تفاجأت اليوم بعثمان في محل عملي. علامات الارتياع على وجهه تسربت إلى قلبي، الذي توقف عن ضخ الدماء لساعدي، الذي بدوره ترك المطرقة تسقط إلى الأرض. كانت الدماء على وجهه وقميصه المقطع توحي بأكثر الاحتمالات التي أكره تخيلها. أسرعت نحوه وصوته يتزامن مع خطواتي:

« لقد اختطفوا زبيدة يا حسن »

تهاوى بين ذراعي، ممسكًا في يده عصابة خضراء، وتهاوى قلبي إلى اللهيب المستعر.. إنهم القتلة الملثمون!...

قطعت أنياب الحيرة عقلي...

حملوها معهم للقاهرة؛ هكذا قال عثمان، وعلى ذلك طوينا الطريق إلى القاهرة طيًا، لم نسترح طوال الطريق. كل ما ادخرناه من مال، تم دفعه لاستبدال الخيول بطريق جرداء. الأرض أصبحت قاحلة على عكس ما رأيناها منذ ما يقارب الأربعة أشهر، حين كانت تمتاز بالخضرة اليانعة. الآن الطريق مقفر... قرى بائسة تضفي الألم على وجوه قاطنيها.. قنوات ري مدمرة، تشققت أرضيتها الجافة.. لم يكن طريق العودة للقاهرة سوى طريق إلى النهاية. سأنقذ زبيدة مهما كلف الأمر حتى وإن تخلت الروح عن جسدي. لا أعلم أهي الشهامة أم الحب.. إنها رحلة الانتقام... ولكن ممن؟ فجميعهم ملثمون، لا

أدري من أين ستكون البداية.. أم هي النهاية؟!

قبل أي شيء، عليَّ أن أعرج للقطائع.. عليَّ أن أقابل شيخي عبد الرحيم. وهناك شيء أخير يجب أن أفعله!

«المجلد الثاني»

«بداخلنا تقبع غريزة وحشية.. تخرج حينما تريد روحك الحياة»

القطائع

٤٦٣ هـ - ١٠٧٠م

ها أنا أعود للكتابة، بعد انقطاع طويل نسيت فيه كيف يمسك القلم، وكيف تُخط الحروف والكلمات. لا أدري لم ارتعشت يدي، وسرت تلك القشعريرة الدافئة عبر أناملي، لأحس بتلك الوكزات في عقلي.. أكاد أسمع تسارع دقات قلبي، قلب عادت له الحياة حينما تنسم الحرية. ولكن مهلًا ليس هنا نسيم للحرية.. فقط الوجوه الشاحبة والعيون المتحفزة، ورائحة تغزو الأخضـ... عذرًا فلم يعد هناك شيء أخضر، فقط هناك اليابس. تيبس كل شيء، أصبحت الوجوه قاسية، تفتقد شعورًا هو الأبرز على تميزها بين المخلوقات.... شعورًا آدميًا.

لا أعلم من أين أبدأ، بعد عام من التوقف عن كتابة يومياتي. على كلٍ، سأبدأ من حيث توقفت...

أتذكر ذلك اليوم جيدًا، حينما فوجئت بعثمان المدمى، بخبره أن زبيدة قد خُطفت إلى القاهرة.. عدنا إلى القطائع مباشرة، إلى بيت

شيخي عبد الرحيم، الذي استقبلني بشغف وحفاوة.. تجعد وجهه أكثر من أثر المرض الذي سرى بأوصاله، صار يتكئ على عصا غليظ، متحاملًا على ألمه الذي لا يريد أن تشعر به مريمة، والتي كانت بدورها تعلم ما أصاب زوجها من عِلة النهاية. استقبلتني بذراعيها فرحة، واتسعت الدنيا ببسمة ثغرها.. إنهم عائلتي بهذه الديار، التي عُدت لها مجددًا بحثًا عن حبيبة سُلبت قبل أن أخبرها بمكنون قلبي. لا مكان للجبن، فهي وثقت بي وهربت معي من القتل على أيدي قتلة أبيها الوزير جعفر الماوردي. أمنت من خوفها معنا، وصارت مهجة القلب وصبري على ليال طويلة، كانت هي قمرٌ يبدد ظلمتها. لم أكن أعرف ما أنا مقبلٌ عليه؛ ولكن حدسي يخبرني أنها تنتظرني بمكان ما، لأخلصها من أغلال وقيود هؤلاء القتلة.

بقى عثمان ليؤمن الطريق عند بوابة القطائع. تركته بين جمع من الناس، كانوا يتقايضون بعض البضائع، مع مرور موكب للدراويش بأعلامهم الخضراء، متجهين لقبر أحد أولياء الفاطمين بالقاهرة. وفي منزل الشيخ عبد الرحيم، طال الحديث عن فترة غيابي وعدم إخباري لهم عن رحيلي. ظنوا أني ذهبت للشام، أو هكذا عرفوا عن طريق محمود، الذي مازال يسكن زقاق القناديل، وقد زار الشيخ ذات يوم وأخبره بلقائنا الأخير. أقسمت مريمة على أن يكون غدائي معهم، أما الشيخ عبد الرحيم فقد أصر على أن أتحمم وأبدل ملابسي، ألقى لي منشفة ودفع بي دفعًا إلى الاغتسال من عناء الطريق الطويل. كنت أصب الماء لينساب، مع أسئلة شيخي المتلاحقة. أخبرته عما حدث في قصر الوزير، فكانت الدهشة تسيطر عليه، بينما حكيت له في

عجالة عما حدث معنا بالإسكندرية... خرجت، لأجده جالسًا على أحد الأجولة، ممسكًا بملابس نظيفة من ملابسه. أصابني الخجل، فشيخي ينتظرني حاملًا ثيابي الجديدة. أحنيت رأسي، ومددت يدي مسرعًا وأنا أقول:

- عذرًا يا مولانا.

ضحك وهو يداعب فروة رأسي بيده

- أنت ابني يا حسن.

أنهينا الغداء الشهي، وبينما دلف شيخي إلى غرفته، كانت مريمة بغرفة الطبخ تعيد ترتيبها، فهي تكره الفوضى، ولا تؤجل عملًا قد يسيء لمظهر منزلها البسيط. لا أعلم لما جاءتني فكرة أن أخفي أوراقي. رتبتها في قطعة من جلد ماعز كان على سور السلم الخشبي العتيق. انتهيت من تغليفه سريعًا، لأضعه مرة أخرى داخل قطع من الصوف. مرت مريمة ولم تلاحظ ما أفعل. أظن أنه خيل لها أني أرتب أغراضي داخل حقيبة هي صانعتها. انتظرت حتى أتيحت لي فرصة أن أخلو بنفسي بحظيرة الماعز التي فقدت قاطنتها الوحيدة، مع بعض إوزات لا أعلم مصيرها. ثلاث خطوات من الباب ناحية الجدار، منتصف الحظيرة تمامًا، تلفت حولي، وبدأت الحفر أسفل قدميّ، عمق أقل من ذراع، ألقيت فيه وريقاتي المغلفة جيدًا. واريتها الثرى، وطمست على معالم الحفرة بنثرات من القش والشعير و.....

- حسن، ماذا تفعل هنا؟

استدرت، لأواجه مريمة متصنعًا البلاهة:

- ألم يكن هناك بضع أوزات؟

بينما كانت نفسي تحدثني سرًا أنها لم تر ما دفنته بأرض الحظيرة...

***

قضيت الوقت برفقه شيخي عبد الرحيم، الذي فاض عليَّ من علمه وحكمته. لامست روحي كلماته وأبوته، التي استنشقت عبيرها في نبرة صوته، أنارت بصيرتي، فكل حرف ينطق به يتحفظ عليه عقلي، حتى غفوت...

طرقات عنيفة أيقظتني.... يبدو أن الشيخ عبد الرحيم لم يسمعها، أو أنها أضغاث أحلام... أغلقت جفنيَّ مرة أخرى في سِنة من النوم، لتعود الطرقات القوية تدوي.. هذه المرة حقيقة، ولكن كم الوقت الآن؟.. لم يعد هناك ضوء آت عبر نافذة صغيرة تصطبغ خلفيتها بلون السماء القاتم. ألقي عثمان إلى ذهني.. كيف نسيته طوال هذا الوقت؟! يبدو أني قد مِت مؤقتًا. الطرقات تعود من جديد، مع صوت عثمان خافتًا.. نعم إنه عثمان ينادي باسمي. نهضت عن فراشي في سرعة، متجاوزًا الغرفة في بضع خطوات. الأرضية الباردة جعلتني خفيفًا متحاشيًا الضغط على قدمي، فصرت أشبه بِهرة راحت تخطو في سرعة نحو عصفور غافل تحت ضوء قمر فرش وهجه الفناء ببريق فضي. فتحت الباب في حذر، لأجده يحاول أن يريني وجهه أكثر أمام تلك الفتحة الصغيرة. كان غاضبًا وهو يقول:

- نائم أنت ونسيت أن هناك من يقبع وحيدا في الأزقة والحارات!

حركت رأسي في أسف وأنا أقول:

– عذرًا يا عثمان، فقد غفوت ولم يوقظني أحد...

أعطيته المساحة الكافية ليدخل. تجاوزني وأنفاسه الباردة تلفح وجهي. عبرنا الممر الضيق إلى الفناء بطريقنا إلى الغرفة، فأوقفني قائلًا وقد تبدلت ملامحه الغاضبة، ليحل محلها الوجه المرتاع:

– إنهم في الجوار، علينا الرحيل... أحضر أوراقك ولنرحل.

تجمدت في مكاني واضطربت أنفاسي... استدرت له وسموم القلق تسري بعروقي، جعلت لساني ينطق:

– حان الوقت للتوقف عن الفرار.

لم أكد أكمل كلمتي، حتى سقط شبحان من أعلى السقيفة إلى جوار عثمان، الذي لم يتحرك من مكانه ولم تبد عليه أثر الفزع أو الدهشة. كان يقف كأحد آلهة قريش جامدًا صلدًا. تراجعت، بينما خرج شيخي عبد الرحيم من غرفته فزعًا مهرولًا، ليتفاجأ بما وقعت عليه عيناه. حاولت النهوض، وقد انتابتني الدهشة مع دخول عدد أكثر من الجند. إنهم أصحاب العصائب الخضراء، العسكر الخاص بالخليفة المستنصر. كان الأمر عبثيا. فقدت الإحساس بذلك الشيء المسمى القلب لم يعد له وجود، مجرد هوة فارغه تنتظر الموت، الذي تأخر هذه المرة. فقط لدغة قوية عقرب يسمى «عثمان»، كانت لكمته كفيلة بإرسالي إلى غياهب الظلام.

« الثقة مقبرة الصداقة «

هكذا قال شيخي «عبد الرحيم» – رحمه الله –.. إن لم يكن الشيخ عبد الرحيم يُرحم، فمن سيرحم الله من عباده. أظن من كان على

مثل خلقه لا يليق به سوى جنات عدن. الشعور بالعجز هو ما يجعلني أجهش بالبكاء، وتختنق كلماتي. اختلطت الدموع بصرخات تطلب عذاب من هم في الدرك الأسفل من النار. لم أستطع إنقاذه، كان يبتسم وسكين الغدر تتسل إلى صدره. تفجرت الدماء بصوته، الذي تمتم بذكر الواحد الأحد. لم تنهر قواي بعد، فمازلت قادرًا على التملص من أذرع الجند. لو أن لي بك يا عثمان قوة! حاولت الإفلات، أمام نظراته الشامتة، وقد راح يمسح ما علق بسكينه من دماء الشيخ الزكية. صرخات أمي مريمة المتتابعة، وحركة الجند نحوها أفقداني عقلي، فصرت أقاوم، حتى استطعت تحرير ذراعي الأيسر، الذي تركته ينطلق نحو وجه الذي مازال ممسكًا بيميني، ليتراجع، وأفلت من بين يديه. ما إن تحررت، حتى فاجأتني ضربة على رأسي، ففقدت توازني وفقدت القدرة على السمع، وسرعان ما كانت الرؤية المشوهة تسيطر على عينيّ، زسقطت أرضًا وعيناي ترصدان قدمين يخطوان ناحيتي، لم أميز صاحبهما الذي وقف عند رأسي مع تزامن ليل هبط على جفوني.

***

لا أعرف المغفرة، وأرجو أن ينال الجميع نصيبهم من الخطيئة والذنوب في الحياة، ومن بعدها جهنم وجحيمها الأبدي. أنا ضحية ثقة عمياء.. أشتهي موتًا ولو على سبيل الاستعارة... أصبحت كغراب يشحذ منقاره على ظهر جثة طافية، في مستنقع شطآنه من القبور. أيامي طويلة، أحصي فيها مراحل مرور الشمس عبر نافذة ضيقة، على بعد أذرع من أرضية جافة، لزنزانة كانت جدرانها الأربع

هما مجال رؤيتي لعام، زاد أو نَقَصَ بضع أيام. حُملت إلى سجن لا أعرف بأي أرض هو، كل ما أعرفه أن التعذيب له مذاق سيء.. مذاق تفوق حد الشعور بالألم إلى أن أصبحت أنا الألم الذي يعاني منه التعذيب. سئموا تعذيبي، وسئمت أسئلتهم عن السلطان «ألب أرسلان»، وأين أخفيت رسالة الوزير جعفر.. رسالة ليس لها وجود إلا بعقولهم، وعقل من تجسس على مذكراتي.. الخائن القاتل عثمان، كل هذا من تدبيره. وعودهم بالإفراج عني وإطلاق سراحي، فقط مقابل التشيع وموالاتهم وأن أصبح أحد رجالهم باءت بالفشل. لن أؤمن بعقيدة الإسماعيلية، ولن أترك ما أنا عليه. أخيرًا ألقيت في زنزانة خاصة، ليكون رفيقي سؤال وحيد..

«ترى ما هو مصير زبيدة؟»

زبيدة ضيفة أحلامي، هيمنت على وحشة زنزانتي، في الأيام الأولى بمحبسي الجديد، وبعد رحلة لأكثر من شهر بين أمواج الألم. كان هناك أمل سرعان ما تلاشى. كنت أستمع لصيحات مساجين آخرين، ينادون على الحراس عبر كوة أبوابهم، يدعون البراءة من جرم لم يقترفوه. حالهم كحالي، فأنا هنا بسبب شيء لم أقترفه، راح ضحيته أبي الشيخ عبد الرحيم، وأمي مريمة التي لا أعلم ما حدث لها، فها أنا أقبع في غياهب الظلام، أتحين قدوم لقيمات تُدس من أسفل الباب. طبق من حساء سيء المذاق، وكسرة خبز، إبريق خشبي لا يكاد يمتلئ بالماء، هي حصتي ليومين. تأقلمت على هذا، فقد نذرت للرحمن صومًا. أتحين الضوء الأحمر القادم عبر النافذة لأتبين المغرب، أكاد أسمع همسات المساجد البعيدة لا أدري أذان شيعي كان أم سني. لم

أر وجه سجاني إلا مرات قليلة، كان يفتح الزنزانة كل شهر، يسوقني مكبل اليدين والقدمين إلى قبو قاتم رطب، حيث يَسكب أحدهم قدرًا من الماء بارد على رأسي. قطرات تكفي لأن تذهب تلك الرائحة عني.

الصوم، الصلاة، التضرع حتى أخرج من ذلك القبر، فقد مسني الضر ولا كاشف له سواه.. ناجيته وسبحته، ولكن لم يقذفني الحوت إلى البر. طالت الأيام، ورسمت بأظافري على الحجر شمسا وقمرا، بحرًا وشجرا، طيورًا تحلق في جدران صامتة، بينما كان صاحبا السجن عنكبوت وفأرًا، أحدهما يغزل بيته الضعيف في كل زاوية، أراقبه يوميًا لا يكل ولا يمل، يتأرجح على خيوطه متنقلًا بين الجدران، ويساق له رزقه كلما اجتهد في نصب أفخاخه. حظها تعس تلك الذبابات التي تعبر النافذة هربًا من حر مستعر بالخارج، فتدخل ليقبض عليها، يأكل ما يأكله ويكفن ما تبقى وفاض عنه. ذلك اليوم أمسك بصرصور، وصار يدثره بحريره حتى أخفاه، ولكن الصرصور كان كبيرًا كفاية، فلم تتحمله شباك العنكبوت الواهنة، ليسقط إلى الأرض، فيلتقمه الفأر، صاحب الجحر الصغير أسفل مرقدي. لقد ألف وجودي، وأصبح لا يعبأ بي، يتقافز هنا لينال بعض فتات الخبز الجاف، وما بقى في إناء الحساء، إن كان به شيء، يلعق الطبق الخشبي. كان يستحي ويتحاشى النظر لي، فقط يأخذ ما يريد ويدلف لجحره. في بعض الأحيان، كان يخرج من فتحة إدخال الطعام التي أسفل الباب الخشبي المرصع بالحديد، ويعود حاملًا جزءا من ثمرة أو قطعة من خضار.

خلف القضبان، وفي غياهب الظلام، قبعت أنتظر الأمل. انتظرت كثيرًا ولكن قد غادر الأمل تلك الأنحاء.. رحل تاركًا تلك البلاد.

أعيش في قبري، هذا كان حالي، يزورني طيفها بين الحين والآخر.. تتلاشى كلما حاولت أن أمسك بها. يبدو أن الجنون نال حظه مني، كما نال الشيطان نصيبه، متجسدا في هيئة ذلك الرجل يوم الموكب.. عباءته السوداء وتجاعيد وجهه التي تضيف عليه شرًا يشع من عينيه الممحوتين. كان يقف متهكمًا مسندًا ظهره إلى الباب، مبتسمًا شامتًا، عاقدًا ذراعيه أمام صدره. ركضت نحوه، ليصيبني ألم ارتطامي بالباب، وصوت حارس الممر من الخارج يقول بصوته الأجش:

- أمت أم مازلت حيًا يا حسن؟

أجبته بتأوهات، فبادلها بقهقهة عالية راحت تطرق أذني، لأضع يديَّ عليهما، حتى أمنع دخول صوت الضحكات الكريهة، التي تزامنت مع صوت غراب ينعق. انكمشت، وضممت ركبتي إلى صدري وبكيت. نعم بكيت، فقد أصابني الشيطان بنصب وعذاب.

أشهر مضت كقرون من الزمن، أتحسس وجهي الذي تبدلت ملامحه، لحية غير مهذبة وشعر مبعثر، أصبحت أحد فتيان الكهف، ولكني لم آوَ للكهف بإرادتي. تبادلت الحديث مع حارس الممر، أسأله عن تأخر وجبات الحساء؛ مر يومان ولم يأت شيء، فقط قليل من ماء يحوي رواسب من طمي. الجوع بدأ يتلذذ بعذابي، وكأنه ينقصني المزيد من الألم.... كان إجابة الحارس:

- هل تأكلون أنتم، ونموت نحن جوعًا؟

لم أفهم مغزى حديثه، ولكني لم ألبث أن تذكرت الجدب الذي أصاب البلاد. الشح والفقر والغلاء... نقص مياه النيل واضطراب الجند. كل ما أتمناه الآن رؤيا من الخليفة الفاطمي، لأكون يوسف. ولكن صاحبي السجن ليسا بشرًا لينقل أحدهما خبري للخليفة... سأصبر حتى ينظر الله في أمري.

***

فقط ألقيت بالسجن لمجرد أني ذكرت اسم السلطان «ألب أرسلان» في مذكراتي المدفونة بحظيرة منزل الشيخ عبد الرحيم. لماذا يخافه الفاطميون الذين يدعون حب كل المسلمين، سنة كانوا أم شيعة؟ بكل حال إنهم يخافونه، ولا يطمحون لقدومه، وسيحاربونه كما يحدث هناك بالشام، فهو يتبع الخليفة العباسي المعترف به عند السنة. أما المستنصر العبيدي، فليس سوى خليفة للشيعة فقط، لقبه أطلقه على نفسه حتى ينال من قدسية الاسم.

أسمع صوت قرقرة بطني. الجوع ينتهك جدرانها، ينهش بأنيابه أحشاء يابسة. ثلاثة أيام قضيتها بدون طعام، كانت كافية لأن تزوغ عيناي، ويتقذفني عقلي إلى شاطئ الإسكندرية، وقد بسط الضباب رداءه عليه. أسمع صوت البحر، ولكني لا أرى سوى المنارة العظيمة تنظر إليَّ وتتباهى بقوتها أمام ضآلتي. اختلطت الأصوات في رأسي، تمر إلى جانبي أشباح لأناس أعرف وجوههم جيدًا.. محمود... الست فاطمة... الشيخ عبد الرحيم.. مريمة... عثمان... الوزير جعفر الماوردي... كلهم يسيرون هائمين، جامدة ملامحهم، لا يشعرون بوجودي، يتخطوني في لا مبالاة. ورأيتها تأتي على مهل، بثيابها

البيضاء مثلهم، تتهادى في مشيتها بوجه مشرق نضر، الكحل حول عينيها يجعلها مميزة عنهم، تنبض بالحياة، ابتسامتها أثلجت صدري، لم أعد أشعر بذلك الجوع.. تناسيته، شبعت من حسنها.. اقتربت أكثر، وراحت تشق الجموع نحوي بخطوات تحمل لهفة وشوقًا. صرت أتقدم أنا الآخر نحوها، وكلما لامس كتفي أحد المارة تلاشى، نثرات من غبار أبيض تهيم وتختلط بالضباب توقفت أمامي، ملكت العالم في عينيها. مددت يدي إلى أناملها الرقيقة، التي ما إن لامستها، حتى تزلزلت الأرض وعم السواد، تلاشت ليحل محلها ذلك الرجل مرة أخرى، بنظراته التي تحمل الموت.

فزعت.. حاولت التراجع؛ ولكنه أمسك بيدي، وصوته الذي يشبه الفحيح يصم أذني:

«الموت يا حسن... الموت هو ما ينتظرك... استسلم للموت»

فتحت عيني، لأجد سقف الزنزانة يجثم فوق صدري...

مازال قلبي ينبض، وإن كانت نبضاته تأتي على استحياء. نبضات ضعيفة واهنة، ولكنه يقاوم. أظنها لن تكون النبضة الأخيرة. سينجيني الله حتمًا، فقد أحسنت الظن به. لن يخذلني، فهو لا يخذل من توكل عليه. هكذا حدثت نفسي، وأنا أنهض في تثاقل. ألقيت نظري نحو الفتحة المكسوة بالقضبان في أعلى الجدار... مازال الضوء يسطع منها، وتيار هواء ساخن يعبر محملًا بغبار يتلون بضوء الشمس، الذي يضع بصمته على الجدار المقابل. مادامت الشمس تشرق، فهناك دومًا أمل.

سمعت خشخشة المفاتيح، فانتبهت حواسي لصرير الباب، الذي ظهر على بابه حارس الممر الضخم، بشاربه الكث وابتسامته المقيتة. وقف مشهرًا سيفه، ممسكًا بقطعة من خبز جاف ألقاها على الأرض. هممت بالتحرك لأخذها، ففاجأني قائلًا:

- هذه ليست لك...

توقفت عن الحركة، وأنا أنظر له بصمت، بينما تابع بسؤال:

- ألا توجد فئران هنا؟

لم أجبه، وهو يتفحص الزوايا بحثًا عن جحر. جال بعينيه في المكان، قبل أن يعود إليَّ بنظره مرة أخرى وهو يقول في تهكم:

- من حسن حظك أن جُحرك ليس به سوى فأر غير صالح للأكل.

كان يقصدني أنا بكلماته، التي ألقاها على مسامعي وغادر. أغلق الباب في عنف، وراح يصكه بمفاتيحه. ترددت في التقاط قطعه الخبز، رغم إلحاح جوعي. انحنيت أمسك القطعة الصغيرة.. شممتها.. قضمت قضمة صغيرة، أتبعتها بأخرى كبيرة كفاية أن أنهي بها ما جاد عليَّ به. سقطت بضع كسرات ضئيلة، انحنيت لألتقطها فوجدته ينظر إليَّ.. كان يقف مترددًا هو الآخر في التقاطها... إنه أحد صاحبيَّ، شريكي في الزنزانة، شواربه تتحرك وعيناه تطلب مني ألا ألتقم المزيد، فهو أيضًا يحتاج جزءا ولو بسيطا يسد رمقه. تراجعت، وراقبته يقترب نحو فتات الخبز. التقمها وهو يتابعني بنظرة امتنان. عاد إلى جحره، وتركني وسط تفسيرات لجملة الحارس الأخيرة..

من حسن حظي أن جحري ليس به سوى فأر غير صالح للأكل!

إنهم يأكلون الفئران! هكذا كانت الإجابة إذن!... أما الفأر غير الصالح للأكل فهو أنا!

أي واقع يعيشونه بالخارج؟ وكيف وصل بهم الحال لأكل الفئران؟!

***

البقاء في ذلك المكان يعني الموت. الهرب هو الحل الأمثل. لم أنهك عقلي في تخيل كيف هو الأمر بالخارج، وعما سأفعله حينما أخرج؛ هذا إن خرجت. رتبت أفكاري، وأعددت خطة للهرب. كنت أحتاج كثيرا من حسن الحظ، ليعوض ضعف جسدي، وبعض التوفيق، وما توفيقى إلا بالله رب العالمين.... الحراس يفتشون مراقد المساجين بحثًا عن الفئران. استطعت أن أخبئ تلك الفتحة الصغيرة حتى لا يراها الحرس، أتقاسم فتات الخبز معه إن وجدت، فهو سبيلي للخروج من هنا.

قطعت بعض الشرائط الرفيعة من قميصي الكتاني المهترئ، أوصلتها ببعض، لتصبح خيطا قويا. انتظرت قدومه نحوي.. اعتاد سكوني، فصار يدنو مني يرمقني بنظرات متفحصة. يبدو أنه أحس بما أضمره له؛ تردد هذه المرة، قبل أن يأتي إلى قدمي. داعبت شواربه أصابعي، ثم أكمل طريقه إلى فخذي، تسلقة بقوائمه الصغيرة الخشنة،. شعرت بمخالبه الرقيقة تنغرس في ملابسي اليابسة. انتظرت حتى وقف على قدميه، وأخذ أنفه يجول في طيات سروالي. لم يتوقع ما فعلته. صرخ

عندما قبضت عليه بيدي، يحاول التملص دون جدوى، ذيله يتأرجح وعيناه تتوسل ان أتركه. قربته من فمي وخاطبته:

- لا تقلق، ستكون بخير يا صديقي.

استسلم، وخضع لي وكأنه فهم ما أقصده. أخرجت الخيط، ورحت أعقده بذيله. كانت عيناه تسألني ماذا تفعل بي. ما إن انتهيت، حتى وضعته على الأرض، ففر هاربًا... ولكن هيهات؛ فمازال مربوطًا من ذيله، لا مفر إذن. استدار ليرمقني، لا يفهم ما أفعله به... سحبت الخيط وهو يحاول الفرار... يحاول البقاء حيًا.. هذه غريزته الكامنة... أن يبقى حيًا. امسكت به وقلت له:

- سأخرجك من هنا، وأقسم أنه لن يمسك سوء.

أنهيت كلماتي وأنا أقربه من فتحه إدخال الطعام أسفل الباب. أفلته، ليخرج منها فيركض، فصرت أرخي له الحبل، حتى وصل نهايته، فسحبته بقوة، ليرتطم بالباب في ألم، ويطلق صوتا. صرخاته تتعالى.. يبحث عن مفر، ظللت على هذا الحال ثلاث مرات، حتى انتبه له حارس الممر، فسحبته إلى الداخل وهو مازال يصرخ، وصوت مخالبه في تفرك الأرض من تحته. ما إن أدخلته الى الزنزانة، حتى أطلقت سراحه، وفككت الرباط عن ذيله بسرعة، ليفر هاربًا لجحره، مع صوت مفاتيح الحارس، التي راحت تندس في فتحة القفل. مرت الثواني بطيئة، حتى برز وجه الحارس حاملًا مشعلا بيده، وعيناه تبحث في الأرض عن صديقي، الذي أوى لجحره فرحًا بنجاته. لم يكن الحارس يهتم بي.. لم يبال بي قط، كل همه كان الحصول على وجبة

تسد رمقه دون رفاقه. كنت مجرد سجين هزيل في نظره، أو لم أكن شيئًا مذكورًا.

وسط بحثه وتدقيقه في الأرض، أحس بي أخيرًا، ولكن بعد فوات الأوان، فقد ارتطم الطبق الخشبي بوجهه من أسفل. ضربة قوية، بما يكفي ليسقط المشعل، وليضع يده على وجهه متألمًا متراجعًا محنيًا في ذعر وألم. ولكن لم تمهله ركبتي، التي كان أثرها مضاعفا على وجهه وأصابعه، التي نالت نصيبها، فهي الملومة كيف تقف أمام تلك الضربة التي أستنزفت قواي. لم أصدق ما فعلت وأنا أراه فاقد الوعي فاغرًا فاه. التقطُت المشعل من الأرض، وأنا أعلم أني صرت في صراع مع الزمن. الهروب...أكرهه، ولكن ليس هناك سواه. أحسست بشعور الفأر الآن.... أصبحت أنا الفأر المربوط من الذيل بخيط رفيع من الزمن، الذي يتناقص مع صدور تأوهات الحارس وأنا أبدل ملابسه. خلعت عنه الخوذة، وهممت بارتدائها، حينما حرك ذلك الأخير رأسه، فبادرته بضربة بخوذته، ليتأوه ويعود لغابة الفئران التي يطاردها. كانت ملابسه كبيرة على جسدى النحيف، أحكمت ربط الحزام، قبضت على مقبض السيف البارد، وخرجت من الغرفة في سرعة.

ولكني توقفت.. كان يراقبني كما عهدته. لم أصدق ما حدث.. وإن قص عليَّ شخص ذلك، فلن أصدقه. جثوت على ركبتي ومددت يدي، فجاء مسرعًا ليصعد على كفي، الذي رفعه إلى جيب درعي.. ومضينا للهرب من السجن.

***

تلافيت تجمعات الجند، وأنا أخطو في حذر عبر طرقات أمر بها لأول مرة في حياتي. حينما جيء بي إلى هنا، كنت منهكا من التعذيب. الآن صرت أمام متاهة من الممرات الحجرية الكئيبة، يضيء نهايتها مشعل، وينير بدايتها ضوء خافت لمشعل من ممر آخر. هربت من جحري، لأقع بمتاهه متشابكة. توقفت قليلًا لأعدل من هندامي. كانت الملابس لا تناسبني جملة وتفصيلًا. أخيرًا، هناك نافذة بنهاية الممر، أستطيع منها تحديد إلى أين أذهب. لم أكد أقف أمامها، حتى مر إلى جانبي جندي ملقيًا التحية، رددتها بصوت أجش، وأنا أدفن وجهي بالنافذة. لم أبال بالجندي ولم أخف؛ وهل أخاف والهواء البارد النقي يخترق أنفي، فينطلق إلى صدري، الذي أطلق زفرة أشتياق وشبق؟! كنت بمبنى السجن الرئيسي، قلعة صغيرة، لم أتبين ما خارج أسوارها. قد تكون على ربوة مرتفعة، فأنا لا أرى النهر ولا أي شيء. قد أكون في الجهه الشرقية. حددت هدفي، وأخذت أخطو عبر درجات السلم، أتفادى بشكل عام وجود الجند، الذي كان قليلا. الحمد لله أني تحت جنح الظلام. مضيت عبر طريقي إلى البوابة، ولكن كيف سأمر عبر طاقم من حراسها، وهم كتماثيل صارمة تقف تحت ضوء المشاعل. جلت بنظري في المكان.. لا أثر لخيول.. عليَّ المضي قدمًا. تقدمت خطوة، لتتسمر قدماي مع صياحٍ يُدَوِّي!

فى بادئ الأمر، حسبته حارس الممر. ولكن سرعان ما تبينت صوتا يقول:

«وجدت فأرًا.. لا إنهم اثنان»

ما إن وصلت الصيحات لفرقة البوابة، حتى انطلقوا نحو مصدر

الصوت، تاركين جنديين فقط. كيف وصل بهم الحال لهذا؟! كيف وصلوا إلى الحد الذي يجعلهم يأكلون الفئران، بل ويتصارعون عليها؛ ماذا يحدث؟!

إجابه واحدة هي كانت الحاضرة.. أستغل الفرصة، وأتقدم للبوابة، محاولًا تجاوز الجنديين. خطوات قليلة تفصلني عنها، عندما رفع أحدهم يده في وجهي قائلًا:

- إلى أين أنت ذاهب؟

اقتربت، ودسست يدي في جيبي، وأخرجت الفأر، الذي كان مستسلمًا لي. كنت أمسكه من ذيله قائلًا:

- لقد أتيت لكم بهذا.

رأيت عيونهم وقد حل محلها شيء لم أره في عيون البشر. شيء لم يكن يأتي على وجه محمود في أشد أوقات جوعه. شيء جديد، اكتسبته طبيعة البشر.. إنه الافتراس!....

لم أكن لأسمح لهم بقتل صديقي والتهامه؛ وكما يبدو أنهم لم يبالوا بمظهري، على قدر ما أبدوا من اهتمام لطعامهم. فبينما اقترب أحدهما طالبًا الفأر، فوجئت بالثاني يدفعه قائلًا:

- مهلًا؛ إنه لي.

لم تكن دفعة الرجل لرفيقه سوى إذن بحرب من اللكمات، وكأنهم يتربصون لبعضهم البعض منذ زمن. نسوا أمر الفأر وأمري، وراحوا يكيلون لبعض الضربات. أمسكت سيفي مستغلًا الموقف، ضاربًا بالمقبض رأس أحدهما، فإذا بالثاني ينهض للفتك بي، ولكني

كنت أسرع بلحظات، فركضت بسرعة، واحتضنته بكل قوتي، مسببًا له ألم ارتطام كتفي بصدره، ولأرتطم أنا وهو بالأرض في قوة، مسببًا له ألمًا رهيبًا، أطلق بسببه صرخة قوية، لأخرسه بلكمة أوجعت أصابعي من شدتها. نهضت في سرعة نحو البوابة، أزحت الحاجز الخشبي في صعوبة بالغة، فتحت بعدها الباب بكل ما أوتيت من قوة، لأخرج من الجحيم.

هبطت التلة في خفة. كل خطوة كنت أخطوها فوق قلبي المرتجف. شعور متضارب، لا فرحًا ولا خوفًا هو... القليل من هذا، والكثير من الأخير. كنت أسير على ضوء مشعل بعيد، أراه هدفي القادم، واضعًا على كتفي صديقي الصغير. بعد أكثر من ساعة، قادتني قدماي إلى منحدر أسود قاتم اللون، نزلت عليه ألتمس خطواتي، فإذا بساقاي ينغرسان في الطين. حاولت رفعها، ولكني غصت أكثر، حتى بات نصفا ساقيّ يلتهمها الطين.

أنا سلطان الحظ السيء.... يبدو أن للأمر علاقة بذلك الغراب، الذي وصِمت به أحلامي!

***

مع بزوغ ضوء الفجر، اكتشفت أين أنا.. لقد كنت في مجرى النيل، الجاف إلا من بعض برك المياه والوحل، لهذا لم أره من نافذة السجن. لقد جف مصدر الحياة.. أصبح مجراه مجرد طمي أسود اللون.. بعض برك وحل، تغوص فيه قدماي إلى منتصف جسدي.

اختفى صديقي الصغير. لم يعد له أثر، وتركني لألقى حتفي. يبدو

أن الجند لم ينتبهوا لهروبي، وبأي حالٍ، لن يخطر على عقولهم وجودي هنا، أغرق ببطء في الوحل في صمت. كُتب عليَّ أن أصارع الموت والهروب من براثنه؛ هذا هو حالي دومًا. المرة التي قررت فيها البقاء والمواجهة، ألقي بي في السجن. كان هناك شيء ما يلامس قدماي.. هذا ما كان ينقصني! إنه يداعب قدمي. قد يكون الماء المخزن في جوف الطمي. ولكن مهلًا! الماء لا يحاول قضم حذائي. أشعر بفك يحاول القرص على ساقي. وكأنني ينقصني الدرع الثقيل يثبتني في البركة الموحلة! جاهدت في خلع الدرع الحديدي على صدري، حتى أصبحت عاري الصدر، ومازال ذلك الشيء يحاول قضم حذائي، الذي كان في السابق لحارس الممر. أخرجت السيف من غمده، الذي سلبه الطين، بصعوبة بالغة. بعض شرائط القماش المستخلصة من ملابسي كانت كافية لصنع حبل صغير، ربطت به السيف، وأخذت أحاول إلقاءه إلى جذع شجرة اختفت أوراقها، وبقيت تصارع الموت مثلي. بعد عدة محاولات، استطعت أن أثبت السيف حول الجذع. كان الأمر يحتاج الكثير من القوة، وبعد ساعة من الإنهاك والإعياء، استطعت الخروج من قبر الوحل؛ وكانت المفاجأة....

تعلق بحذائي الجلدي سمكة الطين، أو كما يطلق عليها «قرموط» استطاع النجاة من الجفاف بدفن نفسه في الطين. نظرت لبركة الوحل، حيث خرجت كانت تعج بكثير منه. ألقيت بجسدي على الطين الجاف. الطمي اللزج يغطي جسمي النحيف، وسمكة الطين مازالت تمسك بطرف الحذاء..

الشمس بدأت رحلتها في السماء. لم أرهما منذ زمن: سماءً شاسعة، وشمسًا تبحر في جنباتها.. لا أحب التطير، ولكن لن أتفاءل حتى أجد مكانا آمنا ألوذ به، وأسترد عافيتي، ثم أقرر ما سأفعل بعد ذلك.

***

طعم السمك النيِّء ليس سيئًا، فهو أفضل من طعم الجوع الذي يفتك ببطني الخاوية. اضطررت لشرب ماء راكد مخلوط ببعض الطين أيضًا. تواريت عن الأنظار الغائبة، وسط أجمة من الحشائش. لم أر أيا من بني آدم مر عليَّ في تلك البقعة على ضفاف النيل الجاف، وانتظرت حتى المغيب. أجمل ما في الأمر هو الهواء الذي كان يلفح وجهي، ليمر عبر مسامي ويلامس روحي... إنها الحرية التي افتقدتها، لشهور قبعت فيها داخل قبر حجري. فترة كانت كافية لأعيد ترتيب أولويات حياتي، التي تساءلت عن جدواها... لماذا لم يقتلوني؟! لماذا ألقوا بي في السجن وقد أيقنوا أنه لا رسالة لدي؟

لبث يوسف – عليه السلام – في السجن بضع سنين؛ أكتب على هذه البلاد أن يكون سجنها واقعا لابد منه؟! ظلم لا يبالي إن كنت بريئا يفرض فتسجن، ولا يعبأ أحد لصراخك؛ فقط الحكام هم من لهم القرار، يفرضون عدلا على كيفهم وأهوائهم. أتذكر تلك الآية المعلقة على رقعة الجلد بمنزل الشيخ «عبد الرحيم» رحمه الله، فلا أمنع الدمع من الهطول مع تذكري له والآية تتردد على مسامعي:

«قد جعل الله لكل شيء قدرًا»

نعم جعل الله لكل شيء قدرًا.. وضعت في السجن، فتعلمت

الصبر والصوم، اقتربت أكثر من الله، خلوة فرضها عليَّ سبحانه، ليذكرني أنه لا ملجأ لي سواه. مَنَّ عليَّ برفيقي السجن، فتعلمت من ذلك العنكبوت أن ما يزيد عن حاجتنا لا نهمله، ولكن نحتفظ به، فمن يعلم ما القادم، ولعل ما احتفظنا به يكون سببا كافيًا لنجاتنا. أما صديقي الآخر، ومن ساعدني في الهرب، فتعلمت منه أننا أينما كنا يرزقنا الله، وأن غريزة البقاء هي الأصل بين الغرائز، تستشعر الخطر فتهيمن على بقية الغرائز، وتفرض سيطرتها على الحواس. لكل شيء قدر.. تيقنت من ذلك أيضًا حينما سقطت في بركة الوحل، ليسخر لي جل في علاه سمكة الطين. الآن عرفت فقط أين يكمن الطعام، وسبل النجاة في وقت الشدائد.

أزلت الطين الجاف عن جسدي.. بقطعة من الدرع الحديدي، كشطت ما تعلق بي من الوحل. ارتديت ما صَلح من ملابسي المتسخة، وقررت أن أمضي في طريقي على ضفاف جدباء. غروب الشمس منحني الطريق، فسلكت سبيلي إلى الشمال، ولا أعلم إلى أين ستأخذني قدماي.

بعد ساعات، كان في الأفق ضوء خافت متناثر. مشاعل مدينة قريبة.. ليست كثيرة.. إنها قرية على ما تبدو، فقد عددت مصادر الضوء على أصابع يدي. لا يهم إن كانت قرية أم مدينة، أو يكون الجحيم يرتدي زي الخلاص.

كلما اقتربت أشعر بطعنات سيوف خفية.. خناجر حادة خرجت للتو من تحت يدي حداد ماهر صقلها بعناية، راحت تقطع عضلاتي التي ضمرت. شيء ما يجذبني للخلف، يمنعني من التقدم نحوها.

القاهرة وأخواتها من العواصم البائدة تقبع تحت الظلام. الغريب، أنها ليست كما رأيتها من قبل. خُيل إليَّ أن هناك جناحين سوداوين عظيمين يهيمنان على ما تحتهما من منازل، تظهر كأشباح أطلال في الأفق؛ فقط بعض المشاعل توحي بوجود حياة. النجوم في السماء ترمقني كآلاف العيون، تحذرني من التقدم نحو تلك المنطقة، وسؤال يلح على رأسي...

لماذا يصر القدر على عودتي إلى تلك المدينة وأنحائها؟!...

***

القطائع هي الأقرب، وهي الأنسب للاختفاء ونبش قبر مذكراتي. أتمنى أن يكون المنزل مهجورًا. آخر ما أعلمه عن شيخي هو أنه كان غارقًا في دمائه، ومريمة تصرخ. تسللت إلى المدينة الصغيرة، طرقاتها خالية من الضوء والحياة، تهيمن عليها مئذنة مسجد بن طولون الملتوية، ترتفع كظل عملاق يضفي رهبته على البيوت. الأبواب الخشبية موصدة بإحكام، الأشجار القليلة كُشط لحاؤها الخارجي، وفقدت الغصون أوارقها وأطرافها، لم تعد سوى أشباح أشجار تئن مما حدث لها من جفاف وافتراس. كنت أحاول استيعاب الأمر.. ليست تلك القطائع التي زرتها من قبل.. الجدران الطينية تطبق على أنفاسي. رهبة تجري مجرى الهواء بين الأزقة.. هناك أنفاس وهمسات.. عيون ترصد حركتي من خلف الأبواب والمشربيات.. كانت خطواتي حذرة نحو منزل شيخي عبد الرحيم، الذي أظنه خاليًا على عروشه....

انقبض قلبي عندما اقتربت من باب المنزل. توقفت قليلًا أمام الباب الخشبي ذا المقبض النحاسي، الذي جعل عدة رجفات تسري بأوصالي حينما لامسته. تركت المقبض وعيناي تبحثان عن سبيل آخر للدخول. أغصان يابسة لشجرة كانت تتسلق يومًا الجدار. تسلقت غير عابئ بأشواك، راحت تمتص دمائي المنسابة عبر جروح لم أشعر بها. أخيرًا، فوق السطح الخشبي المغطى بالقش. نظرة على صحن الدار الخاوي، أتبعتها بالتفاتة ناحية القاهرة والفسطاط، فلم أر سوى الظلام الدامس وروح الموت التي سلبت مجرى النيل روحه. انقبضت روحي.... الظلام يغشاها إلا بعض المشاعل التي تضيء على استحياء. ليس ذلك المشهد الذي رأيت من قبل... إنها مختلفة.. موحشة، ترسل الخوف في القلوب.. نزلت عبر الدرج في حذر.. كل شيء كما رأيته آخر مرة. يبدو أن هناك من عمر الدار بعد رحيل أصحابها. بخطوات خافتة، تقدمت للحظيرة. دلفت دون أن أصدر صوتًا.. المكان مظلم تمامًا.

خطوة..

اثنتان....

ثلاث.....

ها أنا أقف فوق ذكرياتي، لم يعد يفصل بيني وبينها سوى طبقة من تراب. ألقيت سيفي وما أحمل من بقية درع، كاد في الصباح أن يغوص بي في الوحل. كم هو مؤلم أن نحفر للبحث عن ذكرياتنا. مهلًا، ليس هناك شيء!.... ليس هناك تلك اللفافة التي تحوي يومياتي!....

ليست موجودة؛ فقط ضوء كان يأتي من خلفي، ليصنع ظلًا يحاول الهرب، تاركًا جسدي جاثيًا على ركبتي، وصوت هادئ يقول:

- كنت أعلم أنك ستعود

***

أخر صوت سمعته قبل أن يغشى عليَّ وأقتاد للسجن كان صوت «مريمة»، التي كانت تقف خلفي في تلك اللحظة، تفيض بما جعله القدر يقينًا أني سأعود. نعم عدت، كما توقعت هي. عدت لأبحث عن يومياتي المدفونة وأجد مخبأ يأويني، حتى أقرر إلى أين أذهب. لم أتوقع وجودها، أو أنها تكون من بين أهل الدنيا. انسلت حفنات التراب من بين أصابعي، توقفت عن الحركة، وأحسست بشيء يجتاح صدري.. ألم حارق يشوي ما يصادفه صعودًا إلى رأسي، التي انتابتها قشعريرة. وأجهشت بالبكاء. لكم نبكي حينما نفقد شيئًا لا يمكن تعويضه، وحينما تنفد دموعنا، نعرف أنها كانت دون جدوى. صعب هو ذلك الشعور. قد أكون تناسيته، رغم أنه كان حاضرًا في زوايا الزنزانة المظلمة، يرمقني بينما أجلس في بقعة الضوء المنبعث من النافذة، وفى الليل كنت أطوي جسدي حول نفسي وأغمض عيني؛ ليس للنوم ولكن للهروب من براثنه. الشعور بالوحدة مميت، وبشكل أو بآخر لامس قلبي في اللحظة التي نطقت مريمة بكلماتها عن العودة. أحسست بخنجر الوحدة ينغرس بقلبي. احتجت لحنان أمي التي فقدتها رضيعًا.. أو كلمات أبي، الذي لا أعلم إن كان حيًا أو دفن هناك بالشام. تمنيت أن يربت على كتفي الشيخ عبد الرحيم، أو أن ألقي بجسدي بين ذراعي مريمة، لتفيض الدموع أنهارًا. إن كان

البكاء يريح القلب ويزيح الألم، فهو أيضًا بوح ينساب عبر عينيك، قادمًا من نقطة سوداء برأسك، يدعوه قلب فُطر، قلب يعاني من الألم. بين يدي أمي مريمة، كنت أشعر بنعاس رضيع شبع واستدفأ، فهدأ.. أحسست بأن هناك من افتقدني، وأن هناك من انتظر عودتي، سمعت خفقات قلبها ويدها تفرك رأسي، في حنان لم يألفه شعري المهمل. شعرت بالأمن في أحضان مريمة، واختطفني نعاس لم أذق مثله منذ دهر.

يومان من الحمى والنوم المتواصل.... كنت أرى مريمة في أحلامي الهادئة.. مريمة العجوز النضرة، بياضها ذو الحمرة زادها صفاءً وجمالا. تجاعيد وجهها البسيطة تحمل أملا استمدته عبر إيمانها وخبرتها في الحياة، فهي مازالت تقف شامخة لم تمسها الشِدة. كانت تزرع شيئا بالأرض القاحلة، إلا مما نقف عليه أنا وهي. ذات عزيمة قوية تلك الجَدة. كانت تمسك بالفأس الصغير، وتنثر البذور التي كلما طمست إحداها نبتت على الفور. الأحلام الهادئة دومًا تأتي بعد العواصف. لم أر ذلك الغراب ولا تلك الأطياف... لم يعكر صفو الجنة ذلك الرجل المجهول ذو الأنف المعقوف.. فقط كنت أُغسل بماء وبرد.

استرديت وعيي في فراش له من الصحة والنظافة ما يبعث في الروح الحياة. غرفة شيخي عبد الرحيم كما هي منذ تركتها، كل شيء بموضعه، فقط أضيف عليها طبق من عسل، وبعض الزيت وخبزة طازجة، كنت قد نسيت شكلها. نهضت، وأنا أنظر لملابسي النظيفة. احتفظت بها مريمة، التي قصصت عليها كيف كانت أيامي

الخالية في ظلمة السجن. ضحكت حينما أخبرتها عن تجربتي مع الفأر، وكيف اكتشفت تلك الأسماك المختفية بالطمي. بكت حينما ترحمت على زوجها شيخي عبد الرحيم، بعد سؤالها عن أوراقي. وحينما هدأ روعها، قامت إلى غرفتها وعادت تحمل لفافتي من الخيش والصوف، والتي يقبع بداخلها أوراقي، ولكن لم تكن أوراقي هي محتوى اللفافة، كان شيئا آخر غريبا، قبضت يدي عليه في ذهول وقلق. صرت أتفحصه.. لقد أصبحت أوراقي مجلدا خيط بعناية ودقة، ملمس الجلد المدبوغ رائع، محفور عليه بخط دقيق اسمي، وزينت زواياه بخيط من صوف، جعلت له رونقا خاصا. تقاسمت مريمة النظرات مع الكتاب، وما إن فتحته نطقت:

- كان عليَّ أن أحفظ ما تبقى منك يا بني. واعذرني إن اطلعت على ما يخصك، فقد كانت تلك الأوراق هي مهجتي وأنيس ليالٍ طويلة. بحثت فيها عن سبب للحياة، وكان أملك في الحياة هو دافعي. عرفت من كلماتك أنك ستعود، كما تلاشت عن ذهني فكرة أنك السبب فيما حدث. لم يغب عن عقلي لحظة ذلك المشهد. كانوا يسحبونك للخارج من قدميك وأنت فاقد الوعي. تركوني بعدما أمرهم قائدهم، الذي كان غريب الهيئة. رحلوا وتركوني خلفهم أولول وأبكي، على زوج بين ذراعي، لطخت دماؤه الزكية وجهي وصدري، وابن اختطفوه بعد أن أرسله الله لي. لم يكن هناك معنى للحياة.. كنت الحاضرة الغائبة في الجنازة وأيام العزاء الثلاثة. سرعان ما صرت وحيدة وخلا الدار. بقيت وحدي، فهذا أمر الله الذي كنت أدعوه كل يوم أن ينتقم لي ويحفظك، إن كنت حيًا.

وقد كنت أعلم أنك حي. شيء ما أخبرني بذلك. فبعد مرور شهر تقريبًا على الحادثة، دخلت للحظيرة، التي كنت أنوي نثر بذور الشعير بها وأحولها لحقل صغير. وحينما خطوت، تذكرت تلك الليلة حينما كنت تقف في منتصفها تمامًا. كنت أضرب بالفأس، حينما برق شيءٌ من بين الثرى، أزحت الغبار والتقطته.

قالتها وهي ترفع أمام عيني الدينار الذهبي الخاص بي. أمسكت به وأصابعي تتفحصه. لقد كنت نسيت أمره، وهاهو يعود كما عادت يومياتي، التي عثرت عليها مريمة بينما كانت تحرث أرض الحظيرة استعدادًا للزراعة. المفاجأة الثالثة، هو ذلك المجلد الثاني الذي صنعته مريمة على مهل، وناولتني إياه قائلة:

- تعلمت الحرفة من أبي قديمًا، فقد كان دباغًا... ابدأ بصفحة جديدة يا حسن، واكتب من جديد.

***

استيقظت اليوم مبكرًا. بحثت عن شيء يؤكل، لم أجد، فمريمة لم تطلعني على مخبأ الطعام، الذي كانت تقتصد فيه حتى يكفيها. الفناء أصبح حقلا صغيرا، تزرع خضروات قليلة سريعة النمو، تجلب المياه يوميًا من منزل جارتها أم الفضيل القابلة، حيث مازال بئرها يحوي المياه. تعاونت معها في إخفائه، كما أخفت الحبوب والعسل، ولم تأت فرصة لتقص عليَّ أين تخفيهم. على كل، لقد استرددت عافيتي. سأخرج للبحث عن شيء في السوق. سأنفق ذلك الدينار، وأحضر بعد الجراية. أخيرًا سأخرج للقطائع وسوقها نهارًا، لأرى كيف هي

أمور الناس، وأملي عيناي بتحركاتهم. على الأقل سيكونون حقيقة وليسوا مجرد أطياف تتلاشى كلما اقتربت من أحدهم. الطرقات في هذا الوقت من الصباح عادة ما يقل بها المارة، ولكنها تفتقد لهم بوضوح. تفتقد المزارعين وأبقارهم، والحمالين وبضائعهم.. لم يكن هناك غيري يمر عبر الأزقة الضيقة، أو لم يكن هناك حساسون تصدح بالأنغام وتتنقل بين أغصان كانت نضرة يومًا. هناك شيء مريب في الأمر.. الجدران تكاد تخنقني. أسرعت الخطا نحو السوق الخالي تمامًا من البشر....

صوت الهواء فقط ما يعمر المكان. الحوانيت مغلقة.. العربات الخشبية متناثرة.. أين الناس؟ أأصابتهم الصيحة فأصبحوا في ديارهم جاثمين؟ أم اختفوا بستار الغيب كما تختفي الشياطين؟.. كان هو إجابتي، حينما حط بسواده على إحدى القوائم الخشبية القريبة من حانوت قريب الشيخ عبد الرحيم. كانت عيناه الحمراء ترصدني، بينما يحرك رأسه متفحصًا إياي. ترك أحلامي، وجاء لواقعي ليطاردني.. يزعق بصوت التحدي في وجهي.. صوت يحمل الخراب، ويغرق النفس في الكآبة. يبدو أنني أحلم!...

رحلت عن السوق باتجاه بوابة القطائع الغربية. سأتجه إلى النهر الجاف، لأحضر طعامًا. لا يهم إن كنت في حلم أم يقظة. قد أكون خرجت مبكرًا، لهذا لم أصادف أحدا، فجفاف النهر قد منع الفلاحين عن فلاحة أراضيهم. لم يقابلنى أحد من الدرك على البوابة، فقط بعض الفقراء المشردين أصحاب الوجوه الشاحبة والعيون الغائرة، يرمقونني في تفحص واستغراب. لم أبال بهم، ومضيت عبر طريقي

إلى حافة النهر. توقفت لحظات أبحث عن أي شيء قد ينفعني فيما أنا مقدم عليه.. عود من خيزران جاف يكفي لأن أتحسس به موطئ قدمي قبل أن أغرق في الطين. رفعت سروالي، ونزلت أمشي في بطء على الطمي الجاف، تسبقني الخيزرانة التي اكتشفت بقعة رخوة من الطين. جثوت على ركبتي، بدأت الحفر.. ما هي إلا لحظات، حتى انتفض الطمي من تحت أصابعي. إنها واحدة من أسماك الطين. حاولت الإمساك بها، فانزلقت أكثر من مرة، وأخيرًا كانت الخيزرانة هي الحل. طعنة قوية، وأصبحت فريستي بين يديّ. استمريت على هذا الحال لأكثر من ساعة، استطعت فيها أن أصطاد أربع سمكات، كانوا حصيلة رحلة صيد موفقة. حملتهم ممسكًا بهم من الذيل، وسلكت طريق العودة.

كانت القراميط قد سلمت الروح، قطرات من دمائها ترسم خط سيري، عبر طرقات القطائع الخالية إلا من قط شاحب هزيل، راح يتتبع أثر الدماء. كان يصدر مواء المستغيث، يريد قطعة من لحم السمك، أو يريد على الأقل السمكة التي تعادل حجمه مرتين. لم يكن بحوزتي سكين لأجتز له قطعة. عليه تتبعي عبر الأزقة حتى نصل للمنزل. عبرت أحد التقاطعات، وأذني تلتقط صوت همهمات، سرعان ما تحولت لصراخ جنوني. نظرت خلفي، كان هؤلاء البؤساء الذي رأيتهم عند خروجي من المدينة يطاردونني.... كانوا يركضون في سرعة نحوي، يحملون سكاكين وعصي. توقفت ذاهلًا أنتظر ضرباتهم التي لم تصبني.. لم أكن أنا المقصود، كان القط المسكين الذي حاول الركض ولكن بعد فوات الأوان. انتهى به المطاف ملطخًا

بالدماء، وهؤلاء الناس يضحكون في ظفر.. ألقيت ما في يدي، وركضت مبتعدًا. ماذا يحدث؟ هل أصيب الناس بالجنون؟!

***

- لم يصابوا بالجنون، بل أصيبوا بالجوع يا ولدي. منذ أن جف النهر، أقفرت الأرض، وهلك النسل والزرع. أُكلت الماشية، وارتفع سعر كل شيء. الغلاء يقتاد الناس للموت. الجوع جعلهم يصطادون الكلاب، يأكل أحدهم ما يأكله ويبيع البقية. الكلب ارتفع سعره مذبوحًا إلى خمسة دنانير، والقطة ثلاثة. لقد نجوت كما ترى بحقلي الصغير، وبعض الخزين الذي أخفيته. يا بني إنك لم تر شيئا بعد. المأساة كانت خلال الشهرين الماضيين أكثر، فقد مات آلاف الناس من القطائع، وانتشر الوباء وعم البلاء. ليس هناك منزل لم يدخله الموت. استباح الأحياء سلب أرواحهم وترك أجسادهم لعنة علينا. إنه غضب رب العباد.

جلست طوال الليل أفكر في حديث مريمة، غير مصدق لما رأيته اليوم. فبالرغم من أني عشت ذلك الشيء، حين عرفت بأكل الحراس للفئران، إلا أنني لا أستوعب أن العامة قد أكلوا الكلاب والقطط. أي ذنب اقترفه أهل هذه الأرض لينال منهم عذاب الجوع؟ قصت عليّ مريمة أيضًا ما حدث منذ شهور عند بئر مياه قرب الفسطاط. كان صاحبه يبيع المياه للعامة، قربة الماء يملأ نصفها بدينار. وبينما كان الزحام يخنق البئر، ويتنافس الناس حول من يسقي أولًا، أصيب صاحب البئر بحجر، لتتفجر دماؤه وسط الصخب. تدخل رجاله في سرعة لإبعاد الناس وإنقاذ زعيمهم، الذي تلقى ضربة أخرى على

رأسه، ليترنح ويهوي للبئر السحيق. حالة من الهياج أصابت الجمع، وراحوا يتصارعون على من يرفع الدلو الممتلئ بالماء، الذي خلط بدماء صاحبه، وبعد قليل من الوقت كان يقبع في قاع البئر أكثر من عشرين شخصًا، امتزجت دماؤهم بالمياه التي لم تعد تصلح لشيء... أما من أصيب، فراح يهرب إلى جانب الضعفاء.

كنت أخاف من الوحدة، والآن أخاف ممن يحيطون بي. شهر مضى، أخرج في الليل إلى ضفة النهر الذي جفت كل برك المياه الضحلة به. أصبحت الأرض صلبة، لم يعد الخيزران ينفع. أتيت بمعول من حقل مهجور، ليصير أداة حفري وبحثي عن أسماك الطين. أعود قرب الفجر، ولكن لم أعد أسمع سوى صوت القليل من المساجد، التي هجرت بسبب قلة روادها، فأغلب قاطني القطائع ماتوا من جراء الوباء. القاهرة والفسطاط يظهران في الأفق.. لا أعلم عما يدور هناك سوى أن الوضع أسوأ بكثير، فقد قصت عليَّ مريمة أن زوجة الخليفة الفاطمي المستنصر رحلت إلى الشام هي وبناتها. هجروه.. تركوه خلفهم، وقد هاجر الكثير من أهل القاهرة والفسطاط، ولم يبق هناك سوى الفئات الفقيرة التي لا تستطيع تحمل نفقات السفر. أما أنا، فسأبقى إلى جانب أمي مريمة. سأحميها حتى يأذن الله لنا بالرحيل عن تلك البلاد، أو يأتي قدر الله. رغبة الخروج من تلك الأنحاء تلح عليَّ، ولكن لن أرحل دونها. حاولت بكل السبل إقناعها بالرحيل إلى دمشق، ولكنها رفضت قائلة:

- لن أترك داري... فإن كان الجوع أصاب الناس، فأنا أستطيع أن أزرع وأن أخزن الماء والحبوب داخل منزلي. وهبني الله سبيلًا للنجاة.

والله لن أفارق أرض الدار حتى ألحق بعبد الرحيم.

يقترن وفاؤها بالصفعة التي تلقيتها من شخص كنت أحسبه يومًا رفيقا لي، نتشارك نجاة فرضت عليَّ، بعد وقوفي إلى جانبه في السوق. كثيرًا ما حدثني عقلي باحثًا عن سبب لما فعله عثمان، لكني لم أجد إجابة..

فالإجابة لن تأتي سوى من عثمان.

***

اشتد المرض على مريمة. لم تعد تتحرك إلا قليلًا. زارتها إحدى الجارات، تعمل قابلة ولها خبرة بتوصيف الداء والدواء. قالت إنها ستذهب للقاهرة لتحضر بعض الأعشاب لتُعِدَّ منها الدواء. ذهبت منذ يومين ولم تعد لمنزلها. أتى زوجها بحثًا عنها وهو يستشيط غضبًا. في الصباح سيذهب معي لهناك، للبحث عنها. أذهب للقاهرة هذه المرة مضطرًا أيضًا.. الأرق وألم الرأس يفقدانني الرؤية.. لا أستطيع النوم، ولا أجد سبيلا سوى للتفكير في يوم غد.

أخيرًا، قررت عيناي أن تغفلا، بعد ليلة طويلة من مصارعة أفكاري. ولكن صوت مريمة تسلل لأذني.. نهضت أعبر بقعة الضوء الآتية عبر المشربية، والتي تعلن عن صباح يوم جديد. عبرت الفناء إلى غرفتها، طرقت ثلاثًا، فأذنت بالدخول. كانت جالسة بفراشها، ما إن رأتني حتى أشارت إليَّ لأقترب. جلست على ركبتيّ بجوار فراشها، لتربت على رأسي وتقول:

- لا تذهب يا بني للقاهرة...

كنت أنظر لها بدهشة وهي تستعطفني بنظراتها، بينما قبضت يدها على يدي في رفق. لم أفهم لما تقول هذا.. حاولت النطق بشيء، عندما ارتفع صوت طرقات زوج القابلة على الباب، وصوته يعلو مناديًا اسمي مرة واسم الشيخ عبد الرحيم مرة. أفلتُّ يدي من بين أصابعها وهي تقول:

- حسن، لا تذهب لهناك.

أجبتها بابتسامة محاولًا طمأنتها، وخرجت للرجل الذي كان ينتظرني، بعد أن وضعت إلى جانبها طبقا يحوي بعض قطع السمك المطبوخ. ودعتها، على أمل العودة، ومضيت مع الرجل، الذي كان ضعيفا هزيلا، ولكن حبه لزوجته وخوفه عليها جعله يذهب للبحث عنها. الوفاء أصبح من النوادر، في عالم غريب تمامًا. مضينا إلى القاهرة، التي كانت تربض في انتظارنا. كلما اقتربنا ينقبض قلبي.. أبوابها تبدو مزدحمة بعض الشيء، أو أنه سراب من مشقة السير. استراح الكهل عدة مرات.. لم يتوقف عن حديثه حول حياته مع زوجته، التي لم تغب يومًا عن المنزل.. لم تجرحه يومًا.. كانت نعم الزوجة.. وُلد على يدها نصف أهل القطائع، قبل أن يموتوا بعد ذلك بالوباء. مسكين ذلك الرجل؛ برغم انحناء جسده وضعف بنيته، إلا أنه مُصر على الذهاب والبحث. لم يتبق له في الحياة سواها، فابنته رحلت مع زوجها إلى الإسكندرية، وابنه مات جوعًا.

مرة أخرى يضع القدر لمسته. فما ذلك الرجل سوى رسول يبعث بقلبي الأمل. أمل في لقاء من أحببت، «زبيدة». انشغلت بها وبأحلام لقائنا عن حديثه الذي لم يتوقف، حتى اقتربنا من باب السعادة. كان

عدد من الناس جالسين على جانبي الطريق، تخترقنا سهام أعينهم، بينما لم يغب الجند عن المشهد. مازالوا منتشرين على الأسوار، وإن لم يكن بكثافتهم التي عهدت. أما الناس، فقد نال الجوع منهم، وجوههم شاحبة شحوب الموتى، أجسادهم فقدت العضل واللحم، أصبحت عظامهم مهيمنة على ما يكسوها من جلد.. الملابس مهترئة والصدور عارية، والنساء ترفعن أيديهن نحوي تطلبن المساعدة. عيونهم الغائرة المستضعفة كانت كشفرات حاده تقطع أحشائي. تملكت من روحي، لم أدعها تنهار، عبرت البوابة مندهشًا.. لم تكن تلك القاهرة التي أعرف!

***

قد يكون الهواء خارج الأسوار سببا في أن أنفي لم يلتقط تلك الرائحة. رفعت على وجهي لثاما لم يمنع رائحة العفونة من التسلل لأنفي. كان الأمر صعبًا حقًا.. الشوارع مقفرة إلا من بعض أفراد يترنحون على جانبي الطريق، بينما سقط أحدهم في آخر الزقاق، لم يلتفت له أحد. كان يحبو محاولًا في يأس وبطء أن يتشبث بالحياة، يداه الضعيفتان تعبث بالأرض دون جدوى. توقفت لحظة أنظر له في استغراب، فلم أجد سوى يد رفيقي الكهل تقبض على يدي ويقول:

- امش ولا تلتفت.

كنت أحاول أن أقول شيئا، ولكنه سحبني لنمضي قدمًا. التفت مرة أخرى إلى ذلك الزقاق الضيق، ولكن لم أجد الصريع.. اختفى.. تلاشى.. أو أنه لم يكن!

تغير كل شيء في القاهرة؛ أصبحت كديار ثمود.. لا شيء أخضر، لا شيء نضر، فقط اللون الأصفر يكسو المنازل والطرقات، والوجوه المصفرة بانتظار الصيحة. أغلقت الحوانيت، وأقفرت الطرقات.. الهواء الساخن يجوب الطرقات، لا يجد سوى بضع ذرات من تراب يقذفها كيفما يشاء. الأزقة الجانبية كانت كالصريم، سوداء مظلمة، رغم أننا بمنتصف النهار. المآذن تحلق فوقها الغربان، منتشرة بكثافة.. لم أكتف بواحد منها، بل صرت الآن في مدينتهم.. مدينة تبدلت ملامحها ومعالمها.. مدينة اجتاحها الموت؛ ولكن ليس بغتة، إنه يتلذذ بعذابهم، فهم يشعرون... يتألمون... يشتهون السبيل الوحيد للحياة... إنها لعنه الظلم والفساد أصابت من ابتعد عن السبيل.

«وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَىٰ وَهِيَ ظَالِمَةٌ ۚ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ»

كم صرت أعي تلك الآية الآن. ألم تقهر تلك المدينة الناس؟ ألم يظلم حكامها العباد في القوت والأموال والأنفس؟ ألم أكن أحد المظلومين؟ ألم يقتل الوزير جعفر الماوردي، وبقى قاتله حرا طليقا؟ ألم يمت الشيخ عبد الرحيم أمام أعين جنود الخليفة، وبمباركتهم؟ وأي ظلم من فقراء يعانون ويموتون جوعًا، بينما يأكل الجند وقادتهم؟ أعلم أن هناك من مسهم الضرر وهم لا يستحقون ذلك، ولكنهم كانوا أنفسهم يظلمون.. ألم يصمتوا وتغاضت أعينهم عن المظالم، حتى الواقعة عليهم؟!

حالهم كحال آل فرعون، الحياة فقط هي ما تشغلهم، وسوف يحاربون من أجلها بعضهم البعض. إنهم ضعفاء أجهدهم المرض

والجوع، لكنهم عدائيون، ازداد ابتعادهم عن الواقع، برغم أنهم يعيشون تفاصيله، وراحت ثمار الكراهية تلقى بوجه من يتحدثون عنه؛ لا يبالون بواقع أليم، فقط كل ما يهمهم أن يبقى في حياتهم رمق، وتبقى أرواحهم داخل تلك الأوعية المتهالكة المسماة أجسامًا... عليهم أن يأكلوا... أي شيء!

الذباب ينتشر بكثافة عند سوق العطارين المهجور. دكاكين مغلقة وأرضية مهملة، وعلى الجانب الآخر من بوابة السوق كان هناك تجمع للناس. علينا أن نسأل أحدهم عن القابلة «أم الفضيل». عبرنا تحت سقيفة السوق. المكان تعمه رائحة العفن. آملا في الوصول إلى ضوء الشمس في الجانب الآخر، كان «أبو الفضيل» يتأفف من الرائحة، ويضرب الأرض بعصاه في قوة، يحث الخطى للخروج من المكان. صرنا على بعد أمتار من تجمع الناس، بينما صيحاتهم وهمهماتهم تزداد.. إنهم غاضبون! تخطينا الأجساد، بينما سأل «أبو الفضيل» أحد الأشخاص:

- ماذا يحدث هنا؟

رمقه الشاب الصغير بنظرة خاوية، وهو يعقد يديه النحيفتين أمام صدره الخاوي من الشحم:

- إنهم يتجمعون للذهاب للخليفة...

قاطعه العجوز:

- سيذهبون إلى القصر؟!

ضحك الشاب، بينما كان يعلو صوت الناس، يرددون ما تقوله

إحدى النساء، يبدو عليها رغد الحياة، برغم ما تعانيه من جفاف وملابس متسخة بالبياض، ووجهها أيضًا ملطخ بشيء أبيض. سألت الشاب الذي يبادلني النظرات المتفحصة:

- من تلك المرأة؟

مسح على شعره، الذي لم ير الماء منذ شهور، وتقدم بخيلاء كأنه يعرف أسرار العالم:

- إنها من إحدى العائلات الثرية بالقاهرة. منذ يومين وهي تجول بشكمجية حليها تحاول استبدالها بدقيق أو أي طعام لأطفالها الجوعى. جابت الفسطاط والقطائع، لكن لم تجد من يقايضها، واليوم نجحت باستبدال كنزها بجوال من دقيق ولكن....

مط شفتيه وهو يشير ناحيتها قائلًا:

- كل من يقف حولها هم لصوص، سرقوا دقيقها منذ ساعة والآن يقفون إلى جانبها بعدما سرقوها وجعلوها تبكي، وأرهقت وهي تحاول أن تحصل على حفنة من حقها المسلوب. الآن يقفون حولها ويرددون كلامها...

ما إن ألقى بكلمته الأخيرة حتى ارتفع صوتها:

«الجوع الجوع... الخبز الخبز»

رددتها الجموع من حولها، لترفع يدها بقرصة من عجين، وهو ما تبقى من جوالها وما استطاعت أن تعجنه؛ قالت بحدة:

- أيها الناس، فلتعلموا.... أن هذه القرصة من عجين كلفتني ألف دينار... فادعوا معي لمولانا السلطان.

وراحت تردد الجموع كلماتها الأولى.. مضوا إلى مقر السلطان حيث يعيش الآن... إلى الجامع الأزهر حيث أصبح لا يملك شيئا.

«الجوع الجوع.... الخبز الخبز»

***

كنت الوحيد بين الجموع الذي مازال يحتفظ ببعض من قوة. نعم تبدلت ملامحي، وأصبحت شخصًا آخر عن حسن الدمشقي، طالب العلم الشاب. صرت شخصًا آخر مليئا بالحذر.. شخصا غريبا على أصحاب الأجساد البالية. استمرت مسيرة الغضب، حتى وصلت إلى الجامع الأزهر. لم تعد هنا بساتين في ساحته الخارجية، فقط أرض جدباء لا زرع فيها ولا ماء. وقفت قائدة المسيرة وهي تردد كلماتها الرتيبة، ومن خلفها الجموع. اقترب ذلك الشاب قائلًا:

- أغريب أنت عن هذه الديار؟

لم أجبه.. اكتفيت بنظرة لا تحمل أي معنى، وهو يكمل ناصحًا:

- أظن أنه لا يتوجب عليك أن تبقى هنا، فلا مكان للغرباء في القاهرة.

في تلك الأثناء، ظهروا من العدم.. جند الخليفة الفقير، ومعهم المجموعة الملثمة، ومن خلفهم كان يقف زائر الكوابيس. خرج في هدوء، وعلى جانبيه مجموعة من جنده المتشحين بالسواد والأحزمة والعصائب الخضراء. فقط إشارة من يده، وساد الاضطراب. بدأ الجند في مهاجمة الجمع الغفير. حالة من الهرج أصابت المكان، صراخ وعويل، ضربات بالعصى اقترنت بصيحات الألم. وسط الغبار

والزحام، اختفى رفيقي أبو الفضيل. كان هذا ما ينقص.. أأبحث عنه أم عن زوجته؟ كنت أحاول ألا ألفت الانتباه، ولكن ملابسي النظيفة ولثام وجهي أثارا الفضول عند أحد العسكر، الذي تقدم نحوي قائلًا:

- أنت، توقف!

لم أبال به، وصرت أمشي بين الراكضين. كان هدفي واضحًا، وهو مساعدة تلك المرأة قائدة الاحتجاج. انحنيت مقدمًا يدي لها لأساعدها على النهوض، في الوقت الذي ارتطم بي ذلك الجندي، لنسقط سويًا، ونبدأ في عراك آلم كل عضلة بجسدي، الذي لم يعتد بعد المجهود، بعد فترة خمول. لكمة منه وأخرى مني، قبضت بساقي على جسده ودفعت جسدي جانبًا، ليصبح أسفل مني.. سيل من اللكمات نالها ذلك الجندي، وسط سحابة الغبار التي أظلتنا وأمام عين السيدة التي نهضت في سرعة، وراحت تركض مع الهاربين. نسيت قضيتها وجوعها، أطلقت ساقيها للحياة.

نهضت في سرعة، وقد انتبه الحراس لما أصاب صاحبهم. كان مجرد فكرة المواجهة تعني نهايتي، لذا وجب الفرار. أصبحت أدرك أن الهروب قد يكون أفضل في بعض الحالات. تناسى الجند أمر العامة، وأصبحت أنا هدفهم.. تخطوا صاحبهم الفاقد الوعي في بضع خطوات، لتبدأ رحلة الهروب، وليذهب ابو الفضيل وزوجته للجحيم.. ماذا أتى بي إلى هذه المدينة!..

صرت أركض عبر الحارات الضيقة، التي غفلت عنها أشعة

الشمس. لم ألتفت خلفي فقط، كنت أركض عبر شبكة من الأزقة الخاوية من الحياة.. انعطفت لأحد الشوارع و.......

***

شعور غريب أن تفتح عينيك لتجد كل شيء أصبح رأسًا على عقب، تحلق في فضاء حارة ضيقة. بضع لحظات من استيعاب الأمر، ثم اتضحت الصورة. كنت معلقًا من إحدى ساقي بحبل غليظ، يداي حرتان، ولكن لا جدوى منهما. جلت بنظري في المكان الكئيب، الأبواب عليها طلاء أسود متناثر، الأرضية لها نفس الحظ من السواد، لا أستطيع أن أنظر للسماء وأسألها لما أنا دون البشر يحدث لي هذا. ولكن وما تفيد الأسئلة والتضرع، فالنجاة لا تحتاج الدعاء فقط، وإنما تحتاج العمل. مر الوقت بطيئا وأنا على هذه الحال، أبحث عن سبيل للخلاص من ذلك الفخ الذي يبدو أنه أعد خصيصًا للبشر. ولكن هذا احتمال بعيد.. لعلهم نصبوه هنا ليصطادوا المزيد من الكلاب والقطط. بدأ الأمر بالفئران، فأين ينتهي؟!!

التأرجح يعطيني حرية الحركة لأمسك بمشربية المنزل القريب. قد يكون الأمر صعبًا، ولكن -وبعد عدة محاولات- يصبح الأمل قريبًا. فقط عليَّ التشبث بالأمل، فما تُجنى ثماره إلا بالإصرار والصبر. اخيرًا أمسكت بخشب المشربية.. عضلاتي الضعيفة تئن من الإجهاد. تسلقت المشربية متحاملًا على ساعديّ، وصرت جالسًا فوق المشربية البارزة، ورحت أفك وثاق ساقي. ولكن شيئا ما استحوذ على نظري. ففي جدار المنزل المقابل، كان هناك شيء غير طبيعي. عبر النافذة المهشمة، كان هناك قفص حديدي، ومنضدة غرس في نصفها

ساطور يلمع بفعل ضوء النيران المنعكسة عليه!

في تلك الأثناء، كان يدخل الحارة من الجهه الشرقية رجلان يحملان جسدًا مدمى. إنه أحد الرجال الذين كانوا بمسيرة الجوعى. تركت الحبل في حذر، وصعدت إلى سطح المنزل مستترًا بالسور الصغير، بينما توقف أحدهم قائلًا:

- يبدو أن هناك من عبث بالفخ.

أخذ ينظر لأعلى متفحصًا المكان، قبل أن يقول الآخر في غلظة:

- لا وقت لدينا للفخ، فمازال هناك مصابون وقتلى بالساحة.

استدار الأول، وفتح باب المنزل المقابل، ليدلف من يحمل المصاب إلى الداخل، بينما توقف الآخر ملقيًا النظر عن يمينه ويساره، قبل أن يدلف للداخل. كدت أن أخرج رأسي، حينما برز مرة أخرى من الباب في خبث، وأخذ ينظر لأعلى.. ناحيتي.

الفضول جزء من طبيعة البشر، تتفاوت درجاته بين الناس. قادني الفضول إلى القاهرة في أولى زياراتي لها.. الفضول ما جعلني أستمع لقصة عثمان.. الفضول هو ما يحركني الآن لمعرفة ما يدور بذلك المنزل.

ثلاثة أمتار تفصلني عن المنزل المقابل. لن تطأ قدماي الأرض، فقد أكون ضحية فخ آخر. بضع خطوات للخلف.. الثقة في النفس تعطي شعورًا بالارتياح، اقترن بنجاحي في القفز عبر الأسطح. أنفاس سريعة، وخطوات واسعة.. السقوط يعنى الموت والتحطم، كما تتحطم الجرار. التحليق ممتع، ولكن الهبوط سيئ. ارتطمت بأرضية

السطح في عنف، فتركت جسدي يتدحرج لبضع أمتار. امتصصت الصدمة قدر الإمكان، ونهضت في سرعة بحثًا عن مكان لأستتر به. لعلهم سمعوا صوت اصطدامي.. كمنت لدقائق خلف بعض أثاث محطم مهمل، ثم ألقيت نظرة سريعة على فناء المنزل الخالي.. إلا من أثر دماء طازجة!

نزلت الدرج الخشبي في حذر. المكان يعمه رائحة مميتة. أحسست للحظة أني داخل قبر حديث صاحبه. الغرف كثيرة بذلك الطابق، والجدار المقابل للدرج المؤدي للفناء كتب عليه باللون البني «مدد يا حسين»، وبعض عبارات لم أفهمها، فقد اختلطت الحروف بعضها ببعض، وسط آثار لعشرات الكفوف. بحساب بسيط، استطعت أن أحدد الغرفة ذات النافذة المحطمة. خطوت نحوها، في الوقت الذي تسرب لمسامعي صوت آت من الفناء:

- سأحضر الآخر وننتهي من هذه الفوضى.

في سرعة ودون تردد، كنت أفتح باب الغرفة وأدلف للداخل. وكانت المفاجأة، حينما استدار من بالقفص ليرى القادم عبر الباب. لم تتبدل ملامحه كثيرًا، لم يزل يحافظ على قدر من دهونه. نعم فقد الكثير من الوزن، ولكنه مازال كما هو...

«محمود»!

نطقتها بصوت واضح، فما كان منه إلا أن تخضب وجهه بحمرة الخوف. اقتربت منه وقد تذكرت لثامي، فنزعته أمام عينيه الواسعتين وهو يتمتم:

- حسن!... أخرجني من هنا.

قالها وهو يمسك بيديه قضبان قفصه، وقد انفجرت عيناه بالدموع. خطوة واحدة وكنت أمام القفص سائلًا إياه:

- ماذا أتى بك إلى هنا؟

أجاب هامسًا وعيناه تتسع أكثر:

- سيأكلونني!

لم أفهم ولم أستوعب ما قاله؛ قد جُن محمود على ما يبدو. ولكن مهلًا.. إن المفاجأة بلقاء محمود أنستني ما تحويه الغرفة، التي تبدو كمسلخ لذبح الحيوانات.. كلاليب وخطافات معلقة بالسقف، وأخرى ملقاة في إحدى الزوايا، تتصل بسلسلة من الحديد.. ثلاثة مشاعل تضيء المكان، ولكنها كافية لتبعث الرعب في القلوب، فعلى مقربة مني كانت المنضدة وذلك النصل الذي غرس بصدرها. وانفتح الباب من خلفي. سمعت صريره، فتباطأت لثوان، لتتوقف بعد ذلك، وذلك الرجل يرمقني في دهشة فاغرًا فاه. كان ذا بشرة اغتصبتها الشمس، وبه بعض جروح إلى جانب لحية خفيفة فوضوية مقطعة الأجزاء.. عينان بارزتان بعض الشيء، وفم يكشف عن أسنان فقد معظمها وتضرر ما بقى منها. يده اليسرى ملطخة بالدماء، وفى اليمنى سكين رأيت فيه ابتسامة الموت.

لم يصدر سوى صراخ غاضب، وانقض نحوي. لم يسأل من أنا وماذا أفعل هنا، كل هذه ترهات لا تعنيه، لغته الوحيدة هي السكين، التي تفاديتها بصعوبة بالغة ،اقترنت بصوت محمود الذي لم أتفهم ما

قاله، فقد كان عقلي يصارع تلك السكين وصاحبها المصاب بنشوة القتل. تراجعت مره أخرى أمام محاولات غرس السكين بصدري. أصبحت المنضدة هي الحاجز بيننا. عرف مقصدي من حركة عينيّ، فانقض هو ناحية الساطور ليمنعني من الوصول له، فما كان مني إلا أن أعطيه وقته في الهجوم، حتى سقط على المنضدة محاولًا نزع الساطور، وكل ما أحتاجه فقط هو قفزة لأصير فوقه. هبطت على ظهره بمرفقي، فانطلقت صرخة ألم منه، كانت كافية ليعلو صوت رفيقه الأجش:

- ماذا يحدث عندك يا نجيب؟

لم يجب «نجيب»، فقد كان يتألم وقبضتي تهديه لكمة جعلته يبتلع ما تبقى من أسنان، وتركته ليسقط أرضًا، بينما تناولت الساطور وضربت به سلسلة القفص، التي استسلمت لقوة الضربة. فتح محمود الباب، وانقض نحوي، لأجد نفسي بين ذراعيه قائلًا:

- الحمد لله.. أرسلك الله لي يا صديقي.... وهب الله لك الحياة لتنقذني.

دفعته قائلًا:

- فلنرحل من هنا وبعدها نتحدث.

انحنى محمود ليتلقط سكين نجيب، الذي كان غائبًا تمامًا عن الوعي، بينما هممت بفتح الباب، فانفتح بغتة. ما إن وقعت عيناي على ذلك الضخم، حتى أغلقته في سرعة بوجهه، وأسندت ظهري للباب، الذي كان يصرخ من طرقات ومحاولات فتحه. أشرت

لمحمود، الذي ألقى بجسده على الباب بجانبي قائلًا بارتياع وخوف:

- كيف سنهرب؟

أجبته وأنا أجول بنظري في الغرفة:

- اصمت يا محمود ولا تدعه يدخل.

اتجهت صوب المشربية المحطمة.. لا أمل في القفز من هنا، الارتفاع قد يقتلنا أو على الأقل ستتكسر عظامنا. نظرة خاطفة على المشهد من بعيد جعلتني عدت إلى محمود بنظري قائلًا:

- تنح جانبًا بسرعة.

لم يستوعب سبب ما أقول، ولكنه تحرك في خفة في الوقت الذي كان الباب ينفتح ويندفع منه الضخم متجاوزًا محمود في سرعة باتجاه القفص. لم يساعده جسده الكبير على التوقف، فارتطمت رأسه بالحائط في عنف، لتصدر صوتا قويا. سقط أرضًا وخرج صوت تأوهاته مقترنا بهمهمات من صاحبه، الذي بدأ يستعيد وعيه متحسسًا وجهه، ولكن ركلة خوف من محمود جعلته يعود لسكونه. اسرعنا في الخروج من الغرفة نزلنا بعدها لفناء المنزل باتجاه الباب، لنهرب من هذا البيت الغريب.... وبينما كنت أحث الخطا توقفت فجأة لم أعد أقوى على الحركة، يبست في مكاني فأمام عيناي التي رأت الكثير من الأهوال.... هول آخر... شيء لم أكن أتخيله بأسوء الكوابيس.... رأس العجوز ابو الفضيل، لحيته البيضاء أصبحت حمراء تخضبت بالدماء، رأسه نعم إنها رأسه، لم أشعر سوى بيد محمود تدفعني للأمام قائلًا:

- لماذا توقفت؟ امض يا حسن.... امض في طريقك ولا تلتفت.

كلمات محمود كانت اقتباسا لكلمات أبو الفضيل أثناء سيرنا بالقاهرة. إذن من سقط امام عيني واختفى بعدها، حدث له ما حدث للكهل. أعاد عقلي ما قاله محمود بالغرفة: «سيأكلونني». إجابة أخرى لسؤال طرحته على عقلي... لقد كانت الفئران البداية فقط... وصار الآن شيء جديد على رأس القائمة.. البشر...

إنهم يأكلون البشر!

***

لم أتوقع ما رأيت، ولم أصدق ما رأيت، حتى بعد هروبنا خارج القاهرة. كان الأمر صعب التخيل.. أيأكلون لحم بعضهم البعض؟! أي حال أصبحنا عليه؟ أشعر بهبوط السماء فوق رأسي.. لم أتحمل كل هذا القدر من المفاجآت. لقد مات ابو الفضيل، ولا داعي للبحث عن زوجته. أشعر بالخوف حتى من محمود. نظرات الأحياء الخاوية تثير رعبي، لقد فقدوا إنسانيتهم.. إنهم جوعى، ولن يوقفهم أحد.

قص على محمود ما فاتني:

- لقد بدأ الأمر حينما لم يعد هناك من الخيول والماشية سوى بعض بغال الجند. اصطاد الناس الكلاب والقطط، ونزلوا الحقول الجرداء بحثًا عن الفئران، ولكن لم يبق شيء ليؤكل. مع انتشار الوباء، كثرت أعداد الموتى، حتى لم يعد لدى الخليفة المستنصر ما يدفعه لتكفين الناس، فقد أنفق ماله كله من أجل طعام يكفيه هو وفرقته الخاصة. حتى هو لا يأكل كثيرًا، وبات قابعًا بالمسجد لا يفارقه. مع

كثرة الموتى، بدأت الجثث تختفي، ثم تحول الأمر إلى اختفاء الأطفال، ومن ثم النساء، وبعدها انتشرت شائعات عن أزقة القاهرة الضيقة، وسرعان ما كانت العدوى تغم الفسطاط أيضًا. تركت فاطمة ابنها وخرجت لتبحث عن الطعام، فعادت ولم تجده. هناك أحد الرجال قرب سوق النحاسين قبض عليه الناس وقالوا إنه يبيع لحم البشر. لقد رحل عن البلاد من رحل، ومن بقى حصده الوباء أو سكاكين الجوعى.

كان عليَّ استيعاب الأمر. ظللت لساعة على الأقل جالسًا أضع يدي فوق رأسي، التي بدأت تؤلمني من كثرة التفكير كالعادة. لم أسمع اذان العصر سوى من مسجد عمرو بن العاص البعيد.. كان نداء الأمل. مآذن القاهرة لم تعد تعمل، صارت أعشاشًا للغربان، ولم يبق سوى مسجد عمرو بن العاص تقام فيه الصلوات لقليل من الناس، كما ذكر محمود. اتضح الأمر الآن، لم يعد للدين وجود في حياة الناس، فدينهم الجوع وشريعتهم البقاء... مهما كلف الثمن.

لم أجب على أسئلة محمود؛ فقط اكتفيت بإخباره اني سأقص عليه قصة اختفائي كاملة، حتى لم أجد داع أن أخبره بمكاني الذي يبدو أنه توقعه، ولكني قلت له إني أسكن بحي العسكر القديم. لم يستسغ كذبتي، واكتفى بأن شكرني على إنقاذه، وقال إنه مازال يسكن زقاق القناديل، وأنه كان بالقاهرة بحثًا عن طعام. اتفقنا على أن نلتقي يوم الجمعة بالفسطاط، وتركته واتجهت للقطائع، بعد تأكدي من دخوله الفسطاط. أصابني شيء من تعب العقل والجسد.. ها أنا أعود للقطائع، بعد يوم حافل باليأس. خرجت أنا وأبو الفضيل، وعدت

وحدي. اطمأنت مريمة لعودتي، وأعطيتها قدح الماء وذهبت للغرفة، فأغلقت الباب وألقيت جسدى على الفراش. أغمضت عينيّ، ولكن صورة الدماء ورأس العجوز لم تفارقني، حتى غشي النوم روحي.

***

أيام قضيتها لا أفارق المنزل. اعتزلت العالم خارج تلك الجدران، أخوض رحلة مع نجوم الليل للبحث عن رحمة الله. أنزوي في ركن بعيد أثناء تواجد مريمة، التي تعبت لمحاولة إخراجي مما أنا به. مللت تلك الدائرة التي تسمى بالحياة، وأصبحت عاجزًا وغير قادر على التفكير، روحي منهكة، والسماوات والأرض ضاقا بي رغم رحابتهما.. أحسست بأن لا مكان لي بينهما، ولم أعد أرغب سوى بالرحيل في صمت، في ليلية شتوية قاسية. ولكن أين الشتاء؛ فلا غيث هنا ينجى من العذاب.

فقدت شهيتي ورغبتي في الحياة، واكتفيت من كل شيء دون أن أحصل عليه. اكتفيت بالأحلام فقط.. حتى طيف من أحب لم يعد يزورني ليسعدني. فقدت الألوان كل معنى لها، ولم يعد طعم أي شيء كما كان عليه. كل ما أعرفه هو أنني لا أعرف من أين أتيت، وأين المستقر، وأين سأذهب.. أشعر بالضعف والضياع، وعزائي الوحيد هو الصبر، فقد ينتشلنى يومًا بعض السيارة أنا ومريمة، التي لا تفارق مصحفها. أصبحت أعتني بأحواض الخضروات، أذهب ليلًا لبيت أبي الفضيل وأملأ جرار الماء من بئر البيت المهجور. كنت أحاول تناسي الأمر، ولكنى فشلت في ذلك. كان الأرق يتحكم بمقاليد الأمور في رأسي.

لم أقصص على مريمة ما حدث. لا أستطيع النطق بشيء سوى أن كل الأمور على ما يرام. وعندما سألت عنهم، أجبتها:

- إنهم مشغولون بشيء ما... لعلهم سيسافرون...

كان القرآن أنيسها. وجدتها في صباح اليوم تقف بالفناء مستندة على عصا الشيخ عبد الرحيم، فاتجهت نحوها محاولًا مساعدتها للجلوس، لكنها رفعت العصا بوجهي قائلة:

- أتظن أني صرت عجوزًا؟

ضحكت وأنا أداعبها قائلًا:

- يا أمي، إنك الخير والبركة لهذه الدار.

اقتربت منها وعيناها تحتضن روحي:

- يا حسن، لقد وهبك الله لي.... فكم كنت أحلم بالأولاد والبنات، ولكن القدر له أحكام. وقتما يريد الله يرزقنا ويمن علينا... يحبس الدعوة لأجل مسمى، وها قد استجاب لي وأرسل الولد الصالح، أسأل الله أن يحفظك ويحقق لك كل أمنياتك، وينجيك من هذه البلاد.

«كل أمنياتي!»

ذكرتني تلك الكلمات بما حدث ذات يوم على شاطئ البحر، هناك في الإسكندرية، يوم أن اعترفت لي زبيدة بحبها. كنت أسألها عن أمنياتها، فأجابت بسرعة وتلقائية:

- أنت أمنياتي يا حسن.

كادت أن تبتلعني الرمال الناعمة. أحسست بانصهاري تحت

الشمس الحارقة.. أصبحت كمن تذروه الرياح... رياح الهوى. ترى هل مازالت زبيدة على قيد الحياة، في تلك المدينة الموحشة، أم كان للموت حظ باسترداد روحها؟

«الوباء قتل الطيبين» كلمات سمعتها من لسان أبي الفضيل الذي لم يعد يفارقني. رأسه المقطوع وعيناه الجاحظتان ولحية خضبت بالدماء، هذا كل ما بقي منه في مخيلتي. مسكين العجوز؛ لن أكون مثله طعامًا لمن يحبون الحياة؛ ولكن كيف؟

تخلفت عن لقاء محمود. أصبحت حياتي مقتصرة على صيد أسماك الطين كل ثلاثة أيام. شهر مضى على حادثة قتل أبي الفضيل، التي تذكرتها حينما مررت على سقيفة مهجورة لأحد الحدادين، ورأيت الكلاليب المعلقة أصابها وابل من صدأ.. مطرقة مهملة، وسلاسل عند فرن الحديد الذي لم توقد به نار من زمن بعيد. خطوت إلى داخل السقيفة، لأفاجأ بعظام صاحبها. بدا أنه مات منذ وقت كبير، لم يبق سوى عظامه كاملة. سحبت معولي الخاص بالصيد، وصرت أحفر قبر الرجل، الذي كانت بقايا الثياب المهترئة تدل على أنه الحداد صاحب المكان. واريت العظام، بعد أن صليت عليه. ها هو يرقد في أرضه، وهذا أفضل ما أقدمه له. حصلت على المطرقة، وبعض ما قد ينفعني.. أكتب في الليل، وفي النهار أرعى حقلي الصغير، والذي أضفت له بعض الأنواع الجديدة كجذور البصل. النجاة في السنين العجاف تحتاج لفطنة. قد يطول الأمر، لذا عليّ أن أستمر فيما أنا عليه. القطائع الخاوية إلا من بعض آبار المياه مازالت تحوي أملًا في الحياة، أما الحديث عن الفسطاط والقاهرة وأكل لحوم البشر، فقد انتشر

وأصبح الوضع أكثر رعبًا. انساب الخوف إلى قلوب من بقوا على قيد الحياة في القطائع.. الخوف من أن تنتشر عدوى أكل البشر.

***

قالوا فيما مضى إن العرب أكلوا الإبل، فأخذوا منها الغلظة والغيرة.. وأكلت شعوب الترك الخيول، فأخذوا منها القوة والشراسة.. وأكل الروم الخنازير فأخذوا منها الدياثة.. وأكلت الأحباش القرود فأخذوا منها الرقص والرشاقة.. وأكل الفرس الروث، فأخذوا منها النجاسة.

فكيف حال من يأكل لحم أولاد آدم؟ الذئاب لا تأكل بعضها البعض، حتى قيل إنها إذا قتلت كلبًا لا تأكله، لأنه من بني جلدتها. لقد صار الناس مجرد حيوانات تحركها شهوة القتل والجوع. أي عذاب هذا؟ نسوا الله، فأنساهم أنفسهم، أحبوا الدنيا فسفكوا من أجلها الدماء، أصبح همهم الشاغل هو البقاء أحياء!...

انتشرت أخبار سيطرة السلاجقة على حصن الرملة جنوب فلسطين. أخبار حملتها قافلة مقبلة من الشام، تحوي فلول الفاطميين. قافلة أعادت الحياة ليومين بالقاهرة، ولكنها لم تسمن من جوع. مازال الأمر بائسا، السلاجقة أصبحوا قريبين.. السلطان «الب أرسلان» قد يأتي بالطعام والزاد؛ ولكن إلى أن يأتي يجب عليَّ أن أحصل على بعض الطحين والجراية. أعطتني مريمة ما ادخرته من دنانير، بالإضافه لديناري الذهبي، لأجلب بعض الخزين من تاجر يهودي بالفسطاط، اشترى نصف القافلة، يبيع صاع الشعير بدينار

ذهبي. يكنز الذهب، الذي لم يعد له قيمة الآن، فما قيمة الذهب مقابل كسرة خبز؛ لا يمضغ الذهب، ولن يكون طعامًا يسد رمق الجائعين. غدًا سأذهب للفسطاط.

هذه المرة حملت سيفي، وما تبقى من درع الحارس الذي عدلت أجزاءه. ارتديته فوق قميص من كتان، جعلت الكتف الأيسر درعا مطويا يحمي كتفي ونصف صدري من ناحية القلب. الحذاء الجلدي الخاص بالحارس أيضًا قمت بتعديلة ليلائم ساقي. العباءة البنية التي كانت يومًا للشيخ عبد الرحيم، أيضًا نالها نصيب من الإضافات، تم تقصيرها إلى ما فوق ركبتي، لتمنحني حرية الحركة، وقمت بصناعة غطاء رأس راحت مريمة تخيطه بالعباءة. ارتديت كامل زيي: القميص الكتاني، الدرع الخفيف، القميص البني، حزام السيف... كنت أقف أمام مريمة التي قالت:

- أصبحت أحد الخاصة الآن يا بني!... عد إليَّ سالمًا.

قبلت رأسها، وما إن خرجت من الباب، حتى وضعت غطاء الرأس الذي أخفى نصف وجهي، ورحت أسير ببطء نحو الفسطاط. فقط ما يهمني الآن أن أحصل على ما يلزمني من خزين.... وأعود إلى مخبئي بالقطائع.

***

الفسطاط، التي لم يبق بها سوى الفقراء، هلك ما يقرب من نصف سكانها، في أيام النحس المستعر. كانت وطأة العذاب عليهم أكثر. ازدادت طباعهم دناءة وخبثا. ظهر أسوأ ما فيهم. شفاههم الجافة،

وعيونهم الزائغة تجعل منهم ثعالب تتوارى في جنبات الطرق، يسرقون ما يستطيعون من طعام.. أو يكونون هم الطعام لمن هم بداخل الحارات الضيقة. كنت أتجه إلى حيث يسكن التاجر اليهودي. سألت أحد المارة، فلم يجبني. فقط تأملني في فضول، وتركني ورحل في بلادة. بضع خطوات، ووجدته يبتسم لي. إنه الشاب الذي قابلته مع ابو الفضيل في القطائع، يقف متفحصًا إياي قبل أن يقترب قائلًا:

- أتحتاج مساعدة أيها الغريب؟

لم يتعرفني في بداية الأمر. كان غطاء رأسي يخفي أعلى وجهي، فلا يظهر سوى لحيتي ونصف وجهي السفلي. لم أجبه، ومضيت في طريقي، ولكنه أخذ يتقافز حولي قائلًا:

- لقد عرفتك. أنت من كنت بالقاهرة مع ذلك الكهل....

لم يكمل.. فقد وجد نفسه يتأبطني في قوة، وأنا أربت على كتفه قائلًا في غلظة:

- إن لم تصمت وتبتعد عن طريقي، سأقتلك.

أنهيت كلماتي ونحيته جانبًا في عنف. مضيت وتركته خلفي غير مستوعب ما يحدث. ليس بوسعي إقحام أناس جدد في حياتي، فقد اكتفيت من الغدر والخيانة، فلم أعد أثق في أي من البشر. سلكت طريقي عبر درب الأتراك، متجهًا إلى زقاق القناديل. كنت أقصد محمود، ليساعدني في حمل ما سأشتريه، وينال حظه من بعض الطعام. وقفت متأملًا الزقاق، الذي كان مقفرًا إلا من جسد أحد المشردين يتكئ على جانب الطريق، بجوار منزل الست فاطمة. إنها هي من

ترقد مكشوفة الوجه عابثة الشعر. ما إن أحست بخطواتي داخل الزقاق، حتى فتحت عينيها المحلقتين بالسواد. كانت لا تعرفني في هيئتي الجديدة. قامت، وأخذت تدور حولي في جنون، تقرب وجهها الشاحب مني. توقفت عن الحركة، بينما كانت تميل بوجهها محاولة سبر أغوار وجهي، وفجأة صاحت:

- لقد عرفتك.... أنت سيدي الحسين!...

لا أعلم عن أي حسين تتحدث، ولكنها قد أصابها الجنون بالتأكيد! أخذت تحاول تقبيل يدي، فدفعتها برفق، وحاولت التقدم بخطواتي، ولكنها انحنت أمامي في تبجيل وهي تقول:

- أعد لي ولدي يا سبط....

فهمت الأمر، ولم أدعها تكمل ما تقوله من ترهات. المسكينة فقدت عقلها تمامًا! صحت في وجهها بغلظة:

- اصمتي... لا تزيدي كلمة واحدة يا امرأة.

أخذت تبكي وتولول مع ظهور محمود على باب المنزل متفاجئا من المشهد، ولكنه قال:

- من أنت، وماذا فعلت لها؟

رفعت رأسي، فعرفني.. أشرت له أن يتبعني، ففعل في صمت. خرجنا من زقاق القناديل، وتركنا خلفنا البائسة تبكي وتولول وتتوسل لحسين من خيالها أخذت تحادثه. في الطريق سألني محمود:

- لم تأت حسب موعدنا. أين كنت طوال تلك الفترة؟ وما تلك الثياب التي ترتديها؟ أأصبحت أميرًا يا حسن؟

توقفت عن المسير وأمسكت برسغه قائلًا:

- محمود، لا مزيد من الأسئلة.... فقط احك لي ما حدث مع الست فاطمة.

أفلت ذراعه، وتقدمته، ليتبعني وهو يقول:

- لقد اختفى طفلها، كما يختفي الصغار والنساء في حواري الفسطاط وأزقتها. ذهبت لتبحث عنه، ونذرت النذور للأولياء والصالحين، وذهبت للقاهرة فقال لها أحد فقهاء الأزهر أن الحسين سيعيد لها ابنها. ومنذ ذلك الوقت وهي هائمة في الطرقات، تبحث عن الحسين وليس عن ابنها الذي رزقت به بعد سنين عمرها العجاف...

***

- محمود، أرى أنك نجوت من تلك الأهوال.

تعلثم محمود بعد جملتي هذه. تعرق وقال:

- لقد نجوت لأني تجنبت الأزقة الجانبية والحارات الخلفية، فهناك يقبع الموت، كما رأيت أنت في القاهرة، كيف كانوا سيذبحونني.

قلت له بهدوء:

- ماذا أكلت لتبقى على قيد الحياة؟

ازداد هطول العرق من جبهة محمود، الذي قال في تردد:

- بعضًا من لحم القطط والفئران... أنفت الكلاب و....

- البشر!!!

كانت كلمتي بمثابة طامة كبرى على رأس محمود، الذي ارتعد ساقاه، ونزل على ركبتيه أرضا، وأخذ يقسم أنه لم يذقه يومًا. استغربت من فعله.. صدقته.. نظرات الخوف والبؤس على وجهه تجبراني على تصديقه. أمسكت بكتفه لينهض وأنا اقول:

- لا تخف يا صديقى، أصدقك. أتعرف كيف نجوت أنا يا محمود؟ بهذا...

وأشرت إلى رأسي وأنا أهمس في خفوت:

- المؤمن الذي يتوكل على أمر الله، ويجلس ينتظر فتاتا يجعله حيًا يهلك. والمؤمن الذي يتوكل على الله، ويأخذ بالأسباب ويفكر ويعمل من أجل الحصول على ما يسد رمقه ويجعله حيًا ينجيه الله.

مسح محمود عرقة وأخذ يتحدث قائلًا:

- يا حسن، لقد غضبت علينا السماء والأرض. مات الضعفاء والمساكين.. هلك الطيبون وبقي الأشرار.. خليفة وهمي، قابع وسط دراويشه، تحميه نخبة من رجال الخاصة الشيعية، لا يعبئون بنا، رغم أن مصابهم مصابنا. إنهم يعلمون بأكل الناس لحوم بعضهم البعض، ولكنهم تركونا نرعى ونتقتات على بعضنا البعض. سئمت الوضع.. أريد أن أعيش يا حسن، حتى لو اضطررت لأكل لحم البشر.

كان لكلمته الأخيرة دوي قوي بداخلي. أصابتني الرجفة من حديثه. إنه واحد منهم.. إنه آكل لحم البشر.. استساغه، تذوقه، لن يتوقف عن طلب المزيد. لم ألتفت له، فقد كانت عيناي ترصدان ذلك الحريق، في منزل يشرف على قارعة الساحة التي اكتظت بالناس.

فوضى عارمة بفعل احتراق منزل اليهودي.. صراخ اختلط بصيحات غاضبة. وفجأة، ركض الجميع باتجاه أحد المنازل في الساحة. مرة أخرى برز لي ذلك الفتى. كان ينظر إليَّ من بعيد، يبدو أنه تتبعني. الأمر يزداد سوءا، وسرعان ما تبينت الأمر.. لقد هجموا على بغلة كانت تقف قرب أحد المنازل. أخذت البغلة تحاول التملص، تغوص أقدامها في صدر أحدهم، بينما استطاعوا بكثرة عددهم أن يعقروها. تفجرت الدماء، وراحت أيديهم قبل أسلحتهم تنهش لحم البغلة. لم أستطع منع حالة الغثيان التي أصابتني. تلفت حولي، ولم أجد محمود. اختفى وسط الزحام، الذي كان يضيق فوق جثة البغلة. يمر إلى جانبي أحدهم، ممسكًا في فمه قطعة من اللحم، وأخرى تحاول الدفاع عن بعض الأشلاء التي بحوزتها. وجوه ملطخة بالدماء، وأياد تتجاذب الأشلاء..... وظهر الملثمون.

خرجوا من المنزل المقابل مشهرين سيوفهم البراقة، أخذوا يضربون الناس ويصيحون فيهم، فركضوا كالجرذان نحو الحارات الجانبية. أخذت الساحة تخلو من الناس، وتراجعت إلى إحدى الزوايا لأراقب الوضع عن كثب، فلم يتبق في الساحة سوى ما تبقى من عظام وأشلاء ودماء البغلة المسكينة، وثلاثة أشخاص كانوا ملقون عليها يأكلون اللحم الطازج النيء. لم تكن تلك المشكلة، فقد كان ما صدمني هو وجود محمود ضمن الثلاثة، ينهش اللحم بأسنانه، يحاول أن يحصل على نصيبه، عندما باغته أحد الحراس بركلة جعلته يسقط على ظهره، ثم عاد مرة أخرى إلى الجيفة محاولًا قضم ما يمكن قضمه. عندما أمسك به الحراس المتشحون بالسواد، كما فعلوا بالآخرين،

ركلوهم أرضًا، بينما خرج من الدار شخص ذا ملابس فخمة، كان وجهه ممتقعا وهو ينظر لبغلته التي أكلت، ولم يتبق منها سوى بعض الدماء وقطع صغيرة من العظم. لم يكن وحده، فقد كان خلفه من انقبض قلبي لرؤيته.

***

أصبح الأمر جليًا الآن مع ظهوره، يمشي بخطوات هادئة واثقة، نعم هو.. فقط أعطته العمامة السوداء والإزار الأخضر شكلًا مختلفًا، مع اكتحال عينيه ولحية نبتت حديثًا. إنه عثمان.. لقد أصبح واحدا منهم. كيف لم يخطر ببالي أنه قد يكون انضم إليهم؟ ثم إنه يسير على يمين ذلك الرجل، ذي الوقار المصحوب بشحوب الوجه والارتياع.

قطع أفكاري صوت جاء من خلفي:

- إنه الوزير، وهؤلاء حراسه.

التفت ناحية الصوت. كان ذلك الفتى الذي قابلته في القاهرة يوم قتل أبو الفضيل لا ينفك يتبعني. عدت بنظري إلى حيث كان يقف الوزير الجديد، بينما أخذ عثمان يهبط الدرجات الأربع التي تفصله عمن تم القبض عليهم. أظنه سيعرف محمود. بالفعل أخذ يدنو منهم في بطء، وتوقف عند محمود. انحنى، وأمسك برأسه.. كان يحدثه. لم أستطع سماع ما يدور هناك فقط. رأيت محمود يبصق على وجهه، ليتبعه صفعة من عثمان، الذي أشار لجنده أن خذوه بعيدًا. راح الجند يجرون محمود ورفيقيه، وهم يصرخون أمام الأعين المترقبة من بعد. نظرات محمود لي كانت بمثابة القشة التي يحاول الغريق التعلق بها.

غاب بعدها محمود وسط الحراس، الذين ابتلعتهم الحارة المجاورة لمنزل الوزير، أما عثمان فوقف عاقدًا يده إلى صدره، بينما قال أحد تابعيه بصوت جهور:

- سيعدم اليوم من سولت له نفسه قتل بغلة الوزير وأكلها.

الظلم مرة أخرى يبرز، حتى في أحلك الأيام. ألم يكن محمود واحدا من عشرات، أخذ كل نصيبه من اللحم؟ إذا أرادوا المعاقبة، فلم يعاقبون البعض ويتركون البعض؛ أم أن هؤلاء سيكونون عبرة لمن هرب، ولمن تسول له نفسه أن يتطاول على ممتلكات أسياده؟ ألا يلتمسون العذر للجوعى؟ ولكن أي عذر يلتمسونه لهم، فقد كان محمود يقول قبل قليل إنه مستعد لأكل البشر حتى يبقى حيًا! انهالت سيوف حادة على عقلي، الذي أخذ يئن. جئت إلى هنا لشراء بعض الخزين، وها أنا أشاهد شيئا مروعا انتهى بالقبض على صديقي. هل أتركه للموت، أم أحاول إنقاذه؟

هل أفشى محمود لعثمان سر وجودي؟

هممت بالابتعاد عن المكان، حينما وجدته مازال يقف إلى جانبي. نسيت وجوده في خضم معارك أفكاري. كان ينتظر أن أقول له شيئا، ولكني تجاوزته ومضيت في طريقي. تبعني وهو يقول:

- لست من هذه الأنحاء؛ أليس كذلك؟

لم أعطه أي اهتمام وهو يحث خطاه ليسير بمحاذاتي ويكمل:

- سيدي، أليس من قبض عليه ضمن الثلاثة صديقك؟

قاطعته قائلًا بحزم:

- أتعرف منزل ذلك التاجر اليهودي حاييم بن المقفع؟

أومأ برأسه إيجابا وهو يقول بخيلائه:

- نعم أعرفه... ولكنه قتل منذ ساعات وأحرق منزله... هجم الناس على مخزنه وبيته، وسرقوا كل شيء، حتى أنهم وجدوا جثته ولم يبق منها سوى الرأس.

لا تسير الدنيا وفق مخططات أحد...

«الجوع الجوع... الخبز الخبز»

أي جحيم ألقيت فيه، ليكون عقابي الوحيد أن أبقى بين ظهور تلك المخلوقات الطامحة للحياة؟ محاولة كشف الغيب مجهدة للعقل، قد تنتهي بنا للجنون، فإما أن تصبح صيادًا، أو تكون أنت الطريدة.

توجهت ناحية مسجد عمرو بن العاص، الخاوي إلا من بعض المتضرعين الناسكين. لن يخذلهم من أتوا في طلب أمنه. خلعت حذائي الجلدي، ودلفت للداخل. تغير كثيرًا المسجد.. خلت أعمدته من طلاب العلم والعلماء.. أصبح مهملا.. نفذ زيت القناديل، وجفت أحواض الوضوء من المياه. مازال ذلك الشاب يقف خارج الباب، لم يدخل، يبدو أنه سئم ملاحقتي. تيممت، وعبرت الصحن المكشوف باتجاه باب قاعة الخطيب. توقفت أمام المحراب ذي العمودين المزينين بنقوش الجص.. لم أقف في مسجد من زمن. لم أقف أمام ملك الملوك منذ خروجي من السجن. لا أعلم سببا لابتعادي عن الصلاة؛ ولكن الآن عدت. أحنيت رأسي، وقشعريرة دافئة تسري بعروقي.. تيممت، ورفعت يدي وكبرت.. وما إن بدأت بالحمد، حتى بكيت.

أخذت أبكي، وأشكو قلة حيلتي وضعفي.. أسأل المغفرة عن تقصيري.. رجوته أن ينجيني من القوم الظالمين. صلاة طال أمدها، فالوقوف أمام خالقي لذة أشتقت لها. أصابتني حالة من صفاء العقل والقلب. له الأمر من قبل ومن بعد، وإني لما أنزل بي من نعمة فقير، فهو الغني ونحن الفقراء. أخذ الناس بالسراء- فلم يحمدوه. ونالتهم الضراء، فنسوه. استلذوا بالحياة، حتى وإن كانت على حساب أخوانهم. إنه قادر على كل شيء، لو أراد أن يخسف بهم الأرض لفعل، ولكن سلطهم على أنفسهم بما كسبوا من ذنوب وسيئات.... لقد نجا عباده الصالحين واصطفاهم إلى جانبه، ومن كان في قلبه مثقال ذرة من شر، بقي ليذوق سوء العذاب.

***

لم أشعر بتلك الحالة من قبل. طمأنينة أضفت نقاءً على عقلي، الذي راحت الأفكار تتناسق فيه بانتظام. خرجت من باب المسجد، لأفاجأ بذلك الشاب يجلس القرفصاء، وما إن رآني حتى هرع إليَّ مبتسمًا. لماذا يصر على ملاحقتي؟ قد أكون في نظره سبيلا للنجاة، وقد أكون مجرد وجبة يسوقها بالغدر والخيانة إلى كلاليب آكلي لحوم البشر...

- لماذا لم تتبعني لداخل المسجد؟

ابتسم وهو يشيح بوجهه قائلاً:

- أنا مسيحي.

أومأت برأسي، وتخطيته. كان عليَّ أن أعرف إلى أين أخذوا محمود. كان يسير إلى جانبي وهو يسألني:

- أستنقذ صاحبك؟

أجبته باقتضاب:

- وما شأنك أنت؟

أحرجه ردي، فحاول أن يغير مجرى الحديث قائلًا:

- اسمي يعقوب بن حنا... كنت أخدم في كنيسة القديس مينا بجوار حصن بابليون. ماتت عائلتي مع الوباء الكبير، ورحل كل من أعرفهم إلى أديرة بالصحراء. اعتزلوا الهلاك. سمعت الأب ساويرس راعي الكنيسة يتحدث عما سيحدث قبل وقوعه. نصحني بالابتعاد عن الآثام والخطايا وهو من وقع فيه.. أكل إحدى الراهبات. وحينما علم بما رأيته، أقسم أن يفعل بي مثلما فعل بها. سأخبرك سرًا أيها الغريب.

صمت الفتى يعقوب لحظات، استجمع فيها شجاعته ليقول:

- في بادئ الأمر، كان الناس يبحثون عن أي شيء يلقون عليه اللوم. أصبحت المدينة ممزقة بالخوف والارتباك.. وجوه خائفة جائعة استحوذت مساوئ الأخلاق على نفوسها. أصبح الضعفاء هدفا سهلا، مع اختفاء الحراس من الطرقات التى اصبحت مصائد للبشر. أما الجند، فتمركزوا حول دار الحكمة والقصر الغربي، حيث من بقي من عائلة السلطان، وأصبح لا مكان للشرع والقوانين، فالعامة أصبحوا هم منفذو القانون.. قانون البقاء. لقد كان من بين هؤلاء الذين يريدون الحياة الأب سمعان. لقد قتلته... فما جزاء القاتل سوى القتل؟.... فليلقي بي الرب -إن كنت مخطئًا- في بحيرة الآثمين.

رفع رأسه ناحيتي قائلًا:

- الجوع لا يعرف أي دين...

مع كلمته الأخيرة، كنا قد وصلنا إلى الساحة، حيث لم تجف دماء البغلة بعد. لم يعد هناك سوى بضع حراس يعتلون بيت الوزير، يحملون أقواسهم، في استعداد لقتل من يقترب. لم أجبه على سؤاله، فقد كان عقلي في واد آخر، حيث كان الخيار الأصعب: الانتقام من عثمان أم إنقاذ محمود، أو أكتفي برحيل هادئ صوب القطائع، لأمكث ما تبقى من عمري في جنة مريمة!!

أكره الثرثرة والضوضاء، وذلك الفتى يعقوب كلما حاولت التركيز واستشارة عقلي يتدخل بحديثه المطول عن حوادث القتل والاختفاء. كان يرافقني كظلي، تجنبت الأزقة والحارات، مشينا عبر الطريق الرئيسية، لم أبال بالعيون التي كانت ترمقني في استغراب. توقفنا قرب مدخل الحراس من بيت الوزير، تواريت وطلبت من يعقوب أن يسأل الحارس عن مكان اقتياد الشباب الثلاثة. بالفعل أطاعني الفتي، وذهب دقائق عاد بعدها يحمل الأخبار.. لقد أخذوهم لساحة الإعدام قرب بوابة المدينة.

انطلقنا نحث الخطا إلى الناحية حيث تم اقتياد محمود. كان عليَّ إنقاذه. تجمهر الناس، واجتمع الأحياء من أهل الفسطاط يشاهدون إعدام المتهمين بأكل بغلة الوزير. لقد فات الأوان، فمحمود وصاحباه، قد تم صلبهم ليكونوا عبرة لمن يعتبر. ألم حاد راح يغزو صدري.. محمود، الذي خسر حياته مقابل قضمة من لحم البغل، صار

معلقا على الصاري، تنساب دماؤه على الخشب، لتصل إلى الأرض مكونة بركة دماء. مات محمود، ولم أستطع إنقاذه.. مات محمود لأنه كان يصارع من أجل الحياة؛ قطعة لحم أودت بحياته؛ أما لو كانت من لحم البشر فكانوا سيتركونه!. لم أتحمل مشهد رؤيته معلقا هكذا. اتفقت مع يعقوب على العودة في المساء، لنحل وثاقه هو والموتى إلى جانبه. سأتغيب عن مريمة حتى الفجر، فقط لندفنهم، فإكرام الميت دفنه.

***

«إكرام الميت أكله»

هذا ما صار، بعد ساعات من الانتظار مع الثرثار يعقوب، فوق أحد المنازل المهجورة. البقاء على الأرض يجعل منك فريسة سهلة في تلك الحارات الضيقة. جثم الليل بثقل سواده على المدينة، سكن كل شيء، واختفى أشباه البشر خوفًا من أن يكونوا لقمة سائغة تلوكها أسنان الجوعى أمثالهم. فقط القمر كان يشاهد ما يحدث، يتمنى أن تأتى السحب لتواري نظره عن تلك المأساة التي تحدث في ساحة الإعدام.. كان الشاهد الوحيد على ما جرى هنا. لقد أكلت جثة محمود ورفيقاه، لم يتبق سوى بعض العظام والرؤوس. لم تتحمل قدماي ما شاهدت، فسقطت على ركبتي، أحس باختناق يحاول قتلي. أرفع عيني للصاري الذي مازال يحتفظ برأس محمود وجزء من رقبته تقطر منه الدماء. كان الأمر بشعًا.. كان صادمًا، لم أستطع النهوض ويعقوب يحثني على الرحيل. قبل أن يأتي أحدهم ونصبح نحن الجناة، دفعته بعيدًا عني قائلًا:

- ارحل يا فتى... ابتعد عني.

تفاجأ يعقوب بما قلته له؛ ولكنه تقدم مرة أخرى يبكي قائلًا:

- يا سيدي، أرجوك أن ترحل وتأخذني معك. لا أريد أن يأكلني هؤلاء الجوعى.. أرجوك!

كنت أحدث روح محمود في خفوت، وقد أخفيت دمعي. لقد قضي الأمر.. تأخرت عن نجدتك، وتأخرت في الحفاظ على جسدك. ألم تكن الآخرة خير وأبقى يا محمود؟... لم فعلت فعلتك هذه، لتكون من الخاسرين. أقدر جوعك، لكنك لم تصبر حتى أعطيك مما كنت سأشتريه، أو أعلمك صيد سمك الطين. شيء أسود قبض على قلبي، جعله يمتلئ سوادًا وكرهًا وانتقامًا. نهضت، في الوقت الذي كانت هناك ظلال لشخصين قادمين عبر الزقاق المقابل. المشعل البعيد من خلفهما أخفى وجهيهما. كان يعقوب يحثني على الهرب عندما اتضحت هيئتهما مع اقترابهما من دائرة الضوء.. إنهما الرجلان اللذان قابلتهما بالقاهرة، ذاك الذي يدعى نجيب والآخر الضخم. كان التردد جليًا على وجهيهما.. لم يعرفاني، ولكنهما تقدما بخطوات حذرة، يلوح أحدهما بسلسلته الحديدية، بينما كان الآخر يسحب سكينه من غمده. بنظرات ثاقبة ترصدهما، قلت ليعقوب أن يذهب ويتوارى بعيدًا.

مع ابتعاد يعقوب، بدأ الهجوم من الضخم صاحب السلسلة. تراجعت خطوة للوراء وأنا أشهر سيفي، في الوقت الذي كان الآخر الضئيل المدعو نجيب يقفز ناحيتي، محاولًا طعني بسكينه الكبير. لم أكن على دراية بالمبارزة، ولكن الانتقام ما حركني.. روح خفية

استحوذت عليَّ. كانت عيناي ترصد كل حركة للرجلين. لم يستطع الضخم أن يهجم عليَّ مع محاولات صاحبه. معركة لا هوادة فيها بساحة الموت، وعلى أضواء المشاعل القليلة، كان صليل سيفي يرتفع مع اصطكاكه بسكين نجيب، الذي كان يتراجع أحيانًا ويتحرك بخفة متقدمًا بعد ذلك. لم أكن أضاهيه براعة، فهو الصياد، وأنا.. لا أعلم ما أنا، ولكن لن أدعهم ينالون مني.

كنت أحسب خطوات الضئيل.. يتحرك خطوة إلى اليمين وخطوتين إلى اليسار، قبل أن يقفز بسكينه التي أصد ضربتها بسيفي القوي. انتظرت هجومه التالي، وتحركت كما يفعل يمينا ويسارًا، وضربت بالسيف على فخذه وهو يقفز. أطلق صرخة ألم مدوية، رددتها منازل الساحة، لكن لم يتجرأ أحد على الخروج ورؤية ما يحدث. سقط نجيب أرضًا، متألمًا يبكي من فرط الألم. ساقه أصبحت متدلية بشكل مريع. لم أصدق أن الأمر نجح، فأخذتني المفاجأة، حينما انقض عليَّ الضخم وسلسلته الحديدية تكاد أن تلتف حول عنقي، لولا شيء ما تصدى لها.. عصا غليظة التفت السلسلة عليها كأفعى تفتك بفريستها، ويعقوب يقف إلى جانبي ممسكا بالعصا في قوة، محاولًا جذب الضخم عن طريق سلسلته. ولكن كان هذا الأخير من فعل ذلك، ليسحب يعقوب في قوة، استغلها الفتى لدفع جسد الضخم بكل ما أوتي من قوة. غاص كتف يعقوب ببطن الضخم، الذي تراجع بضع خطوات ممسكًا بطنه في ألم تجلى واضحًا على وجهه. كان عليَّ التحرك بسرعة.. ركضت نحوه في الوقت الذي كان يعتدل واقفًا، ليجد ساقي تضرب صدره في قوة. سقطت أرضًا بينما اندفع

هو بظهره للحائط، ليرتطم به ويسقط أرضًا. لم أكن لأقتلهما؛ لا أستطيع تحمل ذلك العبء الثقيل.. قد يكونا من القتلة، آكلي لحوم البشر ولكن لن أستطيع أن أغمد سيفي بصدريهما. انحنيت لالتقاط السلسلة الحديدية وأنا أقول ليعقوب:

- شكرًا لك يا يعقوب.

ابتسم قائلًا:

- أنت صديقي الوحيد. لن أدعهم يمسوك بسوء.

كل شيء ينتهي.. الصداقة تنتهي.. الحب ينتهي.. كم من صديق خائن، وكم من صديق دفع ثمن عدم إعمال عقله. فرض عليَّ صديق جديد، برغم أني لم أعد أحب الغرباء، ولكن لنرى ما سيفعله. عليَّ أن أثق به ولو قليلًا.. الفتى أنقذني من الموت، وهذا يكفي. أسرعنا في الرحيل عن ساحة الدماء والأشلاء، وتركناهما خلفنا. لعلهما باتا وجبة دسمة لأمثالهما ممن يشتهون اللحم. نصحته بالاختفاء، وأن يقابلني مع الغروب بعد ثلاثة أيام قرب مقياس النيل عند جزيرة الروضة، وأخذت طريقي في العودة إلى القطائع.

***

نتعثر، فنتعلم.. هكذا هي الحياة. ولكن محمود مات ولم يتعلم. إن حزني على ما حدث له أصابني بصمت أطبق فكيه عليَّ لثلاثة أيام، انشغلت فيها بصنع شيء خاص لي. فقط حديثي كان صوت المطرقة، التي رحت أصنع بها سلاحي الجديد. كنت أكتفي بقليل الكلام مع مريمة، التي لا تفارق مصحفها. أصبحت غرفتها صومعة، يأتي منها

صوت ترتيلها للقرآن، ليُظِل قلبي بظلال الصبر والرضا، نعم الرضا بما قد مضى وبما قد يأتي، فأمر الله كله خير. ولكن ما يحدث للناس ليس بخير......

«وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ»

كانت تلك الآية ردًا على ما أخذ عقلي يردده. ألقيت المطرقة جانبًا، وجلست أستمع لما تيسر مما تتلو أمي مريمة. سيأتي الفرج حتمًا، هذا وعد الله، ولكن الفرج الوحيد في هذه الأيام هو حُسن الخاتمة، والتي لن أجعلها من نصيب «عثمان». يجب أن يذوق ثمن الخيانة والقتل. سأكون أنا رسول العذاب له.

ساعات، ويأتي الغروب. سأذهب لملاقاة يعقوب. سأحاول تعليمه طرق صيد سمك الطين. سأختبره قبل أن أضع ثقتي فيه؛ لا أستطيع أحتمال شيء آخر، ففي هذه الأوقات إن كانت الوحدة مخيفة، فالرفقة مرعبة للغاية.

مقياس النيل يقع قرب الفسطاط، عند جزيرة الروضة، مبني من ثلاثة طوابق مركبة، كان يستخدم لقياس منسوب المياه وتحديد خراج الأرض. كانت الأراضي التي يغمرها النيل بالفيضان تختلف عن تلك التي يصعب ريها، أما الآن فكل الأراضي سواء، أصابها الجدب. جاء اختياري لهذا المكان لأنه صار مهجورًا خاويًا على عروشه، لم يبق بداخله سوى عظام صاحب المقياس، تحتل زواياه الذهبية خيوط العنكبوت. ذهبت مبكرًا قليلًا، وقد اختفت الشمس من السماء، ولكن ما يزال ضوؤها الدامي يحاول البقاء في الأفق. كان يعقوب

بانتظاري. تفاجأت بما يرتدي. كان قد صنع غطاء رأس مشابها لما أرتديه، ولكنه لا يتناسق مع لون قميصه المتسخ، ويمسك بعصا يبارز بها شياطين خلقها عقله.

لم يلحظ تواجدي، إلا حينما تفادى إحدى ضربات خياله. توقف مبتسمًا وهو يقول:

- كنت أحاول التدرب ريثما تأتي.

اقتربت منه، لأسحب العصا وألقيها بعيدًا، والدهشة تعم وجهه قائلًا:

- ألن تعلمني حتى أصبح مثلك؟!

توجهت للجرف، وتركته خلفي حائرًا. كنت أحدث نفسي سرًا.. هل أعلمه ما لا أعلمه؟ لم أتعلم المبارزة يومًا، وإن كنت قد تغلبت على الرجلين، فقد كنت أعتمد على حركاتهما هما. أما الآن، فسأعلمه كيف يبحث عن الطعام، هذا ما أعرفه الآن، وما يجب عليه تعلمه. ألقيت له عودًا من الخيزران، وأمرته أن ينزل عبر الجرف إلى المجرى الجاف. كنت أرشده حتى ينتبه لخطواته، وسرعان ما استوعب الأمر وفهمه. قضينا الوقت في البحث عن أسماك الطين. كان الفتى مرحًا بما تعلمه، وكان مشهده مضحكًا عندما عضت السمكة أصبعه، وأفلتها صارخًا، ليقفز بعد ذلك محاولًا الإمساك بها. بعد صراع معها، وقف ممسكًا بها وقد اكتسى بالطين. يذكرني بمحمود.. أخاف أن أفقده هو أيضًا. كان ثرثارًا فضوليًا، يريد معرفة كل شيء.

كان يعقوب يقضي نهاره متنقلًا في الساحات والشوارع الرئيسة،

يجتنب دخول الحارات والأزقة، وحينما يهبط الليل يخلد للنوم فوق سطح منزله بالفسطاط. حكى لي عن صاحب الحارة التي بيعت بطبق طعام. أشعلنا النيران أسفل الحائط الجنوبي من مبنى المقياس.. كان يلتهم قطع السمك في نهم.. يلتقطها من بين النيران، ليقذفها لفمه. باغتُّه بسؤالي:

- كيف ترى الخلاص من هذه المحنة؟

توقف عن المضغ، وأخذ يتأملني بضع لحظات، ونطق بعدما ابتلع ما في فمه من طعام:

- الموت.

لم أفهم إجابته، ولهذا أخذ يتابع:

- الموت هو الخلاص. يصارع الناس من أجل الحياة كما لو أنهم مخلدون. لو أنهم مؤمنون بالحياة الآخرة، لما فعلوا كل هذا.. لاستقبلوا الموت مبتسمين، يتهافتون لتقبيل جبينه. لكن كما ترى، أصبحت الدنيا كل همهم، اللحم فقط هو ما يفكرون به.

كان حديثه يشبه حديث الشيخ عبد الرحيم؛ ولكن وجب عليَّ أن أخبره أمرًا. نهضت وأنا أضع غطاء رأسي قائلًا:

- الموت ليس الخلاص يا يعقوب.. إنما الانتقام هو الخلاص.

تركته خلفي، ومضيت في طريقي. تناهى إلى مسامعي صوته يسألني:

- متى سأراك مجددًا؟

دون أن ألتفت قلت:

- سألقاك بعد الغروب، عند مسجد عمرو بن العاص.. فقط عُدَّ خمس ليال.

***

أنا لست الضوء....

أنا العتمة والظلام الموحش.....

أنا السواد الذي لا تغيره ألف بقعة ضوء...

فالبياض في ذلك العالم هو الزيف.... البقاء في هذا العالم ليس للأقوى فقط، وإنما للأذكى، للأنقى.... أما الظالمون فسيحرقون في جهنم... وليس في جهنم سبيل للخروج أو المغفرة.

الحديد... النار... المطرقة... بضع طرقات وأنتهي من صقل سلاحي الجديد. إنه برَّاق، تحمل شفراته الموت. أخذت أقلبه بين يدي، حينما دخلت مريمة للحظيرة تتكئ على عصاها. جحظت عيناها، حينما رأتني أقف ممسكًا بسلسلة طولها ثلاثة أذرع، ينبت من ثُلثيها شفرات مستحدثة، لها منقار حاد من كلابين، اتصلا بسلسلة أصغر تتصل بيدي، لتمنحني التحكم في إغلاق فكها وقتما أريد. كانت تحاول فهم ذلك السلاح، وفهم ما يحدث في حظيرتها. كانت تسمع طوال أيام صوت الضجيج الناتج من طرقات المطرقة. سألتني وقلت لها أصنع شيئا يساعدنا على الحياة؛ ولكنها الآن أمام شيء يسلب الحياة.

أخبرتها بما يحدث في الطرقات والشوارع. أخبرتها أن العالم أصبح سيئا، ولم يعد هنالك موطئ قدم للصالحين. خافت حينما علمت بمصير ابو الفضيل ومحمود، لم تستوعب كيف صار من بقي من

الناس. لم يعد هنا مكان للإنسانية، قست قلوب الناس وبرزت أنيابهم، يجوبون الطرقات والأزقة بحثًا عن اللحم، ولن يوقفهم سوى أن تتنزل رحمات الله، أو يأتيهم الموت بغتة وهم لا يشعرون... وحينها لن تبكيهم السماء ولن تنعيهم الأرض. لا يستطيع أحد تغيير القدر، فسنن الله ثابتة، فلنتطهر بتحقيق العدل.. من قتل يقتل، إنها العدالة التي يجب تحقيقها. سأبدأ بالضباع القمامة، سأتدرب على صيدها حتى يحين دور عثمان.

انعزلت مريمة بغرفتها. لم تكن لترضى بما أنا مقدم عليه. لا تريد أن ينفطر قلبها مرة أخرى. صمتت حينما علمت أن عثمان على رأس قائمتي، وأنه قد تحدث مع محمود قبل أن يرسله للموت. أحاول بث الأمل في نفسي، صرت أتحدث كثيرًا مع أوراقي، وكثيرًا ما سألت نفسي ما الداعي للاستمرار في هذه الحياة. كلما فكرت في الرحيل، أتذكر مريمة العجوز. لن أتركها وحدها في هذه الأرض الموحشة. حتمًا سيأتي الفرج. نعم سيأتي، فقد نجى الله عباده من القرى الظالم أهلها، وحتى يحين وعد الله، سأبقى وأكون عذابا للذين استهانوا بالأرواح.

أيام قضيتها في التدريب على استخدام سلاحي، وصقل مهارتي في مبارزة الهواء، أو التدرب مع يعقوب. رفيق مسل هو، يضحك ويتراقص ويتقافز بين الحين والآخر كلما نجح في عمل. يعقوب اليتيم أحبته الحياة، فأبقت عليه.

***

- حكى سفيان الثوري عن أن بني إسرائيل قُحطوا سبع سنين، حتى أكلوا الميتة من المزابل وأكلوا الأطفال، وكانوا كذلك يخرجون إلى الجبال يبكون ويتضرعون.. فأوحى الله عز وجل إلى أنبيائهم عليهم السلام: «لو مشيتم إليَّ بأقدامكم حتى تحفى ركبكم، وتبلغ أيديكم عنان السماء، وتكلّ ألسنتكم عن الدعاء، فإني لا أجيب لكم داعيا ولا أرحم لكم باكيا، حتى تردوا المظالم إلى أهلها»، ففعلوا فأمطروا من يومهم.

- ومن سفيان الثوري هذا؟

نطقها يعقوب وهو يجلس بالقرب مني، فقلبت السمكة على النيران وأنا اقول له:

- إنه أحد الصالحين يا يعقوب.

أشاح بوجهه وغمغم قائلًا:

- الصالحون يأكلون لحوم البشر أيضًا...

عدلت من وضع سمكة أخرى بالنيران قائلًا:

- لم يكن ذلك القس من الصالحين يا يعقوب.. الصالحون هم أمثالك، من تعففوا ولم يأكلوا لحم إخوتهم. انظر حولك، سترى الكثير من الصالحين، يختفون في جحورهم وخلف أبواب موصدة، يفضلون الموت جوعى أو أن يصابوا بالوباء على أن يأكلوا لحم بن آدم. كثير ممن نعتقد أنهم حماة الدين ليسوا بصالحين، إنهم شياطين الإنس يستترون خلف أقنعة زائفة، وحين يأتي العذاب يتضرعون، فيلتف حولهم أتباعهم ليكونوا عليهم شهداء، وليتخاصموا بعد

ذلك في النار.

أومأ يعقوب برأسه وهو يلتهم قطعة من السمك. كان ذكيًا بما يكفي لفهم حقيقة الأمور. كان يؤنس وحشة صيدي، فهو مستمع جيد، أجد في الحديث معه متنفسا وراحة لما في صدري. ففي عالم يقتات الناس على بني جنسهم، من الجيد أن يكون لديك من يسمعك ويحدثك، وتقضي الوقت برفقته....

بعد وقت ليس بقليل من الصمت، قال يعقوب:

- مذاق اللحم البشري يشبه لحم الخنزير...

أثارت كلماته فيّ الاشمئزاز والقلق، فسألته:

- وكيف عرفت ذلك؟

حرك رأسه في سرعة، نافيًا أن يكون تذوقه وهو يقول:

- قالها لي أحد أصدقائي.. قال إن السبيل للنجاة هو أكل اللحم. كنت أشعر بالريب منه، ولكن بعد اختفاء أخته الصغيرة زادت شكوكي حوله، حتى جاء اليوم الذي تسللت فيه إلى حيث يسكن، ومن مخبئي رأيته يأكل ما تبقى منها... كان يمسك برأسـ.....

قطعت حديثه بنوبة من القيء والسعال والاشمئزاز، لم تفارقني لأيام بعد حديثه هذا..

***

إنهم لا يحملون الضغائن لبعضهم البعض، فقط ما يحركهم الجوع. كل شَيء قادم لن يكون مثل سابقه. قافلة شامية جاءت منذ أيام، أوقفها العربان بعيدًا عن أسوار المدينة، تهافت عليها الناس الجوعى

يحملون ما بقي من كنوزهم.. ذهب وفضة لم يعد لهما قيمة تذكر، يرفعون أيديهم بالحلي في تضرع خوفًا من حرس القافلة. تأتي النساء عاريات، يعرضن أجسادهن البالية الخاوية من الشحم والنضرة في بؤس، المضاجعة مقابل الطعام. ولكن هيهات، فحب الناس للحم صرفهم عن شهوتهم إليه. لم تعد أجسادهن ذات قيمة، إلا إذا كانت مطهوة. كنت أراقب الوضع عن كثب، ومعي يعقوب. كنا نجثم فوق طاحون قديم انسلت عنه الحياة. نزلنا الدرج المغطى بالتراب الجاف وبقايا عظام لحمار كان يومًا يدور في فلك المكان. حثيث خطواتنا يهيمن على ظلام المكان، مسافة قصيرة ونعبر الباب الخشبي، الذي بادرنا بصرير مزق صدورنا خوفًا...

أمسكت بكتف يعقوب، وسحبته إلى خلف كومة أخشاب مهملة. رقدنا على وجوهنا في سرعة، حتى لا ترصدنا عين القادم. زحفت قليلًا، لأتخذ موضع رؤية من بين شقوق الخشب، وعلى بصيص أشعة الشمس المتسربة دلف رجل نحيل بارز العظام، عيناه الجاحظتان تدوران في المكان بسرعة، تتأكد من خلوه. استدار وخرج، ليهم يعقوب بالنهوض، وأوقفه بإشارة من يدي، فقد عاد ذلك الهائم مرة أخرى، يسحب فتاة أعياها المرض والجوع، يمسك بيدها يجرها جرًا وهي تقول في وهن:

- أهنا تحتفظ بالطعام؟

دفعها برفق مصطنع، إلى ركن يغمره ضوء الشمس. أغلق الباب خلفه قائلًا:

- نعم... ألم تعديني أن تقدمي لي اللحم مقابل اللحم؟

ضحكت وهي تزيل حجابا ممزقا، محررة شعرها الشعث. يبدو أنها كانت صاحبة جمال ودلال، قبل أن ينال منها الجفاف ويتيبس جلدها، الذي غمره ضوء الشمس ليزيده شحوبًا. كانت قد خلعت ما تعلق بجسدها من ثياب.. أصبحت عارية تمامًا، خلعت عنها ثوب الحياء والعفة. وعدها بالطعام، فوعدته بنهش لحمها... أشعر بالإشمئزاز لما وصل بها الحال، تبيع عفتها مقابل طعام لن يغني ولن يسمن... فقط يزيد الأمور سوء، لقد نسوا الله فنسيهم، لا تضرع ينجي، ولا خطيئة تجلب الحياة، سأقتلها قبل أن أقتله، هذا ما تبادر لعقلي.

ولكن أوليست مضطرة لفعل هذا؟ الجوع هو ما دفعها لهذا... ألا تتقي الله لعله ينجيها من عذابه الأليم؟ ألا ينصرف هو عنها؟

حتى وإن راودته، فهو ليس يوسف.. هو مجرد جائع يخفي سكينا مسننا، طمس بريق نصله بقطرات دماء جافة لضحية سالفة. لا يريد إتيانها والتمتع بجسد فارقته روح الأنوثة ورونق الجمال. تقدم واصابعه تداعب مقبض السكين خلف ظهره، وقد تجلت في ملامحه روح شيطان جائع...

طرحت جسدها أرضًا في غنج ودلال، لعله يزيد من حصة الطعام المرجوة. داعبت خصلاتها المتيبسة وأشاحت بوجهها في الأرض مفتعلة الخجل، ويدها الأخرى تواري نهدا جافا. تقدم في حذر وحش يخاف أن تهرب فريسته، وابتسامة ظفر ترتسم على جانب وجهه. توقف أمامها يرمقها، يبرز أسنانًا تشتاق للحم الطازج.

وكزني يعقوب هامسًا:

- ألن نفعل شيئا؟ سيقتلها.

فى تلك الأثناء، كانت تفرج ساقيها، تدعوه للحصول على ثمن طعامها. برز سكينه أمام عينها الجاحظة، فضمت ساقيها، وراحت يدها تحاول البحث عما يستر جسدها، تصرخ في هلع وتحاول النهوض.... انقض عليها حتى لا تهرب منه، وكيف تهرب وهي تقبع في شركه فريسة سهلة المنال. أغمضت عينيها حتى لا تشعر بالنصل، فقد أدركت أن لا مناص من الموت الذي لم يأت....

لحظات ظلت مغمضة العين، فتحتها بعد صوت حشرجة تبعتها طعنة. سقطت السكين للأرض من يد الرجل، الذي كان يحاول وقف تدفق الدماء من عنقه، والتخلص من سلسلتي الملتفة حول رقبته، تسلب روحه المقيتة، شفراتها تعطيه ألما سيذكره في الجحيم. وفي قوة، سحبته للخلف لأنهي معاناته. سقط أرضًا محدثًا سحابة من غبار، انقشعت ليكسو وجهها الذهول من رؤيتي أقف ممسكًا سلسلتي الممتدة إلى رقبة الصريع، وعن يساري يقف يعقوب بزيه المشابه لما أرتدي. راحت تبكي في حرقة وخوف، قائلة بصوت مرتجف:

- أرجوكم لا تقتلوني... أرجوكم لا تقتلوني.

***

انحنيت لأنزع سلسلة شفراتي الملوثة بدماء القتيل، وبكاؤها لا ينقطع، تمسك بملابسها تغطي صدرها وتحاول أن تغطي فخذيها. أنهيت ما أفعله، واستدرت للخروج أدفع يعقوب أمامي دفعًا، فجاء

صوتها من خلفنا يملؤه الامتنان:

- جزيتم خيرًا... لن أفعل هذا مجددًا؛ أقسم لكم.

لم أبال بما تقول، وسأل يعقوب:

- أستتركها هكذا؟

خرجنا، وأنا لا أستسيغ ما قاله، بينما تابع هو:

- لقد فعلت فعلتها هذا لأنها جائعة. هل سنتركها هكذا، لتكون ضحية لآكلي لحوم البشر؟

توقفت، وأمسكت بملابسه في قوة، وقربت وجهي منه قائلًا في صرامة:

- اصمت... لا مزيد من الثرثرة.

أفلته وتخطيته، ورحت أحث الخطا لمغادرة المكان. كنت غاضبًا حانقًا عليها. الأفضل أن تموت جوعًا على أن تمنح جسدها للقاصي والداني. تموت كريمة عفيفة، على أن تموت عاهرة. تجوع الحرة ولا تأكل بثديها. لا أعلم.. أشعر بالاضطراب، فمن أنا لأحاسب الناس بما يفعلون؟ هم لم يعد يعنيهم سوى الحياة، فليذوقوا وبال أفعالهم. رفعت عيني للسماء، مترجيًا سبيل الهدى. سأنقذ ما يمكن إنقاذه.. سأساعد من يريد النجاة، أما الآخرون فسأذيقهم شهوة الموت.

«انتظراني...»

جاء صوتها من أعلى الربوة الجدباء. لم ألتفت عندما عاودت الصياح مرة أخرى. توقفت، لأجد يعقوب يقف في المسافة الفاصلة بيني وبينها، ينقل بصره بيننا، يحاول فهم كيف سيكون تصرفي القادم.

جاءتنا مهرولة، توقفت وقد سترت وجهها بحجابها قائلة والخجل يكسوها:

– لست بغيًا... أقسم لك.

كانت تحاول سبر أغوار غطاء رأسينا، فأشرت ليعقوب بإكمال المسير، وأوليتها ظهري وهي تركض إلى جانبي قائلة:

– لماذا لا تتحدثان معي... لم أفعل فعلتي إلا بعد أضناني الجوع ونال الموت ممن أعرفهم. لا تتركاني خلفكما، أرجوكما.

توقفت عن السير قائلًا:

– ارحلي، ولا تعيدي ما فعلتيه مرة أخرى.

طاردني نحيبها بعدما تركناها خلفنا لمسافة قصيرة. لا أستطيع الهرب من نظرات يعقوب، يلومني على تركها بصمته. لم يكن هناك بد من الانصياع للرحمة..

– يعقوب، خذها معك لمنزلك... أطعمها من سمك الطين وحافظ عليها. نلتقي بعد رحيل شمس الغد عند المقياس. يعقوب، كن حذرًا، ولا تفض لها بأي سر.

ألقيت كلماتي على مسامعه، وتركت ساقيّ تحملانني إلى القطائع، حاملًا هموما أثقلت كاهلي.

***

أحاول النجاه داخل مدينة الموت، والبقاء على قيد الحياة حتى الآن هبة من الله. فقط كل ما عليَّ هو المحاولة، والسعي للبقاء قدر الإمكان حيًا، دون ذنوب أو آثام. سأدافع عن الضعفاء وأساعدهم...

سأبحث معهم عن سبيل للنجاة.... إن كانت هناك نجاة.

لم أعد أقص على مريمة ما يحدث في الخارج. لن ألوث صفاء الناسكة بما يفعله الباحثون عن الحياة. نكتفي بقليل الكلام، منذ أن صارحتها بسبيل الانتقام. أشعر أنها لا تحب ما أصنعه، إلا أن دعاءها لي بالنجاة لا يتوقف. هي خير مثال للناجين من الفتن وعذاب الله، الذي ما إن ينزل بقرية لا يترك صالحا أو طالحا. فقط الصالحون يصبرون على البلاء، يعلمون أنهم باختبار صعب، وليس عليهم سوى الثبات والتضرع وإيجاد سبيل للنجاة دون معصية تجعلهم من أصحاب السعير. سأنهض لتناول العشاء معها، فقد أعدت عشاءً شهيًا، طجين السمك وقطع البطاطا، وهي لا تكف عن النداء....

«يا بني سَيبرُد الطعام...»

– لم أذق أشهى من طعامك يا أمي.

قلتها وأنا ألقي آخر قطعة من الطعام في فمي. كانت أنهت طعامها هي أيضًا، ومضت تراقبني بنظرة تحمل الكثير من الشجن والحنان. ابتلعت لقمتي، لأقول بعد ذلك:

– ما بك يا أمي؟

مع انتهاء حروفي، انفجرت بالبكاء... مريمة القوية تذرف الدموع في غزارة، تبعث في جسدي القشعريرة. لا أعرف ما السبب، ولا أدري كيف هو السبيل لإيقاف النهر المنساب عبر تجاعيد وجهها. بخفوت قلت، والأسى يعتري قلبي:

– ما يبكيك أماه؟

مسحت بظهر يدها دموعا لا تتوقف، وقالت بصوت استدعت به بعض قوتها:

- لا شيء... لا شيء يا ولدي.

حركت رأسي قائلًا:

- لا تبكي مريمة إلا لشيء جلل!

ابتسامتها المختلطة بالدموع تبعث في القلب راحة. أشاحت بيدها قائلة:

- أخاف فقدانك مرة أخرى يا ولدي... لم يعد لي سواك، وقد حملت من قبل أمل عودتك، فلا أريد أن أفقدك. أنت ولدي الذي لم أنجبه يا حسن... أذكر ذلك اليوم حينما سألت عبد الرحيم عن حكم إظهار وجهي أمامك أنت ومحمود، فقال لي إنهما بعمر أحفادك يا مريمة. انفجرت حينها في البكاء.. الأحفاد والذرية هو ما أريده لك يا ولدي. قد يكون لك أب وأم في الشام، ولكن أنت ابني يا حسن، ولن أجعل سوءا يمسك، فأرجوك يا ولدي كن بخير لأجلي... كن بخير لأجلي يا حسن.

أومأت برأسي مبتسمًا، في محاولة لتخفيف ما حل بها، بينما تابعت هي:

- لم أر تلك الفتاة «زبيدة»، ولكن حينما تعلم مكانها، ستأتي بها إليَّ؛ أليس كذلك؟

ضحكتُ خجلًا، وقامت هي حاملة الأطباق الفارغة:

- على الأقل لتساعدني هي في الطبخ. أظنك ستقول إنها أمهر مني

عندها؛ أليس كذلك يا صاحب القلب الطيب.

قهقت ضاحكًا:

- أي قلب هذا...

جاء صوتها من داخل غرفتها:

- قلبك المشغول يا ولدي.

لكلماتها روح تحمل الأمل، وتبعث في نفسي حبا نبت على شواطئ الإسكندرية. لن أبرح حتى أجدها، أو أعلم ما حدث لها. ابنة الوزير الماوردي صاحبة هذا القلب، لا أعلم كيف استحوذت عليه، لعلها تملك صولجانا سحريا، ربما، أو لعلها هالة روحية أصابتني بمس، فصارت لا تفارق منامي، أو قد تكون روحا خفية تجسدت بقبس من نور سرمدي.. فقط كل ما أعرفه أن طيفها يمنحني بردًا وسلاما.

زبيدة هي كوكب دري ينير ظلام الليالي، ويؤنس منامي. أذهب معها لحدائق القاهرة وبساتينها، نركض على العشب الأخضر، وأضمها إلى صدري، فتجد فيه ملاذها لتضع رأسها على كتفي، نمضي الوقت في النيل، يحملنا فلك صغير إلى ميناء الإسكندرية، فنشق البحر إلى الشام، حيث تستقبلنا دمشق بأهازيجها وزينتها....

اللعنة على تلك الأوهام.... فإن كانت تمدني بسبيل للحياة والبحث عن زبيدة، فهي أيضًا تذكرني بقيعان نهر جاف وعظام ولحوم بشر تؤكل.. تذكرني بالسبيل الوحيد للبحث عنها.... عثمان.

آه يا زبيدة، أنت الحلم البعيد القريب.

***

المرة الأولى التي أصل فيها متأخرًا عن موعدي مع يعقوب، فقد هيمن الليل على الأرض القاحلة، وتوسط القمر ربوة مقياس النيل، لينعم بضوئه على القاع الطيني، وذلك الفتى المثابر. كان يعقوب قد بدأ دوني، واصطاد عشرين سمكة مختلفة الأحجام، ألقاها بجوار جدار المبنى. ما إن رأى شبحي، حتى قال بصوت عال:

- تأخرت أنت، فشرعت في الصيد...

كان يتحدث بوجه ملطخ بالطين، وسمكة تحاول التملص من يد أحكمت القبض على ذيلها. صعد إليَّ، وألقى السمكة التي أخذت تنتفض، لينتفض من بقى حيًا من إخوتها معها، قبل أن يستكين الكل ويهدأ المكان. أخذ يعقوب في مسح وجهه الملطخ بالطين بخرقة قديمة، بللها ببعض من ماء جربته. جلست وأنا أرفع قلنسوتي عن رأسي قائلًا:

- كيف حال تلك الفتاة؟

قال يعقوب ضاحكًا:

- مليكة!! اسمها مليكة....

تأملته في انتظار أن يقص عليَّ بما استخلصه منها، لكنه أخذ يمسك بأسماكه في برود مزيف، يحاول إثارة فضولي الذي كان قد وصل للذروة، حينما نطق أخيرا:

- إنها إحدى جواري قصر السلطان المستنصر...

قاطعته بحزم:

- يعقوب، احذر أن تغويك أو تستحلها لنفسك.

بعيون تحمل البراءة وبصوت صدق قال:

- ما إن دخلنا المنزل، حتى توارت بحجرة أخرى. لم أسمع سوى صوت نحيبها وتضرعها. كانت تصلي وتبتهل، وحينما ناديتها للطعام كانت قد أخفت وجهها تمامًا خلف نقابها، لا يظهر سوى عينيها. ألم أقل لك إنها قد تكون فعلت ما فعلت وهي مضطرة؟.. ثم إنها سألتني عما نفعل، ومن أين نأتي بالطعام، وأجبتها...

قاطعته مرة أخرى:

- هل سألتك عني؟

ابتسم يعقوب قائلًا:

- نعم، ولكن أنسيت أني مثلها، لا أعرف عنك شيئًا؟...

كان يعقوب محقا، فهو يتعلم ما أدربه عليه فقط، ولا يسأل. ظننت أنه لا يريد أن يعرف شيئا، فقط يريد الحياة. ولكن سري لن يعرفه أحد، لا أنت أيها الفتى، ولا تلك الفتاة. حتى محمود، في اليوم الذي قررت أن أهبه بعض الطعام، وأن أفصح له عن مكاني قُتل. أنقذني يعقوب من عاصفه أسراري وهو يربت على يدي قائلًا:

- سيدي، أين ذهبت؟

انتبهت له قائلًا:

- لا شيء. أكمل ما قصته عليك تلك الفتاة.

أمسك يعقوب بأسماكه، وأخذ يرتبها ويربطها في تسلسل، وهو يسرد ما قالته تلك الفتاة « مليكة »...:

كانت إحدى جواري القصر الغربي، قد نالت نصيبها من رغد

الحياة، قبل أن يسوء الوضع. هربت في اليوم الذي أتى فيه الجند وحاصروا قصر المستنصر. رأتهم ينهبون القصر وكنوزه، حتى المكتبة العامرة لم يتبق فيها شيء. كانوا يهللون ويزمجرون، يضربون من يعترضهم نظرا لتأخر السلطان عن دفع رواتبهم، ولم يعد هناك من الطعام شيء. سلبت الدروع والسيوف، وبقى المستنصر وحيدًا جائعًا. رأت بعينها نساء القصر يهرولن إلى ما بين القصرين، قبل أن يصل بهن الحال أن أصبحن مشردات هائمات يبحثن عن كسرة طعام، وفي نهاية الأمر، صار معظمهن طعاما للجوعى... أخذت تبكي لوقت دون سبب يعرفه يعقوب، وعندما سألها لما تبكي، أجابته أنه قد عرض عليها لحم البشر، فتعففت، فطاردها من كان يأويها، والذي يبدو أنه كان يجهزها لتكون الوجبة المقبلة...

- مليكة فتاة تعففت، فأنقذها الرب.

كانت جملة يعقوب الأخيرة قوية، فالله ينقذ من في قلبه مثقال ذرة من خير، فالعذاب يحمل في طياته النجاة، فهو ابتلاء وصبر للمؤمنين، وصيب من حميم على الخاطئين المستمرين في لغوهم معرضين... لذا وجب تغير المسار إلى الطريق الصحيح.

- يعقوب، اسمع...

انتبه يعقوب لي، بينما أكملت:

- كم تستطيع أن تصطاد يوميًا من تلك الأسماك؟

لم يفهم يعقوب مغزى سؤالي؛ ولكنه كان يعلم أن هناك شيئا أخطط له. شيئا لم يولد إلا الآن...

***

صدق يعقوب حينما قال إن هناك من هم على الفطرة لا يأكلون لحم بني جنسهم؛ بيد أنهم قد يرتكبون الآثام في سبيل الحصول على طريق للنجاة. هؤلاء يجب إرشادهم ونجدتهم.. هؤلاء يستحقون الحياة. كانت مليكة تثبت كل يوم قدرتها على استيعاب ما نحن مقدمون عليه. كانت تتعلم صيد أسماك الطين معنا. حديثي معها كان كقطرات على أرض جدباء، سرعان ما تتبخر وكأنها لم تكن، فكل ما يشغل عقلي هو الصيد، والتدريب، والبحث عن ناجين.

انقضى رمضان دون أن نشعر به. الصوم يوفر بعض الطعام، وحقل مريمة أصبح يفيض بالمزروعات، وهذا ما جعلني أفكر في إدخار بعضها لما نجهز له أنا ويعقوب، فقد ربض لأيام هو ومليكة يراقبان زقاق القناديل بحثًا عن أحياء، لكن صدق حدسي، فالزقاق مهجور تسكنه أطياف الموتى. الجيد في الأمر أنه زقاق استثنائي.. مخرج واحد، ومدخل واحد. أيام دأب فيها يعقوب ومليكة على تحصينه وتجهيزه لاستقبال من سنجلبهم لهنا. فقط علينا اختيار من لا يشتهون لحوم البشر.

الليل رفيقي الدائم، أشعر أن عينيّ أصبحتا تألفان ظلمته. صوت خطواتي يؤنس وحدتي في شوارع الفسطاط. ليومين، كنت أراقب ظلالا شاحبة تخرج بحثًا عن أي شيء يؤكل، ثم تعود إلى جحرها في أحد الأزقة الضيقة. لم أستطع كشف حقيقة ذلك الشخص، لكنه يخفي شيئا ما. انتظرت كثيرًا أن يظهر اليوم، ولكن لا أثر. الانتظار يفقدني صوابي.. أصبحت أكثر توترًا، لذا قررت التخلي عن بعض الحذر والتوجه إلى حيث مخبأ الظلال. وضعت الباب صوب عيني،

وحواسي تلتقط كل شيء.. تنصت أذناي للعدم، وأنفي يلتقط رائحة الموت... بضع خطوات تفصلني عن الحقيقة التي جسدها عقلي. لامست راحتي مسام الخشب، لتسري برودة في أعماقي مع تلك الرائحة الكريهة المنبعثة من الداخل. لن يكون الأمر أسوأ مما رأيت من قبل، فقط مواربة الباب تكفي لألقي نظرة على ما يدور بالداخل. كانا اثنين نحيفين، منهمكين في العمل على جسد لا يظهر منه سوى ساقين. كيف يتحملون تلك الرائحة؟

إحساس بفقدان الأمل راودني، فمن راقبته لأيام اتضح أنه مثلهم. لا مكان هنا للأسوياء. لم يعد هناك مكان سوى لآكلي الـ.....

توقف عقلي تمامًا عن تخيل الأسوأ، مع سماعي لصوت أحدهما وقد فاض من جنباته النحيب:

« وداعًا يا أمي.. وداعًا يا أمي »

قالتها صاحبة الصوت، وهي تدفع بقطعة قماش أبيض إلى من يجوارها، والذي ربت على كتفها قائلًا:

- لا تبكي يا جويرية. أمك صالحة، والصالحون مكانهم الجنة، فلا تعذبيها ببكائك..

انطلق عقلي بعيدًا، ليمنحني بعض الصمت، بينما انهمكا في تكفين الجسد، قبل أن يجهش هو أيضا بالبكاء. عبرات انسابت من عيني، أنا الذي ظننت أن البكاء قد فارقني للأبد. أمام عيني، كان هناك طفلان حديثا السن يكفنان أمهما، التي يبدو أنها ماتت منذ أيام و...

صوت خطوات يأتي من بعيد، تبعتها ضحكات كريهة وضجة لحديث بعض الناس، وفي آخر الزقاق كان يتجلى ضوء مشعل

ينعكس على الحائط. إنهم قطيع من المفترسين يبحث عن صيد. لم يكن أمامي بد من دخول المنزل قبل قدوم هؤلاء ورؤيتي...

دخولي المفاجئ أفزعهما، فتجمدا من فرط الرعب. العيون أغرورقت بالدمع، والخوف راح يطل من قسمات وجهيهما. أمسك الفتى حديدة صدئة، وقال بصوت مرتجف وأنفاس متلاحقة:

- من أنت؟

لم أجبه. نظرت للفتاة التى تحاول أن تخفي عن ناظري الجسد المكفن، وكأن نظراتها تقول لا شيء هنا صالح للأكل. رفعت راحتي في وجه الفتى بهدوء هامسًا:

- أقسم أني لا أريد إيذاءكما...

ولأظهر لهما حسن نيتي، خلعت غمد سيفي ووضعته أرضًا بهدوء، وأتبعته بالسلسلة متلافيا صليلها، محاذرًا أن يسمع صوتنا من يجوسون بالخارج. اعتدلت، وأزحت غطاء رأسي، ليتبينا ملامحي على ضوء شمعة في رمقها الأخير. علت الأصوات في الخارج لتعلن عن اقتراب الجوعى. تبادلت النظرات في صمت معهما، قبل أن أقول بصوت خافت:

- أنا هنا لنجدتكم، وليس كما تظنون.

أنهيت جملتي وأنا أرفع سبابتي أمام شفتي أن اصمتا، وبيدي الأخرى طمست ضوء الشمعة ليحل الظلام، ثم -وبسرعة- التقطت سلاحي.

***

إن أردت أن تهزم الخوف، لا تغلق عينيك.. واجه وتحدى.. اجعل الظلام سلاحك كما هو سلاحه. إن حبست أنفاسك، سيتسلل إليك، وإن تركت عقلك للأوهام، لن يعود مجددًا كما كان. هذا ما فعلته، بينما حبس كلاهما أنفاسه. أسندت ظهري إلى الباب، أرهف السمع لما يحدث في الخارج. كانوا يشمون رائحة الموتى ويعرفون أن ذاك الزقاق به وجبة دسمة. يفتشون الدور، ويتبادلون الضحكات. اقتربوا من الباب، فتحسست خنجري أنتظر اللحظة التي سيفتح أحدهم الباب. نقلت بصري في الظلام ناحية الأخوين، لم أرهما، وإن أحسست بأنفاسهما... مرة أخرى صوبت نظري ناحية الباب.. زفير أخير، توقفت بعده عن التنفس و....

ولكن حدث شيء ما بالخارج.. حالة من الهرج وصيحات الظفر، تبعها صوت خطوات سرعان ما راحت تبتعد. لم أفهم ما يجري بالخارج، ولكن يبدو أنهم يطاردون أحدهم.

لحظات، وعاد السكون يهمين على المكان. واربت الباب، وألقيت نظرة خاطفة على الخارج. لم يكن هناك أثر لحي، أو حتى لضوء مشاعلهم. التفت إلى حيث صوت الفتى:

- هل رحلوا؟

أجبته بهدوء:

- نعم، وعليكما الرحيل أيضًا.

قضيت الليلة معهما، يقصان عليَّ الأهوال، وكيف أن امهما حافظت عليهما.. كيف أنها كانت تحاول النجاة معهما دون ان تمسهم روح

الشيطان -كما كانت تقول- فكل الناس أصابهم مس من الشيطان. لم يأكلوا لحم البشر، وإلا كانوا أكلوا أمهم، دون تكفينها والصلاة عليها معي. هكذا فعل البعض مع موتاهم -كما ذكروا- لم يعد أحد يتورع في أكل أقاربه، فقط النجاة هي كل ما يشتهون.

عاشت الأم فترة مع ولديها. أكلوا الفئران، القطط، الثعابين، الديدان، والتماسيح الصغيرة قرب إحدى الترع الطينية. لكن البشر محرم أكلهم؛ هكذا علمتهم.. الإنسان لا يأكل لحم أخيه. أخبرني الغلام أن هناك ناجين أيضًا يختفون عن الأنظار تحت البنايات، وأن الليل هو أسوأ ما يفكرون فيه، ففيه تجوب الطرقات فرق الصيد.. صيد البشر.

أقنعتهما أن البشر رغم أنهم خسروا النبل والإنسانية والشهامة.. خسروا أنفسهم.. إلا أنه مازال هناك أمل. مع ضوء الفجر، خرجت معهما، بعد أن أقنعتهما بالذهاب معي.. بكاء الفراق في النظرة الأخيرة على المنزل هو كل ما فعلاه. حزما أمتعتهما -وهي قليلة- والفتاة تقول لي:

- إلىَّ أين نحن ذاهبون؟

أجبتها بهدوء:

- ذاهبون إلى الأمل...

إلى زقاق القناديل...

***

زقاق القناديل الخالي من أهله أصبح هو ملجأ الفارين من الجوع والقتل. تمت حماية مداخله بمجموعة من الأفخاخ، بين كلاليب

وشِباك، أما الأسطح فقد كانت تحاصرها رماح خشبية، تمنع التسلل للداخل. فقط من نعرف أنه من الصالحين، الذين أنهكهم المرض والجوع ولم يأكلوا لحم البشر، له الحق في العيش داخل الزقاق. أصبح العدد كبيرا الآن. قتلى آكلي لحوم البشر ينتشرون في أزقة الفسطاط على قرب من زقاق القناديل. ذاع صيت الناجين وقائدهم ذي السلسلة القاتلة ورفيقه؛ فتاة ترتدي ما يشبه ملابسه، غطاء رأس أسود ولثامًا أحمر، سيفها لا يرحم أحدا، وكلاليبها لا تخطئ الهدف. كل من تسول له نفسه أن يصطاد البشر أصبح الآن طريدة لهذه العصبة. كانت تقدم الأسماك المملحة وطواجن الأسماك. رائحة الطعام تجذب العديد من الجوعى، ولهذا تم تعيين بعض الرجال بين شيب وشباب، لحفظ مداخل الزقاق وأسطح البنايات. لقد نجحت طوال أشهر في توفير الطعام لمن التحق بنا، فالقليل يكفي، والله يبارك لمن أرادوا طريقه.

منذ أيام، قمنا بالاستيلاء على قافلة كانت للجند التركي المهيمن على مقاليد الأمر. لم نستطع الاقتراب من القاهرة أكثر، فالملثمون أصحاب العصائب الخضراء يكثفون حراستهم حول مقرهم، القريب من قصر المستنصر. الليل هو سر تفوقي، فمع كل غروب أترك القطائع، وأذهب إلى الفسطاط، أدخل زقاق القناديل سرًا، أرتب أموري مع يعقوب ومليكة، ونخرج إلى صيدنا الليلي.. صيد آكلي لحوم البشر. لا نستهدف إلا أكابرهم، فهم أكثر قوة، أما التابعين الجبناء، فهم جرذان يخافون القتل، وفقط يتبعون من يرشدهم للطعام، حتى وإن كان الطعام أحد أبنائهم.

اليوم، سنستهدف أحد الأشخاص اشتهر ببيع لحوم الأطفال والنساء. وجدنا بعض العظام الليلة الماضية قرب حصن بابليون، واليوم استطاعت مليكة اقتفاء أثر إحدى النسوة اختفت في حارة الدباغين القريبة من الحصن. سنتجه إلى هناك بعد قليل.

بت أعشق المواجهة. تبدل الحال كثيرًا...

حسن الذي يحاول النجاة....

حسن الخائف من المجهول....

حسن الذي كتب عليه الهرب منذ قدومه لهذه البلاد.... صار الآن سلطان الظلام. من كانوا يتلذذون بدماء ولحوم الأبرياء، ويبعثون في نفوس الناس الخوف والرعب صاروا يختبؤون خلف نوافذ خشبية ملطخة بسواد من أثر الدماء، عيونهم تتفحصنا. أشعر بأنفاسهم المتلاحقة. ضوء مشاعلي يحيل ظلام حارة الدباغين إلى نهار. أتقدم بخطوات واثقة، وعن يميني يعقوب، وعينين ملونتين كعيني جارح يحدد أهدافه فوق الأسطح، وعن اليسار مليكة تجرح بسيفها الحائط الذي يصرخ بشرر.

دقائق من الصمت مرت. كنا كأصنام تقف وسط مذبح، تنتظر القرابين المقدمة إليها. الجمود يهيمن، ولا أثر لحي. حتى دفقات الهواء الساخن، الآتية عبر الحارة، انعدمت!

حاول يعقوب التقدم خطوة، فأوقفته بإشارة من يدي، تزامنت مع أصوات صياح غاضبة. فتحت الأبواب في وقت واحد، وسرعان ما راح المكان يعج بالهراوات والسيوف. معركة غير متكافئة، على ضوء

مشعل واحد، أسقطته من يدي، وراحت الظلال تنقل صورة المعركة على جدران لم تلبث الدماء أن تناثرت عليها. كنت أدور حول نفسي بسلسلتي، التي أطاحت بثلاثة رجال، في الوقت الذي كان يعقوب يضع قدمه على ظهر أحد المصابين، ويقفز ملوحًا بسيفه في وجه أحد الرجال، الذي كان خُطاف مليكة يستقر بعنقه، قبل أن تسقط عليها شبكة ثقيلة ألقيت من فوق المبنى المجاور. حاولت مليكة التملص منها دون جدوى، فما كان عليٍّ سوى مساعدتها. ناديت على يعقوب أن يحمي ظهري، حتى أستطيع تخليص الفتاة من الشباك التي علقت بها. ضربات قوية من سيفي قطعت الحبال، ومددت يدي لمساعدتها على النهوض، ففوجئت بها تجذبني بقوة. لم أفهم ما قامت به، إلا عندما وجدت جسدًا يسقط فوقي.. أنقذت مليكة حياتي!

فوضى من أشلاء وقتلى وجرحى، كانوا يشتهون لحومنا فأصبحوا يبحثون عن أمل في النجاة ولو حبوا. أسوأ ما يتوقعونه هو أن نأكلهم، ولكن لا تأكل الذئاب أقرانها. أحد عشر جسدا ملقى، وعلى مقربة منا كان يقف شخص أشعث، يحمل مشعلًا أضاء وجهه القبيح، وعصابة رأسه الخضراء، تلك التي كتب عليها: «مدد يا عليّ»

كان يقف مزمجرًا، ممسكًا بفأس كبير، نظراته تحمل المقت، ومن خلفه بضعة رجال يتشحون بالسواد، وقد عرف مقدار قوتنا، فلم يحاول الهجوم. في لحظات التحدي هذه، أمسك أحد الجرحى ساقي. لفظ بضع قطرات من الدماء وهو يقول بصوت متحشرج خافت:

- أنقذني يا أخي....

جثوت على ركبتي أمام العيون المتربصة، ويعقوب يقول:

- لا وقت لدينا لهذا سيدي.

والجريح يقول:

- لا تدعهم يأخذوننا إلى دار الحكمة.

لم أفهم ما يقصد، ولم أستطع ان أسأله.. فقد مات.

***

رحلنا في صمت دون مزيد من قتال، فقد كان لديهم من القتلى ما يكفي ولائمهم، وكان ما حدث يكفي لفرض سيطرتنا في المنطقة القريبة من حصن بابليون. بزغ الفجر مع دخولي للقطائع، حاملًا سمكتين، وأسئلة تفرض نفسها، وتعيد ربط الأمور ببعضها....

الأشعث وعصابة الرأس الخضراء...

دار الحكمة...

مدد يا عليّ...

إن هذه الفرقة التي تصطاد البشر ليست سوى جزء من القتلة المأجورين. خيوط تفضي لإجابة واحدة: أن حي الشيعة قرب الفسطاط يتبع للقاهرة. وجود العصائب الخضراء لا يشير إلا لذلك.

تسللت للمنزل، حتى لا أوقظ مريمة، التي كانت تسقي خضرواتها، وتوليني ظهرها قائلة دون رؤيتي:

- تأخرت اليوم يا حسن.

لم أنطق. اخترت الصمت والنوم. توجهت نحوها، ناولتها ما في يدي من سمك، واتجهت لغرفتي، فجاء صوتها من خلفي:

– يا ولدي تجهد نفسك كثيرًا... تخفي عني شيئا؛ ولم أحاول سؤالك... ولكن يا حسن ليس بعد الآن.

توقفت بباب الغرفة ويدي مازالت على المقبض، وهي تقول:

– يا حسن، الانتقام يقتل صاحبه... توقف عما تفعله.

استدرت لها، وأنا أحاول إخفاء وجفٍ لاحظته في وجهي:

– سأقص عليك كل شيء غدًا يا أمي؛ ولكن أنا بحاجة للنوم الآن.

منحتها ابتسامة لم تخف إرهاقي، ودلفت إلى الغرفة. ألقيت سلاحي على الأرض، خلعت ملابسي المتسخةَ... وتركت جسدي ليتهاوى للفراش.

أطياف تسير ببطء حولي...

وجوه شاحبة وعيون زائغة...

عصائب خضراء....

القاهرة وأزقتها الخالية...

الغراب يبتسم فاتحًا جناحيه...

عثمان يمسك برأس محمود ضاحكًا...

زبيدة تتوارى عن الأنظار...

يعقوب ومليكة يرمقانني...

دار الحكمة وحراسها....

استيقظت فزعًا صارخًا، وذاك الحبل يلتف حول عنقي، ومن خلفي يقف ذلك المجهول صاحب السلطان. ألم شديد يكاد يقتلع

رأسي من مستقرها. تطلعت للسقف لحظات، قبل أن أنهض متجهًا لفناء الدار. فتحت الباب، لأجد مريمة ملقاة أرضًا. هرولت فزعًا، فوجدتها فاقدة الوعي، فحملتها لغرفتها. بللت قطعة من قماش، ورحت أضعها على جبينها، ومر الوقت بطيئا إلى جوارها، لا أعرف ما أصنع لها. كنت أجلس مطأطئ الرأس، حينما سمعت تأوهاتها. فتحت عينيها في تثاقل قائلة:

– ماذا حدث؟

ابتسمت وأنا أشير لها بأن تبقى كما هي:

– لا تتحركي يا أمي.

بادلتني الابتسامة قائلة:

– آخر ما أذكره أني تعثرت وسقطت أرضًا....

نهضت متجهًا إليها قائلًا:

– من الآن لا تتحركي كثيرًا. سأهتم أنا بكل الأمـ....

قاطعتني بصوت يحمل نبرة تحد:

– لست عجوزا بعد يا فتى.... أمك بخير حال وصحة.... حسن، أتبكي؟!

أشحت بوجهي عنها قائلًا:

– لا لا...

لا أعرف سبب الدموع التي غلبتني، ولكن قد يبكي الحجر من شدة قسوته. نعم أنا كالحجر، فقدت كل معنى للحياة، مريمة فقط من تشعرني بالحياة، وبأن هناك من يأبه لأمري. قضيت اليوم معها،

نتسامر ونتحدث عن كل شيء، أخبرتها بما صار في زقاق القناديل، الذي أصبح وجهة الهائمين الجائعين. وحينما ذكرت لها ذلك الجزء عن دار الحكمة، قالت:

- ابتعد عن هذا المكان يا ولدي، فهو قلعة الحكام وبئر منهجهم لا تقترب منه.

لم تدرك مريمة أنها بهذه الكلمات أثارت فضولي أكثر فأكثر، وقررت أن أعرف المزيد عن «دار الحكمة» هذه، وصلتها بالقتلة، وكيف استطاع عثمان السني أن يصبح أحدهم. نعم، قد تكون خيانته لي سببا من الأسباب، ولكنه الآن في مركز قوي كما أظن. سيبقى السؤال معلقًا، حتى يحين وقت لقائي معه.

***

ثلاثة أيام مرت دون أن أذهب لزقاق القناديل. انهمكت في حصاد الحقل الصغير، وقمت بتعديل قناة للري تأتي من بيت أبو الفضل.. أجلس وقت الغروب فوق السطح، أستلقي على القش أبحر في السماء الزرقاء، قبل أن يداهمها الليل، فيضفي كآبة على الديار الخالية. أتأمل كيف كانت تلك البيوت والحارات عامرة، والآن أصبحت القطائع خرابات خاوية على عروشها، إلا من بعض الناجين في صمت، خوفًا من أن ترصدهم وحوش القاهرة والفسطاط. مريمة تتحرك بصعوبة بين الحين والآخر. جهزت لها بعض الطعام، وقدح الماء بجوارها.. أخبرتها أني سأذهب للصيد، وسأمر على يعقوب ومليكة. نلت بضع دعوات منها، قبل أن أودعها ذاهبًا إلى حيث مملكتي الخاصة.

الفسطاط المظلمة تحبس الأنفاس. أزقتها الضيقة مازالت تحوي شراك الموت، أما الحياة فهي في تلك البقعة المتوهجة بالمشاعل. زقاق القناديل نبع الحياة، وحصن الضعفاء.

عبر نفق قد سبق حفره، دخلت إلى مقري.. غرفتي القديمة، أشعر بروح محمود يجوبها ليلًا. أحاول تلاشي الظلال التي يقف دومًا بداخلها يراقبني مبتسمًا. يبدو أن الجنون يجد طريقه إلى روحي. نزلت إلى الزقاق، حيث كانت مجموعة من الصبية يرددون آيات خلف أحد العجائز يحفظهم إياها. آخرون يقفون إلى جانب منزل الست فاطمة، الذي أصبح مكان حفظ المؤن. الكل يرمقني بنظرة تحمل ألف سؤال، لهم نفس المعنى.. الوجوه بائسة، والعيون غائرة، البعض يداوي جراحه والبعض يبكي. لا أعلم ما حدث هنا..

« أين كنت طوال الأيام الماضية؟ »

نطقتها مليكة وهي تنفصل عن بعض النسوة كن يقفن معها. لم أجبها، ومضيت في طريقي إلى البوابة الشمالية للحارة، حيث كان الرجال يجتمعون هناك حاملين المشاعل. بخطوات واسعة صارت تسير إلى جانبي قائلة بتوتر:

- سيدي، هناك الكثير من الأمور يجب أن تعلمها.. لقد حاول بعض جند السلطان اختراق الحواجز أمس.

قد صدقت ظنوني.. سيأتون إلينا. كانت مليكة تتحدث عن مواجهة دارت هنا قرب الحاجز. لم يكن يعقوب بين الرجال، فاستدرت لها سائلًا عنه.. قالت:

– لقد ذهب للقاهرة مع الغروب. قال إنه سيستطلع بعض الأمور.

اجتاح جسدي شعور غريب. قد يكون الخوف من الغدر؛ فأي أمور هذه التي يريد استطلاعها؟ ولماذا ذهب دون أن يقول لي؟.. ترددت الأسئلة على عقلي، وأنا أكمل طريقي ناحية الحاجز، ومليكة تتبعني قائلة:

– أخاف أن يصيبه مكروه.

لم أبال بأي مكروه قد يصيبه. في الحقيقة، كنت أعلم أنه سيعود.

وبينما أقف إلى جوار بعض الرجال، عند الحاجز الشمالي، وعلى الضوء الخافت ظهر يعقوب قادمًا من نهايه المم. كان يمسك بجانبه الأيسر، وخطواته بطيئة بعض الشيء. أزحت الحاجز، وتقدمت إليه ومن خلفي مليكة والرجال المتحفزين لأي طارىء قد يحدث..

– يعقوب، ماذا حدث لك؟!

نطقتها، في حين تجاوزني الرجال ليحملوه إلى الداخل. وقفت متأملًا الظلام في نهاية الزقاق، وكأن هناك شخص يقف تواريه الظلال ساخرًا. استدرت، وعدت إلى داخل زقاق القناديل. أحكمت إغلاق الحاجز، ونبهت الرجال لأن يحافظوا على يقظتهم.

أخذت مليكة تداوي جرح يعقوب. أصابه سهم كما يبدو. كنت أحاول طرد فكرة أن يخدعني، كما خدعني عثمان من قبل في الإسكندرية، حينما لطخ وجهه بالدم يوم أن جاء يخبرني بخطف زبيدة. لا، يعقوب ليس مثله.. حتى وإن كان مثله، سأستمع له بإتقان. لن أصدق ولن أكذب ما سيقول، ولكن سأغير كل شيء..

الإفراط في الثقة هلاك.

انتهت مليكة من تطهير جرح يعقوب قائلة:

– إصابته سطحية الحمد لله

رمقني يعقوب المتألم قائلًا:

– أعتذر عما سببته لكم من إزعاج..

رميته بنظرة حادة وسؤال أكثر حدة:

– لماذا ذهبت للقاهرة؟

تبادل يعقوب النظرات مع مليكة، قبل أن يقول:

– لم تأت أنت لثلاثة أيام. بحثت عنك في كل مكان، وعندما هاجمتنا تلك الفرقة الصغيرة محاولة المرور عبر زقاق القناديل، استماتت الجميع في الدفاع عن المكان. لقد أفلحنا دون أن نخسر روحًا واحدة. الإيمان هو ما كان يحركنا. أصبنا العديد منهم، فعادوا مدحورين من حيث أتوا.

ووجب عليَّ تأمين المكان بعد ذلك الهجوم، فصرت أتنقل فوق الأسطح متتبعًا إياهم. ذهبوا للقاهرة، فكنت كظلهم.. حملوا جرحاهم إلى داخل «دار الحكمة». المكان له رهبة. ظلال أركانه، مع أزيائهم السوداء تمنحهم تخفيا لا مثيل له. استطعت التسلل للداخل، فوجدت المكان مقسمًا لعدة قطاعات واسعة، تحتل مكتبة ضخمة الجزء الأكبر منه، أما في الجزء الآخر فيتدرب فيه العديد من المقاتلين الإسماعيليين الأشداء. تتبعت أحد قادتهم عبر ممر واسع، أرضيته من الرخام الأبيض، وجدرانه تحوي نقوشا كثيرة جعلت منها المشاعل

لوحة فنية تمتد عبر الممر. استترت بأحد الأعمدة حين مرت مجموعة منهم، يسحبون جثة راحت آثار دمائها ترسم طريق الدخول لذلك المكان. وفي الداخل، كان يقف شاب أسمر له أنف معقوف قليلًا، لا يختلف زيه كثيرًا عنهم، وأمامه ذلك الرجل الأشعث صاحب الفأس ومحدثهم.. كان رجلا وقورا ذا هيبة، يبجلونه.....

سكت يعقوب قليلًا قبل أن يتمتم:

- لقد كان غاضبًا... وقد ذكروا له اسم زقاق القناديل. سيدي، إنهم يجهزون لاقتحام المكان...

***

دار الحكمة.. ذُكر الاسم على مسامعي كثيرًا في الأيام الأخيرة. قصص الناجين تقول إن به شيئا مريعا يحدث، وأحيط بحالة من الرعب والقدسية. لقد بناه الخليفة الحاكم بأمر الله ليكون منافسا قويا لبيت الحكمة العباسي في بغداد، وجعله قبلة لعلماء الإسماعيلية، وبداخله توضع أسس الفقه الشيعي، ويتم التخطيط لبقاء دولة خلافتهم الشيعية؛ الفاطمية كما يطلقون عليها. روح مقيتة بعثت في نفوس دنيئة قاتلة كخنجر أبي لؤلؤة المسموم. في البداية، أسروا العقول بالاحتفالات وأصناف الطعام والحلوى. أما في عهد ذلك المجنون «الحاكم بأمر الله»، فقد صارت دعوتهم جهرًا في الساحات، وفي جامعهم الأزهر.. تنزَّلوا على الناس بنصب وعذاب، وصار الرعب هو أساس المُلك، والقتل والدماء من قواعد الحُكم والسيطرة. قصت عليَّ مريمة الكثير من حوادث جنونه، والتي جعلت الأمور

تزداد تعقيدًا، وقيل إن شقيقته «ست الملك» قامت بإهدائه مجموعة من القتلة لحمايته، فمنحهم رعايته، وزادهم بأسا وقوة، واستجلب المزيد من الصقالبة والعبيد الصغار، ليتربوا في كنفه داخل أروقة دار حكمته على معتقده، ليحموا مذهبه ومذهب آبائه. الإمام عندهم هو من يحكم، وهو من تجب حمايته.. ادعى أن روح الله تجسدت فيه، فلم يرفض الناس، بل ازدادوا خوفًا ورضوا بالمذلة. حتى بعد اختفاء الحاكم عن الدنيا، بقيت دار الحكمة وحماتها معقل الدفاع عن الإمام الجديد.. حتى وإن كان المستنصر ضعيفًا، لا يملك من الأمر شيئا، إلا أنه في نظرهم مقدس.. هو الإمام، ويجب حمايته ونصرته، ففي ذلك حماية للمذهب.

قضيت اليوم في جنبات زقاق القناديل، أستمع لقصص النجاة ممن جلبناهم. أصدقهم جميعًا فيما قالوا. عيونهم تفيض بالألم، كلما تذكروا كيف نجوا. لم يأكلوا لحم البشر قط، هكذا أقسم الجميع. يحمدون ويشكرون الله على ما هم فيه من نعمة، سببها أمل نبت من إيمان خالص. كان من بينهم رجل يريبني كثيرًا، لم يتحدث معي مطلقًا؟ نظراته توحي بالخوف والخذلان.. الدموع تتجمد في حدقتيه الواسعتين من أثر الجفاف والجوع. فيما بعد عرفت أنه اضطر أن يبيع جثمان زوجته لأحد رجال دار الحكمة مقابل حفنة من طعام؛ فهي ماتت وهو لن يأكلها. رضي أن يأكلها غيره، فلا يضير الشاة سلخها بعد ذبحها.

إن هؤلاء القتلة يقتاتون على العامة من البشر، وقد باتوا يعلمون بأمر زقاق القناديل، وكما قال يعقوب سيأتون عاجلًا أم آجلًا. لذا،

يجب أن يكون القادم هو مالا يتوقعونه. أتمنى أن يأتي عثمان على رأس رجاله.

أمرت الرجال بوضع المزيد من الأفخاخ على المداخل والأسطح. مليكة تشرف على العمل بدقة، تراجع كل شيء وتتأكد من صلاحية الشراك المنتشرة. أشرقت الشمس والعمل لم يتوقف بعد، والكل يشارك في تأمين المكان. كنت أقف فوق سطح الخان، عندما جاء صوت يعقوب من خلفي..

- إنهم أكثر قوة وعددا منا... أتظن أن هؤلاء البؤساء يستطيعون الصمود أمام الجند المدربين؟

رمقته بنظرة خاوية، قبل أن أشير باتجاه الناس بالأسفل..

- أتظن إني سأضحي بهم في مواجهة خاسرة؟

هم يعقوب بقول شيء، عندما أكملت:

- إنهم قطعان مستأنسة... حتى وإن نجحوا في التصدي للهجوم، فسيظل ولاؤهم للأقوى.. من يطعمهم. وإن تحرروا، فسيظلون مدجنين، يسيطر عليهم الأقوى. يجب أن يرحلوا.

تمتم يعقوب في خفوت:

- يرحلون! إليَّ أين!.. انظر لوجوههم.. إنهم يؤمنون بما تقدمه من تضحية من أجلهم. أنت من وهبتهم حياة جديدة، ونجدتهم مما كانوا فيه غارقون. أنت من أعدت الأمل. فلنرحل جميعًا، وانت معنا إذن.

استدرت متوجهًا للدرج وأنا أقول:

- انتهى الأمر.. أنت أيضًا سترحل معهم.

نقاش حاد دار بيني وبين مليكة ويعقوب. لا أمل في تراجعي عن القرار، سيرحل يعقوب ومليكة، ومعهم الثلة الناجية. أما أنا، فعليَّ المواجهة، خاصة إذا كان عثمان أحد القادمين. في جميع الأحوال، إن لم يكن ضمن فرقة المهاجمين، فعليَّ الذهاب له في عقر داره؛ لا أستطيع تحمل المزيد من الصبر...

كنت آخر الراحلين عن زقاق القناديل، المقفر إلا من بضعة أفخاخ خفية. حمل الجميع ما يستطيعون حمله من قرب ماء وسلال أسماك مملحة، حفاة بائسين. بكت مليكة، وغضب يعقوب.. ولكن سيأتي وقت يعلمان فيه أن ما فعلته هو الصواب، فالمواجهة قد تكون فيها إبادتهم. سيقصدون الطريق لدمياط، فمازالت هناك أرض خصبة. سيسيرون بمحاذاة النهر الجاف، حتى يصلون، وسيوفر القاع المزيد من أسماك الطين للقافلة الصغيرة.

عدت إلى القطائع تحت شمس الظهيرة المتابعة لخطواتي. تركت مريمة مستيقظة تصلي في فراشها، وخلعت ملابسي وقفزت إلى بيت أبي الفضيل. ماء البئر البارد يطفئ ظمأ جلدي المتيبس. دفنت رأسي داخل دلو المياه، وكتمت أنفاسي حتى كدت أختنق. رفعت رأسي مستنشقًا الهواء في قوة، ويداي تبعدان خصلات شعري الغزير عن وجهي. نظرت مرة أخرى لصفحة الماء..

« لقد كبرت يا حسن »

رددتها وأنا أحرك وجهي يمنة ويسرة، أداعب لحيتي الكثة. ارتديت ثيابًا نظيفة، وعدت إلى الدار كمن غُسل من ذنوبه بالماء

والبرد. ما إن سمعت مريمة خطواتي، حتى نادت علي. طرقت الباب ثلاثًا، ودلفت بعد إذنها، فاستقبلتني بابتسامة عريضة..

- أهو يوم عرسك يا ولدي؟

ضحكت وأنا أجلس قبالتها قائلًا:

- وهل كل من أغتسل يستعد للعرس يا أمي!!

كانت مشرقة مبتهجة. طلبت مني أن أفتح صندوقها الخشبي، وآتي بلفافة جانبه. وضعتها بين يدها، ففتحتها وهي تقول:

- رأيت فيما يرى النائم.. عبد الرحيم وقد وقف وسط مروج خضراء يلوح لي.. كان ينادي باسمي، فهرولت له. تحدثنا وتسامرنا، ورغم شيبنا ركضنا.

ذرفت دمعة وهي تمد يدها إليَّ باللفافة:

- يا ولدي، هذا هو كفني، وتلك القنينة هي ماء مسك كان قد أتى به ضيف لعبد الرحيم أتى من الحجاز.

توجست من حديثها وأنا أتلقف لفافتها بتلقائية وهي تكمل:

- يا حسن، أريد وعدا منك بأن تعود للشام إن جاءني أمر الله.

انتفضت قائلًا:

- ماذا تقولين يا أمي؟

حدقت في وجهي، ورفعت من نبرة صوتها:

- اسمع يا حسن.. إن هذه البلاد حق عليها العذاب، فلا تتعب نفسك بالبحث عن زبيدة، أو تشغل عقلك بالانتقام... ارحل يا

ولدي.. ارحل.

نهضت مقاطعًا حديثها:

- سأظل معك هنا أرعاك. لن أرحل... وإن كان على زبيدة وانتقامي من عثمان، فأنا على بعد خطوة واحدة من الحقيقة....

خفضت رأسها في أسى والحزن يعتري صوتها:

- حسن لا تلحق بنفسك الأذى.

خرجت من الغرفة وقد تضاربت مشاعري وأفكاري. كل شيء أصبح غير مرتب. ارتديت ملابسي، تأكدت من أسلحتي، غطاء الرأس انسدل فوق جبهتي، واتجهت للمواجهة التي قد تكون الأخيرة!

***

ساعات قضيتها فوق سطح أعلى منازل زقاق القناديل، جامدًا كأحد تماثيل آل فرعون، شاهدًا على ما حدث وما سيحدث. لا أنتظر الموت اليوم، وأرجو أن يمهلني حتى أقتص من البغاة. مع دخول الليل، تحولت حاملًا مشعلي، أنثر قبسات من نيرانه على رؤس المشاعل الجامدة. لم يتبق سوى ذلك المشعل أمام منزلي القديم. بخطوات ثقيلة توجهت إليه، مرة أخرى ألم رأسي يعود.. انفلت المشعل من يدي، وسقطت على ركبتي، أصم آذاني من صفير راح يهدم أركاني. لحظات مرت، قبل أن أفيق متألمًا. أمسكت بالمشعل بأصابع مرتعشة، ونهضت لأجده أمامي..

محمود!!

نعم هو.. بوجه مدمى وجسد ممزق، وكأنه نجا للتو من فكوك قطيع من السباع. تراجعت خطوة للخلف غير مصدق لما أراه. التفتُّ في سرعة ملوحًا بمشعلي في الهواء.. عدت إلى حيث يقف، ولم أجده. لقد اختفى! تقدمت خطوة أخرى في توجس وريبة، ليأتي صوت أعرفه جيدًا من خلفي قائلًا:

- لا تنظر حولك، استمر في المضي....

إنه أبو الفضيل... نعم إنه هو. استدرت، فلم أجده! رجفات تصيب قلبي، والعرق يتصبب أنهارًا عن جبيني. استعذت بالله من الشيطان، وراحت خطواتي تأخذني إلى باب المنزل. وقبل أن أرفع المشعل، سمعت صرخة ألم قوية تأتي من المدخل الجنوبي. علقت مشعلي، ودلفت للمنزل بقفزات واسعة. صعدت الدرج إلى الغرفة المظلمة التي تطل مشربيتها على المدخل الجنوبي للزقاق. الواضح أن أحدهم وقع في شرك. استقرت في جسده بعض الرماح الخشبية المسننة. وعلى مقربة منه، كانت هناك مجموعة تقف بالقرب من جثة رفيقهم لا يتحركون. وسرعان ما أخذوا يتناقشون.. يتشاحنون.. لقد ضرب أحد المتشحين بالسواد ذلك الأشعث صاحب الفأس، الذي تراجع دون أن يبدي أي ردة فعل أمام قبضة ذلك الأصغر منه حجمًا. لم أسمع ما دار، ولكن يبدو أنهم ليسوا على قلب رجل واحد.

أخذ ذلك الملثم يوزع المهام على رجاله، الذين انتشروا خارج المكان. كان يقف جامدًا يرمق المشربية التي تخفيني عن أعينهم. شيء ما حدثني أنه عثمان، أو هكذا خيل إليَّ. لم تمض ثوان، حتى كانت صرخات رجاله تزلزل المكان. نجحت الأفخاخ في صيد العديد من

رجاله، فتراجع بعضهم مذعورين، وهو يصرخ:

- لا تتراجعوا.... اقتحموا ذلك المكان، اقضوا على من تجدونه حيا.

كانوا قد تقدموا مرة أخرى في حذر. أزاحوا الحاجز وعيونهم ترصد المكان. تقدم أحدهم خطوة، وسرعان ما تراجع عنها، ليمر أمامه نصل حاد لم يصبه، فوقف ضاحكًا يقهقه قائلًا:

- الموت يخافني.

لم يتم كلمته، إلا وقد هوت عليهم جميعًا جذوع نخيل راحت تدهسهم وترسلهم جميعًا للدرك الأسفل من النار. على الجانب الآخر، كانت الشباك قد اصطادت ثلاثة من الرجال، مكثوا داخلها يصرخون في يأس، ينتظرون أن يخرجهم أحد. رمقوني في ريب، وعيونهم تحمل مزيجا من الخوف والكره والصمت. تركتهم، ومضيت في طريقي إلى إحدى زوايا الحارة. اختفيت بظلال منزل فاطمة. كنت في وضع يسمح لي برؤية أفضل للجانب الجنوبي، حيث دخل ذلك الملثم شاهرًا سيفه، وحوله خمسة من رجاله، وراحوا ينتشرون في حذر في أرجاء الحارة. عصائبهم الخضراء تطلب المدد من عليٍّ والحسين.. ولكن المدد مدد الله فقط.

«فيا منتقم يا جبار أطلب مددي منك.. فلا حول ولا قوة إلا بك»

نطقتها بيقين العمل بها. دفعت الرافعة المتدلية بجانبي، وأغمضت عيني. فبينما أذني تلتقط خمس صرخات متتالية، تعلن عن سقوط خمستهم، أولئك المحيطين بقائدهم، تعلقت جثثهم بكلاليب أصابتهم

إصابة مباشرة. حلقت أجسادهم بفعل السلاسل، راسمين دائرة من الدماء تحيط بزعيمهم. كنت أرى مدى رعبه.. سمعت نبضات قلبه، وشعرت بحرارة مقلتيه المفزوعتين. أتمنى أن يكون هو.

نعم، إنه هو.. عثمان، مرتجف خائف يرتعد. كنت أقف في أضيق مكان في الزقاق، بينا يقف هو داخل دائرة الموت، ظهره تجاهي، واقفا في المساحة الواسعة لمدخل الحارة. التفت، ليجدني شبحا يسكن ظلام الزقاق، يغطي أعلى وجهي غطاء رأسي، والسلسلة الممتدة من يدي اليمنى كمجلجلة سوداء، تترك أثر زحفها على الأرض. قد يكون عثمان أو آخر؛ ولكن المواجهة ليست سهلة مع هؤلاء الجوعى في الخلفية. رائحة الدماء جذبتهم، جثث الفرقة الأولى للملثمين في الجانب الشمالي اختفت. دخلت إلى الدائرة بخطوات ثابتة، أسحب ثعباني الحديدي المتدلي لتتوسط المكان. إن البقاء هنا للمنتصر، ففي جانب الحارة الشمالي يقف الجوعى بعيون تشتهي اللحم الطازج، وفي الجانب الجنوبي يقف ذلك الأشعث صاحب الفأس ومعه زمرة من رجاله. الكل ينتظرون اصطكاك السيوف.. ينتظرون ما يشبع أرواحهم.. ينتظرون الدماء.

***

انتظار المواجهة طويلا يجعلك إذ تحين، محسوبة خطواتك، يقظة حواسك، وهدفك واضح مباغت، لا يتوقعه خصمك. درنا في صمت حول أنفسنا، في مواجهة حتمية.. الجوعى ينتظرون، والجند يراقبون.. دقائق مرت بطيئة، قبل أن يزيح مهاجمي لثامه قائلًا:

- تَذكر ملامحي جيدًا، فسيكون آخر ما تراه....

كنت أقف ذاهلًا، رغم إحساسي المسبق أنه عثمان. نعم هو مبارزي. لم يمهل عقلي المزيد من الوقت للشرود، فقد هجم بسيفه البراق باتجاهي. ضربة أزحتها بدرع معصمي.. ضربة أيقظت بداخلي لهيب الانتقام. تراجع عثمان خطوة. قبل أن يبدأ هجومه الثاني، كانت سلسلتي الحديدية تمر فوق رأسه، مع انحناءة مرنة منه. كان أخف وزنا مني، وأكثر رشاقة. تدحرج أرضًا، ليبرز أمامي قاذفًا حفنة من تراب في وجهي. لم تؤثر فيّ، فغطاء الرأس يحجب نصف وجهي الأعلى. وجهت له ركلة قوية بصدره، جعلته يسقط أرضًا، بينما تلاحقه سلسلتي التي تفادى شفراتها بصعوبة بالغة. كان ندا قويا.. ركضت نحوه، فدار حول نفسه راكلًا ساقي اليمنى قبل اليسرى، لأسقط أرضًا، وقد أصابتني شفرات سلسلتي في فخذي. نهض ضاحكًا وهو يقول:

- ألا تعلم من تقاتل يا هذا؟

قالها وهو يستل سيفًا آخر، ويتقدم بسيفيه متابعًا حديثه:

- أنا روح الإمام....

قاطعته وأنا أنهض في تثاقل:

- لست سوى خائن يا عثمان.

لقد عرف صوتي، الذي لم يسمعه منذ زمن بعيد. تجمد في مكانه محملقًا، وجسدي يستقيم أمامه. رفعت وجهي قليلًا، ليتبين ملامحي على ضوء المشعل القريب. تمتم بصوت خافت يجاهد في الخروج، وهو يتراجع خطوتين للخلف:

- مستحيل!

لم أمهله لحظة أخرى، فقد كانت سلسلتي تلتف حول معصمه الأيمن، وتغرس شفراتها بذراعه. لم يصرخ ولم يتألم، إلا عندما جذبته نحوي في عنف. سقط سيفه الأيمن، وبقي الأيسر. اندفع نحوي في قوة، فقابلته بضربة من رأسي، فجرت الدماء من أنفه. وقبل أن يتراجع، دفعني بساقه بكل ما جمع من قوة، في فخذي المصابة، فتهاويت على ركبتي. كان يحاول التملص من شفرات سلسلتي، ولكن دون جدوى. صرنا متصلين ببعض عن طريق السلسلة الممتدة من يدي لذراعه. حاول أن يصل بنصله إلى جسدي، وفشلت طعناته في إيجاد سبيل للفتك بي. روت دماؤنا الأرض الجافة تحتنا، وحاولت جذبه ناحيتي، لكنه ألقى بسيفه ناحيتي، فأخطأ هدفه. صرنا الآن دون أسلحة، إلا تلك التي تربطنا ببعض. تبادلنا اللكمات أمام العيون المتحفزة على الجانبين. قدراتي تنخفض.. سقطت أرضًا مع لكماته وركلاته المتلاحقة.. صرت أزحف بعيدًا عنه، ليس هربًا، ولكن لالتقاط أنفاسي. هو أيضًا ينزف كثيرًا. ذراعه قد تخلع بفعل الشفرات التي تلتف حوله كأفعى عاصرة. توقف عثمان على مقربة مني مترنحا ضاحكًا مقهقهًا. رفع رأسه للسماء، وراح يحرك رقبته في نشوة، قبل أن يتبادل النظرات مع الأشعث ورجاله، ويلتفت ناحيتي قائلًا:

- سأجعلك تتوسل كما فعل محمود. لقد وشى بك، وقال إنك حي. لم أصدقه.. فكيف أصدق من كل همه هو الحياة؟

توقف عن حديثه، مع صوت ارتطام فأس كبير بالأرض، ألقاه

الأشعث على مسافة ليست بقريبة من عثمان، الذي ابتسم قائلًا:

- سأتلذذ بطعم لحمك يا حسن، كما تلذذت بزبيـ....

عاصفة من الألم اجتاحتني مع ذكره الحروف الأولى لزبيدة. عاصفة جعلت قوة تسري بعروقي.. جعلتني أسحب السلسلة في عنف، ليصرخ عثمان ألمًا ،وقد انسلت السلسلة عن ساعده مقطعة لحمه ممزقة إياها إلى أشلاء. وقف عثمان جاحظًا متألمًا ممسكًا بيده المهترئة ينظر لها مرتجفًا. لم أمهله لحظه أخرى، فأرسلت سلسلتي هذه المرة لساقه اليسرى، لتلتف عليها، قبل أن أسحبه ليسقط أرضًا صارخًا. تحول الأمر الآن.. أصبح عاجزًا ضعيفًا ينتظر رحمتي في أن أجهز عليه في سرعة؛ ولكن لن أفعلها. لن أمنيه بموت سريع... لن أمنحه راحة الموت.

خطوت نحوه أجر سلسلتي خلفي. كان يرمقني بفزع قائلًا:

- أرجوك يا حسن... حسن.. سأعوضك عن كل شيء.. أقسم....

لم يكمل جملته، مع انغراس سيفه في يده السليمة، ليثبته أرضًا، وتردد جدران حارة القناديل صرخته المدوية. بكى في ألم قائلًا بصوت متقطع:

- حسن...

جثوت على ركبتي جانبه قائلًا:

- اخرس.. لا أريد سماع صوتك..

أومأ برأسه مرتجفًا، لأزيح غطاء رأسي، ويرى وجهي وأنا أهمس

في خفوت:

- سأجعل الموت يتلذذ بسحق روحك. فعلى العالم أن يُنقى من أمثالك.. أنتم مانعوا الغيث... أنت أحد أسباب العذاب بظلمك، أنت ومن تنتمي إليهم.

حاول أن ينطق شيئًا، ولكني فاجأته بقبضتي تعتصر عنقه:

- أرواح من غدرت بهم ستشاهد منيتك...

أفلته وأنا أنهض، واضعًا غطاء رأسي التي رفعتها للسماء قائلًا:

- فلتمتع عينك يا شيخ عبد الرحيم بالقصاص... ولتخلدي يا زبيدة في جنة...

قاطعني صارخًا:

- إنها حية.. مازالت على قيد الحياة؛ أقسم لك..

رمقته بنظرة صارمة فهم فحواها، فأجابني:

- إنها بالقاهرة... إنها في دار الحكمة؛ أقسم لك.

لم أتمالك نفسي من الفرح، فتبسمت في وجهه قبل أن أوليه ظهري، ومن خلفي عثمان ينادي باسمي، والأشعث ورفاقه ينسحبون من المكان مخلفينه وراءهم. رحت أسير ناحية الجوعى، ناحية آكلي لحوم البشر المستترين بظلام المدخل الشمالي لزقاق القناديل. كنت أسير نحوهم بخطى ثابته برغم ألم فخذي. مررت بثقة بينهم، وعيونهم ترمقني، يفسحون الطريق لي، وسرعان ما ساروا عكس اتجاهي، كما شاهدت الأطياف في منامي. إنهم يمرون بجانبي باتجاه مأدبة جاهزة...

يمرون باتجاه الطعام الوفير...

باتجاه عثمان وفرقته المعلقة بالكلاليب.

ما إن خرجت، حتى وصل إلى مسامعي صوته.. صرخاته وهم ينهشونه حيًا....

***

أيام مرت، أرى في عين مريمة الحزن مما أصابني في فخذي. حاولت أن أخفي الأمر عنها، ولكن خطواتي فضحتني. لن أخرج لدار الحكمة إلا بعد التعافي. أحتاج كل ذرة قوة لكي أنقذ زبيدة.

أصبح نومي هادئًا، لا يشوبه أرق ولا رؤى. فقط يسلب النوم روحي لأستيقظ في اليوم التالي، أرعى الحقل الصغير، وأخدم مريمة التي اشتد عليها المرض. أجالسها، فتقص عليَّ ذكريات صباها.. تحكي عن زواجها من الشيخ عبد الرحيم، وسنوات صبرها وصبره عليها. لم يتزوج غيرها لعدم إنجابها. أحبها، وترفق بها، فرفعته لمنزلة كبيرة. صار الأب والأخ والابن، حتى أتيت أنا.

إنها تقترب من النهاية، فقد كَثُر زيغ بصرها وصمتها في الأيام الأخيرة. تبتسم للجدار المقابل لها دومًا، كأنما ترى ملائكة الرحمن تهيئ الأمر لها، لترتقي بروحها إلى السماء في اليوم التالي. رحلت نائمة، لم تشعر بألم انسلاخ الروح. كانت كمثل النائم، تزين وجهها ابتسامة الراحة الأبدية. رحلت عن عالم بغيض إلى حيث تسكن الملائكة وصفوة عباد الرحمن. أجهشت بالبكاء حين تأكدت من موتها. الفراق أمر حتمي الثبوت والدلالة، فما طال الأمد إلا والفراق نهايته. رحلت وتركتني وحيدًا.

كفنتها، وعطرتها بقنينة المسك الخاصة بها. صليت وواريتها التراب بجوار قبر زوجها. اجتمعا مرة أخرى كما أرادت. قصة حبهما تبعث في قلبي أمل اللقاء بزبيدة، ولكن حتى ذلك الحين سأبقى وحيدًا في دار موحشة. جلست أقرأ من مصحفها، وعيناي تقطران بالدمع. صارت الجدران تضيق عليَّ أكثر فأكثر، فلا أجد سوى سطح المنزل ملاذا لي. ساعات أقضيها في التفكر رافعًا بصري للسماء، لعل الله يرسل لي مخرجًا. أناجيه بحثًا عن عون، فلن أستطيع الذهاب لأي مكان إلا بعد شفاء جرحي تمامًا.

حقل مريمة ذبلت بعض خضرواته. لم أعد أطيق المكوث داخل الدار. أتجول جارًا قدماي بطرقات القطائع الخاوية إلا من رائحة الموت. الحوانيت مغلقة، وصمت مهيب يسكن الحارات. قد أتيت لهذه البلاد وكانت عامرة. أربعة أعوام إلا قليلا، رأيت ما لم يخطر على بالي يومًا. تذوقت طعم الخيانة والظلم. أظن أنه حان وقت الرحيل الآن.

صرت أعد الأيام حتى يطيب جرحي، الذي أوشك على الشفاء. سأذهب للقاهرة.. سأنقذ زبيدة، وأحملها معي للشام، وأتزوج هناك وأنجب الأطفال. سأسمي الولد عبد الرحيم، والفتاة ستكون مريمة. سأنسى تلك الديار الخاوية. لم يعد يشغلني ما سيحدث من سوء لأهلها أو من نجاة. وأي نجاة تلك التي ستجعلهم يعودون لطبيعتهم البشرية مرة أخرى، ويبتسمون في وجوه بعضهم البعض، وقد كانوا يأكلون بعضهم من قبل؟

الشعور بالوحدة مؤلم، ولكنه يعلمك أنه لا ملجأ لك إلا الله، فهو

جل جلالـه خير أنيس وخير مجيب. رحل كل من أعرفهم طواعية أو كرهًا. نعم سئمت الوحدة، ولكنها درس من الله ليردنا إليه. كنت قد بدأت أفهم تلك المعضلة.. أن من يرحل ويترك أثرًا طيبًا، يترك أيضًا جرحا في نفوس محبيه.

***

أطلقت الشمس أنفاسها الحارة. ريح عقيم تحمل غبارا يغشى كل شيء. هل يمنحني القدر فرصة لدخول المدينة المحرمة؟ أم أنها إعصار يحمل الموت لمن بقي حيًا، بعد موجات الوباء والجفاف. بالنظر لما كانت عليه القاهرة، وما أصبحت عليه، نرى النقيض. إنها نهاية العالم.. أرى كيف كانت هناك حشود في تلك الطرقات يومًا، والآن أصبحت خطواتي هي الأنيس الوحيد للجدران. عبرت باب سعادة ذا الفتحتين، حاملًا معي نهايتي، فالطريق لتحقيق هدفي قد يكون هو طريق هلاكي، ولا شيء أسوأ من أن تكون عالقًا وحيدًا داخل مدينة أكثر ما تحبه فيها هو مغادرتها.

دار الحكمة -أو كما أسميها دار الشر- على مرمى البصر، يطل بهيمنة من وسط الغبار. اقتربت منه.. كان مبنى كبيرا، زينت واجهته بالزخارف وعبارات التمجيد للحاكم بأمر الله، بوابته يحرسها اثنان أشداء، ويجوب سطحه أربعة حراس يتبادلون مواقعهم بين الوقت والآخر. لا أعلم ما بداخله من قوات، ولكن أعلم أن زبيدة بالداخل. صدق عثمان أم كذب، فهذه هي رحلتي الأخيرة. إن كانت بالداخل، أنقذها ونرحل، وإن لم أجدها، سأحرق هذا المكان وأمضي عائدًا إلى الشام.

المعاناة تجعلنا أقوى. تجبرنا على الصمود. تصنع ما نحن عليه، لنتحلى بالإصرار على مواصلة الطريق. تجعل أحلامنا المستحيلة قريبة. فقط علينا أن نصبر حتى نجني ثمار الإيمان؛ فالكوارث تختبر إيمان البشر، والتضرع وحده لا يكفي، فالإيمان قول وعمل. وإيماني بما أنا مقبل عليه هو ما يدفعني للأمام لتحقيق مرادي.

ليس الحب وحده ما يحركني تجاه زبيدة، إنما واجبي كشخص تسبب في موت أبيها بطريقة أو بأخرى. هي في محنة، ويجب مساعدتها. يقيني بأنها على قيد الحياة يدعمني بنشوة أمل اللقاء. شعور براحة يمتزج بزكاء بديع، من أثر رائحة لها خدر منبعثة في المكان. أستتر بستائر حمراء تهيمن على البهو الرئيسي لدار الحكمة. لم أتخيل دخولي لهذا المكان بهذه السهولة؛ كل ما احتجته كان بعض القوة لتسلق الجدار إلى النافذة الحجرية. لم يلامس الريب قلبي الذي يشتاق لرؤية زبيدة، كيف أصبحت وكيف حالها.

كانت الغرف متباعدة، عبر ممرات حجرية زينت جدرانها عبارة عريضة مركبة من الحروف العربية نحتت في صخر الجدار، والأرضيات رخامية تبعث برودة تلطف الأجواء. النسمات تخفق بالستائر الحمراء الخفيفة، وقناديل كالكواكب تتدلى من السقف تضيف رونقا خاصا على المكان.

كنت ألتحم بالظلال كلما مر رهط من حملة المخطوطات والمجلدات، وأستكشف المكان بحثًا عن أي دليل يقودني لها. بحثت عن زنازين، لأفاجأ بحدائق صغيرة، كمثل تلك التي بمنزل مريمة. الحراس في ذلك القطاع يكثرون. إنه جناح الخاصة، فحراسه

يتشحون بالسواد والعصائب الخضراء. تجولت بعيني في المكان، بحثًا عن سبيل لعبور تلك البوابة. أتفادى المواجهة بقدر المستطاع، وأريد أن أبقى حيًا قدر المستطاع.

استترت بالجدار المؤدي لممر القاعة، وألقيت سلسلتي للأرض، أسحبها فتصدر صليلا قويا، وأمام نواظر الحراس تتلوى كعصا موسى. ابتسمت وأنا أتذكر الفأر صاحب السجن. كان أحدهم يتقدم بحذر، عندما سحبت سلسلتي لتختفي خلف الجدار. وقفت مستعدًا لقدومه، ممسكًا بأفعتي الحديدية، وخنجر ذي مقبض ذهبي كان مِلك عثمان يومًا. وأمام عين الجندي الآخر، الذي مازال يقف عند الباب، كانت السلسلة تلتف حول رقبة رفيقه، الذي سرعان ما اختفى خلف الجدار، محتضنًا نصل خنجري في ألم صامت. خلعت سلسلتي في سرعة وأنا أرقده أرضًا، لأجابه ذلك القادم الجديد. تفاجأ بركلتي، التي جعلته يرتطم في الجدار، قبل أن يستوعب أمر ذلك الشبح الذي ظهر من العدم مطيحًا به.

تركت خلفي الجسدين، وركضت باتجاه الباب العتيق.. فتحته بحذر، ودخلت لأجد مجموعة من النساء تهرولن في كل الاتجاهات مع رؤيتهن لمظهري الغريب. أخذن يصرخن. نساء صحيحات، لا يشوب أجسادهن الضعف والجوع. كنت أبحث بعيني عنها وسط الأجساد المتحركة. وجدتها!.. نعم هي.. عيناها الكحيلة وخدها النضر. نعم هي زبيدة!

لم أصدق ما أرى. سكن كل شيء حولي. تركت روحي تحلق نحوها، فما أجمل لقيا الحبيب بعد شوقٍ يكاد لهيبه يحرق من بالمكان.

خطوت ناحيتها وهي مازالت تقف بنهاية غرفة الحريم، واضعة يدها خلف ظهرها، مبتسمة. كانت تفرج ساعديها، وترفعهما ناحيتي، ولكن بشيء جعلنى أتوقف مذهولًا غير مصدق، قبل أن يصيبنى سهم قوي في كتفي الأيمن. تمنيت لو يكون هذا أحد أحلامي؛ ولكن هذا الألم حقيقي واقعي. تلك الدماء المنسابة هي دماء حبي، أريقت بيديها.

أصبت بسهم من قوس زبيدة، التي كانت ترسل لي ابتسامة موتي. لم أتوقع أن تكون هذه مكافأتي. كم كنت غبيًا!.. كم كنت ساذجًا!.. تذكرت يوم وجودها بباب أبيها أثناء اجتماعنا به. أذكر أيضًا هروبها معنا يوم مقتل أبيها، وكيف كان ينظر لها عثمان حينما أوليت ظهري. أذكر كيف أخفت شيئًا ما في ملابسها قبل أن تتبعنا في طريق الهرب. عرفت الآن من ألقى الأسهم وجعبتها إلى جانب القوس في الحديقة. ولكن هل يعقل أن تقتل ابنة أباها؟!

جاءت الإجابة من خلفي، على شكل ضربة قوية أسقطتني أرضًا على ركبتي أمامها، ومن حولي راح الجند الملثمون ينتشرون في المكان، وبينهم الأشعث بفأسه الكبير وعصابة رأسه الخضراء. دنت مني زبيدة تتهادى ضاحكة. أحاطوا بي، وأمسكوا بذراعي. رفعت غطاء رأسي، وتمتمت بكلمة، لتأتيني بعدها ضربة أخرى جعلتني أهوى بداخل هوة مظلمة.

***

أكانت الخيانة والغدر من طباعها، أم اكتسبتها في فترة أسرها؟ سؤال لا إجابة له، كان يطرق عقلي، الذي راح يصارع ذكريات

كانت هي الأجمل، وغدت الآن ألما يؤرق حبسي. لا أعلم كم مضى على وجودي في تلك الحجرة الخاوية من الأثاث والنوافذ. جُردت من كل أسلحتي، إلا سهما مكسورا بكتفي، مكبلا بأساور من حديد. أصابني ألمي برغبة في البكاء تلح علي، لكن لن أبكي. كيف لشخص عاش على حلم أن يتحمل رؤيته منهدمًا؟ كيف أسعى لحياتها، وتسعى هي لموتي؟

لم ألبث كثيرًا، حتى فتح الباب الخشبي للغرفة، ليبرز الأشعث الضخم متوسطًا رجال سبقوه إلى الغرفة، وراحوا ينهضوني عنوة. أحاطوا بي، واقتادوني عبر الممرات، أسير وسطهم في بطء بفعل الأغلال الحديدية، حتى وصلنا إلى قاعة كبيرة، لها نافذة مفتوحة تصرخ الريح عابرة منها. كنا نتقدم ناحية النافذة، حينما ظهرت «زبيدة» تمشي بخطوات تحمل من الكبر والغرور أُثقالًا، ترفل في ثوب أخضر يحمل زهورًا بيضاء، نقابها حريري، يكشف وجها تؤلمني رؤيته، وإلى جوارها ذلك المجهول مساعد المستنصر، من يطاردني في أحلامي ذو الأنف المعقوف والعينين الغريبتين. إنه غراب تلك المدينة، بسواده المقيت من عمامته حتى أخمص قدميه. أوقفني الحراس أمامها، فكانت نظراتي سلاحي الوحيد، أرسلت بها ما يجيش به قلبي من كره لهما، لعلهما يعجلان بنهايتي. كنت أبادلها النظرات الجافة، حينما جاء صوت ذلك الرجل قائلًا:

– إذن أنت المشاغب الذي قضى على روح الإمام؟

عقدت حاجبي وأنا أنظر له. لم أفهم ما يقصد، إلا عندما قالت زبيدة بصوت يحمل آثار ملل:

- إنه يقصد عثمان.... يُكنّى بروح الإمام.

صوتها الهادىء العذب لا يمثل من غدرت بي، ويجعلني أنسى ذلك السهم المستقر بكتفي. تحولت بنظري لها وهي تكمل:

- قالوا إنك قضيت نحبك بالسجن.

تمتمت قائلًا:

- يا ليتني مت قبل هذا...

ضحكت وهي تلوح بيدها قائلة:

- لا تتعجل، فستذوق الموت بيدي يا حسن.

قالتها وهي تقرب وجهها مني هامسة:

- أسترفض ذلك؟

أشحت بوجهي عنها، لترتطم عيناي برفيقها المهيب، الذي قال بهدوء وهو يجذبها بلطف:

- في كل الأحوال سينال شرف الموت على يدك يا عزيزتي.

كيف يلاطفها ذلك الرجل، وكيف تسمح له بمس ذراعها هكذا؟.. استدارت وهي تجيب عن سؤالي، وكأنها تقرأ أفكاري:

- نعم يا زوجي الحبيب....

قلت وقلبي يشعر بمرارة:

- أنقتلتين أباك من أجل هذا؟ خذلت ثقة وضعتها بك، وقتلت قلبًا أحبك من أجل هذا!

أشارت بأصبعها في وجهي وهي تمط شفتيها قائلة:

- مخطئ أيها الفتى.. لقد قتلت من كان يسمى أبي لأنه خائن. حاول أن يخون عقيدتنا وخليفتنا، بإرسال رسالة لذلك المخرب ناصر الدولة الحمداني. لقد قتلته لأنه هدد حلم شيعتنا بطلبه لنجدة السلاجقة. لم ينس يومًا أنه سني. أتظن أن فتاة مثلي، تربت في دار الحكمة، وسط فقهاء قومها ونجباء عقيدتنا، لها أن تخون الإمام المستنصر؟ فما هربت معك إلا تحت سمع وبصر صاحب الحكمة.

أشارت لزوجها المبتسم في زهو وهي تكمل:

- وما جئت معكما إلا لمنعك من إيصال الرسالة إلى السلاجقة، والقضاء عليكما.

ابتسمت في غنج وهي تقول:

- أعترف أني قضيت وقتًا ممتعًا برفقتك، فسبيلي إليك كان فقط بمعسول الكلام. أما عثمان، أو كما سُمي بعد ذلك روح الإمام، فقد نال حظه من شهوة عابرة، أذقته فيها عسلا، كان بداية الطريق لحصاده المال والجاه وأن يصبح ذا أمن في وقت البلاء. وكما رأيته، كان ذا مكانة بيننا هنا. مسكين عثمان.. كان يظن دومًا أنك صرت عظاما نخرة في غياهب السجن.

أخذت تسير نحوي بهدوء، وعيناها تلاقي عينيَّ وهي تقول بصوت خلا من روح زبيدة التي كنت أعرفها:

- صدقني، الأمر يستحق أن يخونك يا حسن. أن تأخذ نصيبك من المُلك في الدنيا، ذلك يستحق خيانة صديق. ولأن تُصبح ضمن أهل الحكمة، فعليك التضحية بالنواصب مثلك، وأن تتفاني في

خدمة الإمام، وهو ما فعله. وكما ترى، طوال سنوات الشدة حفظنا هنا أسرارنا، كما حفظنا ملكنا، ومع قلة الزاد وكثرة الوباء، لم نكن نملك إلا أن نتركهم يأكلون بعضهم، ولنتذوق نحن أيضًا طعم اللحم من قطعاننا. إنهم لا يستحقون الحياة التي يفعلون أي شيء من أجلها.. لن يثنينا شيء عن حلمنا... فإن كان السلاجقة يجتاحون الشام وصولًا لفلسطين، قريبًا سيعم الخير ببركات الحسين والزهراء، وسندخل بغداد ونصل لأهلنا هناك في فارس، ونقيم دولتنا حكامًا للعالم وحماة الدين.. يا حسن، من يعمل من أجل عقيدته ينتصر.

دفعوني للأمام مع جملتها الأخيرة، التي صدقت فيها. من يعمل بعقيدة ينتصر. صاروا يدفعونني دفعًا ناحية النافذة تلك الفتحة الكبيرة بالجدار، كباب كبير يطل على نهايتي. الريح المحملة بالأتربة تغطي المآذن والقباب في الخلفية.. أوقفوني على الحافة، وأخذ الأشعث يلف حبلا غليظا حول عنقي. أدركت أني سأشنق وأظل معلقًا، حتى تقتات على لحمي الغربان، إن كان حظي سعيدًا. نعم كنت غبيًا حينما أحببت.

تعلمت شيئا أخيرا... أن لا أثق إلا به.

رفعت رأسي للسماء المغبرة بالصفار... أنتظر دفعة تكون الأخيرة.

***

لم أر ملائكة ترافق ملك الموت، الذي لا أثر له أيضًا في السماء. صوت خطوات من خلفي طرق أذني، أعدها في انتظار أن يدفعني القادم لأحلق متعلقًا في سماء الساحة، في نهاية لم أستطع يومًا تخيلها.

أغمضت عيني و....

«فتى صغير يركض حافي القدمين في حارات دمشق... يرتوي بماء زمزم.. أتت به عمته من الحجاز... تفرك وجهه متمتمة بآيات من الذكر. دمشق بأسوارها العتيقة، ورايات السلاجقة السوداء.. خيول قوية وفرسان حديديون يتقدمهم السلطان «ألب أرسلان» وجواره وزيره «نظام الملك»... رحلة طويلة في طلب العلم، أودت بي إلى جنة من جنان الأرض، حيث حُبٌ نبت في قلبي فقط.

أرض تحمل في طياتها عبق من سكنها على مر العصور، لكن أهلها ارتضوا الهوان تحت حكم العبيدين، وسرعان ما أصاب مصر ونهرها العذب الجدب. تبدل الحال في ليلة وضحاها... السجن والظلم، ليالي الوحدة الموحشة، ووجوه كثيرة رافقتني في حياة قصيرة جدًا. كان عليَّ أن أنتبه، وألا أسير خلف سراب الحب والثقة، اللذين قاداني إلى نهايتي هذه.

صوت أزيز قوي هشم مخيلتي، مارًا لجانب أذني، باعثًا شعورًا بنيران تكاد تحرق أذني. قبل أن أفتح عيني، كان قد مر عن يساري صوت يشبه سابقه. استدرت في سرعة، لأجد الحارسين خلفي، وقد أصاب كلًا منهما سهمًا ناريًا. حالة من الفزع أصابت زبيدة وحراسها. لم أكد أستوعب الأمر، حتى كان سهم آخر يستقر بالستائر المزينة للقاعة، لتشتعل النيران في سرعة.

أقف على حافة الهاوية، أنتظر موتي أو نجاتي، التفت لأرى الساحة والارتفاع الشاهق. يا ويلي! ذلك الحبل يلتف حول عنقي وقدميّ،

ويداي مكبلتان بالحديد. أثناء نظري للمكان تحتي، سقط أحدهم من أعلى، أفزعني أكثر من صوت زوج زبيدة، الذي كان يهدر غاضبًا والنيران تلتهم المكان في الداخل. موقف لم يمر عليَّ مثله في حياتي.. الموت أو النجاة آتٍ من خلفي، حتى انتشلني نسر عملاق من نافذة الإعدام. شيء ما أمسك بي، قبل أن يقطع حبل مشنقتي ويتأرجح على الجدار نزولًا. حاولت أن أتبين ملامحه، لكن كان يجب عليَّ أن أنتظر حتى يهبط بي إلى الأرض.

ما إن لامسنا الأرض، حتى اعتدلت في سرعة، مع صوت مألوف يقول:

- حان وقت رد الجميل يا سيدي.

كان ذلك يعقوبـ الذي أشهر سيفه وضرب على أغلالي في قوة، ثم مد يده لي يساعدني للنهوض. احضتنته، وربت على كتفه قائلًا:

- نعم الأخ يا يعقوب.

فى تلك الأثناء، كانت تبرز من وسط الغبار.. مليكة، بزيها المميز، ومن خلفها مجموعة من الرجال يرفلون بملابس تشبه أزيائنا، بمختلف الألوان. مروا الى جانبي، منطلقين للاشتباك بقوات دار الحكمة أصحاب العصائب الخضراء. فرصة جديدة منحني إياها القدر للانتقام. ركضت مع الرجال، حاملًا سيفا أعطاه لي يعقوب. كانت انتفاضة الأحياء.. كل من يشارك في تلك المعركة هم من الناجين في زقاق القناديل، جاؤوا ليردوا دينهم لي. أغلبهم ضعفاء، ولكن أزياءهم المقلدة لملابسي تمنحهم مظهرا خاصا. الأرضيات

الرخامية ارتوت بالدماء، والحريق يمتد من الملحق السكني بدار الحكمة إلى القاعات وغرف الفقهاء. يحاول الخدم إخماد النيران، فيما تركض هي وزوجها ومن حولهما مجموعة من الحراس يقودهم الأشعث. أشرت ليعقوب المنهمك في القتال بأن يتبعني، فأطلق صفيره، لتنتبه مليكة وتتبعنا هي الأخرى. وسط الدخان والنيران، كانت أسلحتي تقبع قرب أحد أبواب القاعة، حيث احتجزت، وإلى جوارها حارس يشوى بالنيران. سحبت سلسلتي وحزام سيفي.. خنجر عثمان يعود إلى غمده في حذائي.. من خلفي مليكة ويعقوب ورجلين آخرين. صرنا نقاتل في عنف، حتى وصلنا إلى تلك القاعة الخاوية إلا من حراس فزعين متربصين، يلتفون حول زبيدة وزوجها، الذي كان يزيح جزءًا من الجدار. دخلنا القاعة، وفي سرعة كان اشتباكنا مع الحرس.

كانت سلسلتي تضرب صدر أحدهم، في الوقت الذي كان خنجر مليكة يذبح الآخر، ويعقوب كعادته يتقافز موجهًا ضرباته بين شخصين، فيما أنهمك الرجال في مبارزة شرسة مع حراس دار الحكمة. ما إن انتهيت من مبارزي، حتى وجدت الأشعث يهوي عليَّ بفأسه الكبير صارخًا. انتبهت، فألقيت بنفسي أرضًا، ورحت أزحف بعيدًا. ركض نحوي ملوحًا بالفأس، دون أن يأبه بتساقط السقف الخشبي المحترق. أحسست في تلك اللحظة بأجنحة الموت تحلق في سماء الغرفة الممتلئة بالدخان. في محاولة يائسة، ألقيت سلسلتي نحوه، في محاولة لإصابته، فابتعد عنها ضاحكًا، ومن خلفه زوج زبيدة ينادي عليها لتدلف خلفه إلى الباب الحجري في الجدار:

- هيا يا زبيدة، لا وقت لدينا...

لم تجبه، وهي تلتقط سيفًا من أحد القتلى، لتجابه مليكة التي كانت تقفز ناحيتها شاهرة سيفها. قبل أن أنقل بصري إلى الأشعث، تلقيت ضربة أطاحت بي أرضًا، لينقض بعدها راكلًا صدري، مع محاولتي للنهوض. استلقيت على ظهري والألم يعصف بأضلعي، بينما تقدم هو ضاغطا على جرح سهم زبيدة في كتفي. أفلتت مني صرخة ألم، كتمتها الجدران المشتعلة.. تراجع خطوة وهو يرفع فأسه قائلًا بصوت أجش:

- لا يموت النواصب إلا بقطع الرأس.

رفع فأسه ضاحكًا، وقبل أن يهوي بسلاحه على رأسي، كان خنجري يستقر بقدمه. تراجع متألمًا يطلق السباب الممتزج بالصراخ. نهضت، في الوقت الذي كان يعقوب يصرخ فيه قائلًا:

- لنخرج من هنـــا المكان ينهـــــار..

اعتدل الأشعث، ليجدني أقف أمامه في تحد محدثًا إياه:

- الرأس لا تقطع يا هذا، وإنما تجز وتنحر....

أنهيت كلماتي وأنا أرسل سلسلتي بشفراتها، لتلتف حول رقبته. ألقى سلاحه، وأمسك بالسلسلة محاولًا جذبها، ولكن كان عليه أن يوقف الدماء التى تفجرت مع سحبتي القوية السريعة له. سقط الأشعث مع سقوط مليكة أرضًا جريحة، ومن خلفها كانت تقف زبيدة ممسكة بقوسها توجهه إلى صدري، لتطلق سهمها، لكنه لم يصبني، لتتلاقى الأعين في لحظة سقوط جزء مشتعل من السقف،

مثيرًا سحابة من غبار أسود يلفح الوجوه، انتشلنا من جمودنا. ووسط الضباب الأسود، رأيتها تدلف خلف زوجها إلى باب السرداب. ركضت ناحيتها متتبعًا أثرها، تاركًا يعقوب يساعد مليكة على النهوض. كانت الرؤية معدومة مع الدخان الكثيف. وأخيرًا، رحت أقترب من زوجها، الذي أفسح لها المجال لتتقدمه. قفزت لأمسك به، في الوقت الذي دوى صوت انهيار أجزاء من المبنى، جعلت أركان النفق تهتز، ويتشقق سقفه بصوت يقرع الآذان. كدت أختنق، ولكني لن أتركه. كنت أمسك به من منتصف جسده، يحاول الزحف وهو يركل بطني. مع محاولاته اليائسة وصرخاته، عادت زبيدة راكضة باتجاهنا، تزمجر مشهرة قوسها. كان سهمها الأخير الذي لم تطلقه بفعل تساقط أمطار من حجارة السقف. أفلت الرجل، الذي زحف سريعًا يحاول النهوض والنجاة مع زوجته، ولكن كان للقدر رأي آخر، فقد ارتج المكان بعنف، قبل أن تهبط كتل الحجارة الضخمة فوقهما. كنت أتراجع في محاولة للابتعاد عن المكان، حين سمعت صرخات زبيدة وزوجها.. لقد دفنا تحت الحجارة.

أخيرا خرجت من النفق، عائدًا إلى جهنم.. هكذا كانت القاعة الكبيرة. لم أفعل كل هذا لأموت. سأنجو، نعم سأنجو. ركضت نحو إحدى المشربيات في آخر الرواق. إنها تشتعل، ولكن لا يهم، فلتكن بوابتي للنجاة. ارتطم جسدي بها في عنف، وسقطت من ارتفاع عال، لينهار المبنى من خلفي، في اللحظة التي ألامس فيها الأرض وتغمض عيني.

***

استفقت مع أياد تعبث بجسدي. نوبة من السعال أصابتني، وأنا أفتح عيني على وجه يعقوب المبتسم في بلاهة، بوجه ملطخ بالرماد الأسود. أزاح بعض الأحجار الصغيرة عني، لأنهض وأجد من تبقوا من رجاله يساعدون بعضهم البعض. استدرت لأرى الجناح السكني لدار الحكمة قد انهار تمامًا، ليصبح قبرا لزبيدة وزوجها. لحظات صمت، نظرت بعدها ليعقوب متسائلًا:

- مليكة!

حرك رأسه للناحية الأخرى، فتابعته بنظري، لأجدهم يحملونها ويرحلون بعيدا. لم تمر دقائق، إلا وكنا نرحل من المكان قبل وصول الحرس. صمت طويل صار فينا، قبل أن يخترقه يعقوب قائلًا:

- لقد توجهنا شمالًا ناحية دمياط كما أمرتنا. ولكن الرجال لم يرضوا باختيارك أن نرحل دونك. عدنا إلى زقاق القناديل منذ أيام، ولم نجد سوى بعض العظام وآثار دماء، فعينت مليكة بعض الرجال على أبواب القطائع والعسكر والفسطاط لمعرفة مكانك، ورآك أحدهم في صباح اليوم وأنت تخرج من القطائع، وأرسل من يبلغنا، بينما تتبعك إلى ذلك المكان. كان علينا إنقاذك، كما أنقذتنا ومنحتنا الحياة...

توقفت بعد أن خرجنا من القاهرة قائلًا:

- يعقوب، شكرًا لك.

مددت يدي له، وما إن ملكت يده جذبته إلى كتفي، فقال يعقوب:

- ألن تخبرني بسرك يا سيدي؟

ضحكت وأنا أتركه، راحلًا باتجاه القطائع، ودون أن ألتفت قلت وأنا أشير إلى رأسي:

- السر هنـــــا يا يعقوب.. السر هنا.

نعم، السر بالعقل الذي ساعدني طوال هذه الفترة على النجاة. منحني الله العقل، فأعملته لكي أبقى حيًا. لكي تنجو، عليك فقط أن تمنح عقلك القيادة.. أن تعطيه فرصته ليبدع ويخلق سبلا ويطورها مع الوقت. والأهم من ذلك، أن تمنحه الإيمان، فيمنحك الأمل. الآن انتهى كل شيء. فقط سأحزم ما أستطيع حمله من أمتعة.. مجلداي، ونظرة أخيرة علىٰ بيت عبد الرحيم ومريمة، ذلك البيت الذي تعلمت فيه الكثير والكثير.. بيت تتنزل فيه الرحمات دونًا عن غيره من الديار الخالية من أصحابها. تركت سلسلتي وسيفي، لم أعد أحتاجهما.

هذه آخر صفحات المجلد الثاني من حياتي القصيرة في بر مصر. مختصر أربع سنوات، قضيتها حيًا بشكل أو بآخر، استخلصت منها تجربة فريدة، أحملها معي إلى الشام، ليعلم الجميع قصة هلاك قوم نسوا الله فأنساهم أنفسهم.

لم يتبق سوى رقعة بيضاء وبعض الحبر. سأحتفظ بها لعلها تنفع......

الفقير إلى الله حسن بن عبد السلام الدمشقي

القاهرة

انتهى

«الرقعة المنفصلة»

«أرى النجاة على مرمى بصري الضعيف. وهنت قدماي، ولم أعد أقوى على السير والحركة. لا أعلم أي عقاب هذا الذي أنزله الله بي؟! لم آكل منذ خرجت من الفسطاط سوى بضعة أوراق جافة، أصابني الصبار بالجفاف، وكأنه ينقصني المزيد منه. حيمنا يبزغ الفجر، سأحاول الوصول إلى تلك المدينة ذات الأسوار البيضاء.. لا أعلم أهي حقيقة أم سراب.

قد أتى الصباح بعد ليل طويل، نخرت برودته عظامي الضعيفة. بالكاد أحاول الكتابة بما تبقى في أصابعي من قوة....

ضيق الأنفاس يلاحقني، وتلك الطيور تنتظر موتي لتنال من لحمي الجاف؛ هذا إن وجدت ما تأكله مني، فقد غدوت طبقة من الجلد اليابس.

في الليل، سمعت ضحكات ضبع جائع، أحسست بأنفاسه على وجهي. يبدو أنه أنف أكلي. تمنيت أن يمتزج الموت بأسنانه، ليريح

روحي من عذاب الجوع وألم الاحتضار. ابتعد وتركني لأحظى بفرصة للنجاة، ولكن يبدو أنها النهاية، فإن لم تأكلني الضباع حيًا، ستأكلني النسور ميتًا.

لن تكون النهاية هكذا. سأصل للمدينة القريبة زحفًا إن تطلب الأمر. لن أدع الموت ينال مني، فلم أواجه تلك الأهوال لأموت هكذا....

لن أستسلم للموت الآن.

فإن الاستسلام كُفر بمشيئة الله..

من وهبني الحياة وهبني النجاة..

بالتأكيد ليست هذه النهاية»

***

القاهرة

ربيع١٠٧١ م - ٤٦٤ هـ...

الحياة تدب بعد شهر من حريق دار الحكمة. انسابت المياه لتروي مجرى النيل اليابس، وتبشر بخير قادم في الأفق، على أجنحة طير يحلق ناحية الصعيد، يحمل بشائر الأمل. الشمس تتوارى خلف غيم اشتاقت له طوال سنوات من الإشراق الدائم. القاهرة وشقيقاتها الكبرى في جمودهم القاتم، وإحدى حارات القاهرة المقفرة، تهبط على أرضيتها حمامة بيضاء، لتثير فضول المُلثمين المارين في هدوء. توقف أحدهم محدقًا فيها وهو يقول هامسًا لرفيقه:

- إنها بشائر الخير يا مليكة!

حركت مليكة ذات اللثام الأحمر وغطاء الرأس الأسود رأسها، وهي تقول بصوت خافت يحمل اللوم:

- فلندع أمر الحمام الآن، وننهي ما أتينا من أجله.

قطع الاثنان طريقهما عبر الحارات الضيقة، ناحية القصور السلطانية. كان عليهما التأكد من شيء، أبلغهم به أحد عيونهم. لقد دخلت فجرًا إلى القاهرة قافلة ضخمة تعج بالحراس الأقوياء. لأول مرة منذ سنوات تظهر الخيل والإبل في شوارع القاهرة، تقبع جميعها في ساحة بين القصرين الغربي والشرقي. لم يأتوا من أجل القافلة وبضاعتها، التي انهمك الجند في إنزال حمولتها، وسط ترقب من جوعى يختفون في الظلال، ينتظرون الفتات إن بقي. لا يجرؤان على الهجوم وسط هذا الحشد من الجند المدججين بالسلاح. ترك يعقوب ومليكة القافلة وأمرها، وهما يقفزان من السور الخلفي للقصر الشرقي.. كان هدفهما حمولة خاصة جاءت مع القافلة.

توقفا قرب حوض جاف بالحديقة، حينما شاهدوها تخرج من إحدى الغرف، يسير بجانبها رجل أحنى ظهره تبجيلًا وهو يسير. كانت تملي عليه بعض الأمور، وهو يتبعها ومن خلفه جنديان يحملان الحراب. مضت في طريقها، بينما توقف الرجل الذي أخذ يسير كالمخبول، قادمًا باتجاه مكان اختبائهما. لم يمهلاه فرصة لفهم الأمر، فقد انقضا عليه. أسقطه يعقوب أرضًا، بينما وضعت مليكة خنجرها على رقبته قائلة بصوت بعث القشعريرة في جسده:

- أين مريض القافلة؟...

ارتعد الرجل، وحملقت عيناه وهو يقول في خوف:

- أي.. أي مريض تقصدين؟

لامست بنصلها رقبته المتعرقة، فجحظت عيناه، ليقرر البوح:

- أتقصدون ذلك الشخص الذي حملناه من الطريق؟

حرك يعقوب رأسه، في إشارة إيجاب، فأشار الرجل إلى الغرفة التي خرجت منها السيدة، فقالت مليكة:

- وماذا كانت تقول لك تلك المرأة؟

- أتقصدون الأميرة زبيدة؟

لكمة قوية أتبعت اسمها، لجعل الرجل ينطق متلعثمًا بفعل الألم:

- لقد قالت إن هذا الرجل قتل زوجها، وأنه مطلوب للقصاص، ولم تدفع أي شيء مقابله. بالغرفة مجموعة من الأطباء يحاولون أن يبقوه حيًا ويعالجونه.

ضربتان سريعتان على عنقه كانتا تكفيان لجعله يصمت، فقد علما الآن من هو صاحب الجسد.

***

بعد ساعات، وفي إحدى الغرف بمنزل قديم بالفسطاط، كان «حسن» يفتح عينيه في بطء. دقائق مرت، حتى اتضحت الرؤية.. كانت ضبابية قليلًا، ولكن سرعان ما تبين المكان. حاول النهوض من الفراش، عندما وجدهم يحملقون في وجهه مبتسمين. كان يحدث

نفسه أنها أرواحهم تلاقت في الملكوت. ولكن كيف، وهو قد تركهم أحياء ورحل؟! كان ينظر إليَّ وجهي يعقوب ومليكة، يتأملهما في دهشة. حاول النهوض، ولكن يعقوب أوقفه قائلًا:

- ابق كما أنت، لا تتحرك، فمازلت تحتاج للراحة.

نظرة طويلة تبادلها حسن مع يعقوب، أتبعتها لحظات في تأمل السقف، قبل أن يقول بصوت يشوبه الإرهاق:

- أين أنا؟

قالها وهو يدير وجهه ناحية مليكة، التي كانت تجلس قرب الباب، وعيناها تحمل بريقًا يوحي بابتسامة عريضة تحت نقابها وهي تقول:

- مرحبًا بعودتك للقاهرة يا سيدي. يبدو أنك صُنعت لها.

تمت بحمد الله

شكر خاص

لكل من ساهم في خروج هذا العمل للنور

مريم المير

نهى عودة

ريهام الجريتلي

شيماء سعد

صفا ممدوح

أسماء حمدي

أمير حسين

هيثم فهمي

أيمن حويرة

أحمد السعيد مراد

بلال العربي

أحمد عيسى

طارق باش

زكريا السمهري

أحمد مِسك

حازم حمدي

مراجع ومصادر:

١. الدولة الفاطمية تفاريح وتباريح - جمال بدوي

٢. الحاكم بأمر الله (أسرار الدعوة الفاطمية) - محمد عبد الله عنان

٣. إغاثة الأمة بكشف الغمة - المقريزي

٤. المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار - المقريزي

٥. تاريخ البطاركة - ساويرس بن المقفع

ابق حيا

المُعاناة تجعلنا أقْوَى .. تُجبرُنا على الصُّمود .. تَصْنعُ ما نحنُ عَلَيْـه لنَتَحلَّى بالإصرار علـى مُواصلَة الطّريـق .. تَجْعـلُ أحْلامَنـا المستحيلةَ قريبـةً ، فقـط علينا أن نصبـر حتـى نجنـي ثمار الإيمانِ ؛ فالكوارث تختبـر إيمان البَشَر.. والتَّضَرُّعُ وحدهُ لا يكفي.. فالإيمانُ قوْلٌ وعَمَلٌ ، و إيماني بما أنا مُقْبلٌ عليه هو ما يدفعني للأمام .. لِتَحْقيقِ مُرادي..

إبراهيم أحمد عيسى

تصميم غلاف / كريم مرغنى

